السّلسلة الكلاميّة

٢٢

أبو ا مت الرّازي

أعلام النّبوّة

الجزء الأوّل

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

2020

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – عمارة عدد 3 – شقّة عدد 2 – المنار 2 – أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر : 02-9938
عدد الطّبعة: الثّالثة
ت د م ك : 978-9938-02-034-2
تمّ سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو حاتم الرّازي

أعلام النّبوّة

الجزء الأوّل

التّصغير

الـرّـصـديـّ

I – أبو حاتم الرّازي:

قال[1] الذّهبي: «محمّد بن ادريس أبو حاتم الرّازي، الحافظ، سمع الأنصاري وعبيد الله بن موسى، وعنه درس، وولده عبد الرّحمن بن أبي حاتم، والمحاملي. قال موسى بن اسحاق الأنصاري: ما رأيت أحفظ منه. مات في شعبان سنة 277»[2].

وقال السّمعاني: «إمام عصره والمرجوع إليه في مشكلات الحديث، من مشاهير العلماء المذكورين، الموصوفين بالفضل والحفظ والرّحلة، ولقي العلماء»[3].

وقال ابن حجر: «د، س، ق محمّد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي، أبو حاتم الرّازي، الحافظ الكبير، أحد الأئمّة... روى عنه: أبو داود والنسائي وابن ماجة في التّفسير... قال الحاكم أبو أحمد في الكنى: أبو حاتم محمّد بن إدريس، روى عنه: محمّد بن إسماعيل الجعفي وابنه عبد الرّحمان.. ورفيقه أبو زرعة... وآخرون.

قال أبو بكر الخلال: أبو حاتم إمام في الحديث، روى عن أحمد مسائل كثيرة وقعت الينا متفرقة، كلّها غريب.

وقال ابن خراش: كان من أهل الأمانة والمعرفة.

وقال النّسّائي: ثقة.

وقال اللاّلكائي: كان إمامًا، عالما بالحديث، حافظًا له، متقنًا متثبّتًا.

---

[1] اقتُبِست هذه التّرجمة من الموْسوعة الإلكترونيّة "ويكيبيديا".

[2] الكاشف 4761/3:6.

[3] الأنساب 2:279.

وقال الخطيب: كان أحد الأئمّة الحفاظ الأثبات، مشهورًا بالعلم، مذكورًا بالفضل... مات بالري 277»[1].

1 – نسبه:

هو محمّد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران.

2 – كنيته:

يكنّى أبا حاتم، وقد اشتهر بهذه الكنية.

3 – نسبته:

يقال له الرّازي نسبة إلى وطنه الري بزيادة زاي، وأصله من أصبهان, ومن أجل ذلك ترجم له أبو نعيم في كتابه أخبار أصبهان، ويقال له الغطفاني، ويقال الحنظلي، وحنظلة بطن من غطفان، ونسبته إليهم نسبة ولاء كما في الخلاصة للخزرجي، وقال ابنه عبد الرّحمان كما في اللّباب: "نحن من موالي تميم بن حنظلة الغطفاني من غطفان"، وقال ابن الأثير: "وأمّا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلي فمنسوب إلى درب بالري يقال له: درب حنظلة".

4 – رحلته في طلب الحديث:

بدأ كتابة الحديث سنة تسع ومائتين أي وعمره أربع عشرة سنة، ورحل في طلبه وهو صغير، فرحل إلى الكوفة والبصرة وبغداد ودمشق وحمص، ورحل إلى مصر وبقي في الرّحلة زمانا, وحصل له في ذلك أمور عجيبة قال ابنه: سمعت أبي يقول: "أوّل سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العدد بعد ذلك، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشيًا، ثمّ إلى الرّملة ماشيًا، ثمّ

---

[1] تهذيب التهذيب 9:28-30.

إلى دمشق ثم إلى أنطاكية ثم إلى طرسوس ثمّ رجعت إلى حمص ثم منها إلى الرقة ثم ركبت إلى العراق كلّ ذلك، وأنا ابن عشرين سنة، وقال: بقيت بالبصرة سنة أربع عشرة أي ومائتين فبعت ثيابي حتى نفدت، وجعت يومين فأعلمت رفيقي، فقال: معي دينار فأعطاني نصفه، وطلعنا مرة من البحر وقد فرغ زادنا فمشينا ثلاثة أيّام لا نأكل شيئًا ..." إلى آخر القصة، وهي مذكورة في طبقات الشافعية وتذكرة الحفاظ وغيرهما .

5 – ممّن روى عنهم:

روى عن محمّد بن عبد الله الأنصاري وعثمان بن الهيثم وعفّان بن مسلم وأبي نعيم عبيد الله بن موسى وآدم بن أبي إياس وأبي اليمان وسعيد بن أبي مريم وأبي مسهر وغيرهم .

6 – ممّن رووا عنه:

روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابنه عبد الرحمن، وروى عنه عبدة بن سليمان المروزي والربيع بن سليمان المرادي ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عوف الطائي وهم من شيوخه، ورفيقه وابن خالته أبو زرعة الرازي ومحمد بن هارون الروياني وأبو عوانة الإسفرائيني وابن أبي الدنيا وأبو زرعة الدمشقي وأبو عمرو بن حكيم وغيرهم.

7 – مَن خرّج حديثه:

خرّج حديثه أبو داود والنسّائي وابن ماجة، وقد رمز لإخراجهم حديثه في سننهم الحافظ في *تهذيب التّهذيب* و*تقريبه* والخزرجي في *الخلاصة*، وذكر الحافظ في *تهذيب التّهذيب* أنّ ابن ماجة روى عنه في التّفسير، وقد روى البخاري في *الصّحيح* في باب المحصر عن محمّد غير منسوب عن يحي بن صالح، وفي آخر تفسير سورة البقرة عن محمّد غير منسوب عن النفيلي؛ ويحتمل أن يكون هو أبا حاتم الرّازي كما في *فتح الباري* 7/4

و 206/8. وقال ابن السّبكي في *طبقات الشّافعيّة*: "وقيل إنّ البخاري وابن ماجة رويا عنه، ولم يثبت ذلك".

8 – ثناء الأئمّة عليه:

قال أبو بكر الخلال: "أبو حاتم إمام في الحديث"، وقال ابن خراش: "كان من أهل الأمانة والمعرفة"، وقال النسائي: "ثقة"، وقال أبو نعيم: "إمام في الحفظ والفهم"، وقال اللالكائي: "كان إماما عالما بالحديث حافظا متقنا ثبتا"، وقال ابن أبي حاتم: "سمعت موسى بن إسحاق القاضي يقول: ما رأيت أحفظ من والدك، قلت له فرأيت أبا زرعة؟ قال لا، قال: وسمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان ودعا لهما وقال: بقاؤهما صلاح للمسلمين"، وقال الخطيب: "كان أحد الأئمة الحفاظ الأثبات مشهورا بالعلم مذكورا بالفضل"، وقال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي يقول: قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغرب عليّ حديثا غريبا مسندا صحيحا لم أسمع به فله عليّ درهم يتصدّق به وهناك حلق من الخلق أبو زرعة فمن دونه، وإنّما كان مرادي أن أستخرج منها ما ليس عندي، فما تهيأ لأحد منهم أن يغرب عليّ حديثا"، وقال أحمد بن سلمة النّيسابوري: "ما رأيت بعد إسحاق ومحمّد بن يحي أحفظ للحديث ولا أعلم بمعانيه من أبي حاتم"، وقال عثمان بن خرزاذ: "أحفظ من رأيت أربعة: إبراهيم بن عرعرة، ومحمّد بن المنهال الضرير، وأبو زرعة، وأبو حاتم".

وقال أبو حاتم: "قدم محمّد بن يحي النّيسابوري الريّ، فألقيت عليه ثلاثة عشر حديثًا من حديث الزّهري، فلم يعرف منها إلاّ ثلاثة"، قال الحافظ ابن حجر: "وهذا يدلّ على حفظ عظيم فإنّ الذهلي شهد له مشايخه وأهل عصره بالتّبحّر في معرفة حديث الزّهري ومع ذلك فأغرب عليه أبو حاتم"، وقال في *تقريب التّهذيب*: "أحد الحفاظ"، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: "أحد الأئمّة الحفّاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتّعديل"، وقال الذّهبي في *العبر*: "حافظ المشرق"، وقال: "وكان بارع الحفظ

واسع الرحلة من أوعية العلم"، وقال: "كان جاريا في مضمار البخاري وأبي زرعة الرّازي"، وقال في *تذكرة الحفّاظ*: "الإمام الحافظ الكبير أحد الأعلام"، وقال ابن ناصر الدين – كما في شذرات الذهب لابن العماد–: "كان في مضمار البخاري وأبي زرعة جاريًا، وبمعاني الحديث عالمًا، وفي الحفظ غالبًا، وأثنى عليه خلق من المحدّثين"، وقال الحافظ في *تهذيب التّهذيب*: "وقال مسلمة في *الصّلة*: كان ثقة، وكان شيعيًّا مفرطًا، وحديثه مستقيم"، قال الحافظ: "ولم أر من نسبه إلى التّشيّع سوى هذا الرّجل، نعم ذكر السّليماني ابنه عبد الرّحمان من الشّيعة الذين كانوا يُقدّمون عليًّا على عثمان كالأعمش وعبد الرزّاق، فلعلّه تلقّف ذلك من أبيه؛ وكان ابن خزيمة يرى ذلك أيضا مع جلالته".

9 – آثاره:

يوجد في المكتبة الظّاهريّة بدمشق (من كتاب الزّهد عنه) مخطوطًا في المجموعة رقم 28، وفي معهد المخطوطات بالقاهرة: الضعفاء والكذابون والمتركون من أصحاب الحديث عن أبي زرعة وأبي حاتم الرّازيين ممّا سألهم عنه وجمعه وألّفه أبو عثمان سعيد بن عمرو بن عمار البرذعي المتوفّى سنة 292 هـ رقم 719 فهرس قسم التّاريخ، وفي *معجم المؤلّفين* 35/9 من آثاره: *تفسير القرآن*، *الجامع في الفقه*، *الزّينة*، *وطبقات التّابعين*.

10 – وفاته:

توفّي أبو حاتم الرّازي –رحمه الله– سنة سبع وسبعين ومائتين، قال الحافظ في *تهذيب التّهذيب*: "قال ابن المنادى وغير واحد: مات في شعبان سنة سبع وسبعين ومائتين، وقال ابن يونس في تاريخه مات سنة تسع وسبعين ومائتين، قال الحافظ: والأوّل أصحّ"، ثمّ قال: "وكان مولده سنة خمس وتسعين ومائة"، وقال الذّهبي في *التّذكرة*: "توفّي أبو حاتم سنة سبع وسبعين أي ومائتين، وله اثنتان وثمانون سنة" انتهى، وروى الخطيب بإسناده إلى أحمد بن محمود ابن صبيح أنّه قال: "سنة سبع وسبعين ومائتين فيها مات أبو حاتم الرّازي بالريّ".

11 – ممّن ترجم له:

1 – ابن القيسراني في الجمع بين رجال الصحيحين 467.

2 – والذهبي في العبر 58/2. وفي تذكرة الحفاظ 146/2.

3 – وابن حجر في تهذيب التهذيب 31/9. وفي التقريب 143/2.

4 – والخزرجي في خلاصة تذهيب الكمال 278.

5 – وابن كثير في البداية والنهاية 59/11.

6 – والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 73/2.

7 – والعليمي في المنهج الأحمد 183/1 .

8 – وابن العماد في شذرات الذهب 171/2 .

9 – وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة 284/1 .

10 – وابن السبكي في طبقات الشافعية 299/1 .

11 – وابنه عبد الرحمن في مقدمة الجرح والتعديل 349 .

12 – وأبو نعيم في أخبار أصبهان 201/2 .

13 – وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين 35/9 .

II – أبو بكر الرّازي:

هو أبو بكر محمّد بن يحيى بن زكريا الرّازي، عالم وطبيب فارسي (ح 250هـ-5 شعبان 311هـ / 864 م- 19نوفمبر 923 م)، ولد في مدينة الري.

وهو أحد أعظم أطبّاء الإنسانيّة على الإطلاق، كما وصفته زجريد هونكه في كتابها *شمس الله تسطع على الغرب* حيث ألّف كتاب *الحاوي في الطبّ* كان يضمّ كلّ المعارف الطبيّة منذ أيّام الإغريق حتّى عام 925 م، وظلّ المرجع الطبّي الرّئيسي في أوروبّا لمدّة 400 عام بعد ذلك التّاريخ.

درس الرّياضيات، والطبّ، والفلسفة، والفلك، والكيمياء، والمنطق، والأدب.

في الريّ اشتهر الرّازي وجاب البلاد، وعمل رئيسًا لمستشفى، وله الكثير من الرّسائل في شتّى مجالات الأمراض، وكتب في كلّ فروع الطبّ والمعرفة في ذلك العصر، وقد ترجم بعضها إلى اللاّتينيّة لتستمرّ المراجع الرّئيسيّة في الطبّ حتّى القرن السّابع عشر، ومن أعظم كتبه "تاريخ الطب"، وكتاب "المنصور" في الطبّ، وكتاب "الأدوية المفردة" الذي يتضمّن الوصف الدّقيق لتشريح أعضاء الجسم.

وهو أوّل مَن ابتكر خيوط الجراحة، وصنع المراهم، وله مؤلّفات في الصّيدلة ساهمت في تقدّم علم العقاقير. وله 200 كتاب ومقال في مختلف جوانب العلوم.

1 – حياته ونشأته:

لقد سجّل مؤرّخو الطب والعلوم في العصور الوسطى آراء مختلفة ومتضاربة عن حياة العالم أبي بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي، ذلك الطبيب الفيلسوف الذي تمتاز مؤلّفاته وبعضها باللغة العربية، بأصالة البحث وسلامة التفكير. وكان مولده في مدينة الري، بالقرب من مدينة طهران الحديثة. وعلى الأرجح أنّه ولد في سنة 251 هـ / 865 م.

وكان من رأي الرّازي أن يتعلم الطلاب صناعة الطب في المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان، حيث يكثر المرضى ويزاول المهرة من الأطباء مهنتهم. ولذلك أمضى ريعان شبابه في مدينة السّلام، فدرس الطب في بغداد .وقد أخطأ المؤرخون في ظنّهم أنّ الرّازي تعلّم الطبّ بعد أن كبر في السنّ. وتوصّل المؤرّخون إلى معرفة هذه الحقيقة من نصّ في مخطوط مكتبة بودلي بأكسفورد، وعنوانه "تجارب ممّا كتبه محمّد بن ببغداد في حداثته"، ونشر هذا النصّ مرفقًا بمقتطفات في نفس الموضوع، اقتبستها من كتب الرّازي التي ألّفها بعد أن كملت خبرته، وفيها يشهد أسلوبه بالاعتداد برأيه الخاصّ.

بعد إتمام دراساته الطبيّة في بغداد، عاد الرّازي إلى مدينة الري بدعوة من حاكمها، منصور بن إسحاق، ليتولّى إدارة مستشفى الريّ. وقد ألّف الرّازي لهذا الحاكم كتابه

"المنصوري في الطب" ثمّ الطب الرّوحاني وكلاهما متمّم للآخر، فيختصّ الأوّل بأمراض الجسم، والثّاني بأمراض النّفس.

واشْتهر الرّازي في مدينة الرّي، ثمّ انتقل منها ثانية إلى بغداد ليتولّى رئاسة المعتضدي الجديد، الذي أنشأها الخليفة المعتضد بالله (279- 289 هـ /892 م- 902 م).

وعلى ذلك فقد أخطأ ابن أبي أصيبعة في قوله أنّ الرّازي كان ساعورًا مستشفى العضدي الذي أنشأه عضد الدّولة (توفّى في 372 هـ/973 م)، ثمّ صحّح ابن أبي أصيبعة خطأه بقوله: "والذي صحّ عندي أنّ الرّازي كان أقدم زمانا من عضد الدولة، ولم يذكر ابن أبي أصيبعة البيمارستان المعتضدي إطلاقًا في مقاله المطوّل في الرازي. شغل مناصب مرموقة في الريّ وسافر، ولكنّه أمضى الشّطر الأخير من حياته بمدينة الريّ، وكان قد أصابه الماء الأزرق في عينيه، ثمّ فقد بصره وتوفّى في مسقط رأسه إمّا في سنة 313 هـ /923 م، وإمّا في سنة 320 هـ/ 932 م.

يتّضح لنا تواضع الرّازي وتقشفه في مجرى حياته من كلماته في كتاب "السيرة الفلسفية" حيث يقول: "ولا ظهر منّي على شرّه في جمع المال وسرف فيه ولا على منازعات النّاس ومخاصماتهم وظلمهم، بل المعلوم منّي ضدّ ذلك كله والتّجافي عن كثير من حقوقي. وأمّا حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي، فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك منّي أنّي لم أتعد إلى طرف الإفراط، وكذلك في سائر أحوالي ممّا يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية، وفي الفصل الأول من كتابه "الطبّ الرّوحاني"، "في فضل العقل ومدحه"، يؤكّد الرّازي أنّ العقل هو المرجع الأعلى الذي نرجع إليه، "ولا نجعله، وهو الحاكم، محكومًا عليه، ولا هو الزّمام، مزمومًا ولا، وهو المتبوع، تابعًا، بل نرجع في الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه.".

كان الطّبيب في عصر الرّازي فيلسوفًا، وكانت الفلسفة ميزانًا توزن به الأمور والنّظريّات العلميّة التي سجّلها الأطبّاء في المخطوطات القديمة عبر السّنين، وكان الرّازي مؤمنًا بفلسفة سقراط الحكيم (469 ق. م- 399 ق. م)، فيقول إنّ الفارق بينهما في الكمّ وليس في الكيف. ويدافع عن سيرة سقراط الفلسفيّة، فيقول: إنّ العلماء إنّما

يذكرون الفترة الأولى من حياة سقراط، حينما كان زاهدًا وسلك طريق النسّاك. ثمّ يضيف أنّه كان قد وهب نفسه للعلم في بدء حياته، لأنّه أحبّ الفلسفة حبًّا صادقًا، ولكنّه عاش بعد ذلك معيشة طبيعيّة.

كان الرّازي مؤمنًا باستمرار التّقدّم في البحوث الطبيّة، ولا يتمّ ذلك، على حد قوله، إلاّ بدراسة كتب الأوائل، فيذكر في كتابه "المنصوري في الطبّ" ما هذا نصّه: "هذه صناعة لا تمكن الإنسان الواحد إذا لم يحتذ فيها على مثال من تقدّمه أن يلحق فيها كثير شيء ولو أفنى جميع عمره فيها لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الإنسان بكثير. وليست هذه الصناعة فقط، بل جلّ الصّناعات كذلك.

وإنّما أدرك مَن أدرك من هذه الصّناعة إلى هذه الغاية في ألوف من السنين ألوف، من الرجال. فإذا اقتدى المقتدي أثرهم صار أدركهم كلهم له في زمان قصير. وصار كمن عمر تلك السنين وعنى بتلك العنايات.

وإن هو لم ينظر في إدراكهم، فكم عساه يمكنه أن يشاهد في عمره. وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس وأشدهم عناية بهذا الباب. على أنّ مَن لم ينظر في الكتب ولم يفهم صورة العلل في نفسه قبل مشاهدتها، فهو وإن شاهدها مرات كثيرة، أغفلها ومرّ بها صفحًا ولم يعرفها البتّة"، ويقول في كتابه *في محنة الطّبيب وتعيينه*، نقلاً عن جالينوس: "وليس يمنع من عنّي في أيّ زمان كان أن يصير أفضل من أبقراط".

وله إسهامات في مجال علوم الفيزياء حيث اشتغل الرّازي بتعيين الكثافات النّوعيّة للسّوائل، وصنف لقياسها ميزانًا خاصًّا أطلق عليه اسم الميزان الطّبيعي.

ويظهر فضل الرّازي في الكيمياء، بصورة جليّة، عندما قسم الموادّ المعروفة في عصره إلى أربعة أقسام هي:

- الموادّ المعدنيّة.
- الموادّ النّباتيّة.
- الموادّ الحيوانيّة.
- الموادّ المشتقّة.

كما قسّم المعادن إلى أنواع، بحسب طبائعها وصفاتها، وحضّر بعض الحوامض، وما زالت الطرق التي اتّبعها في التّحضير مستخدمة إلى الآن. وهو أوّل مَن ذكر حامض الكبريتيك الذي أطلق عليه اسم زيت الزاج أو الزاج الأخضر.

وقد حضّر الرازي في مختبره بعض الحوامض الأخرى، كما استخلص الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية مختمرة. وكان يفيد منه في الصّيدليّة من أجل استنباط الأدوية المتنوّعة.

2 – كتب الرّازي الطبّية:

يذكر كلّ من ابن النديم والقفطي أنّ الرّازي كان قد دون أسماء مؤلفاته في "فهرست وضعه لذلك الغرض. ومن المعروف أنّ النّسخ المخطوطة لهذه المقالة قد ضاعت مع مؤلّفات الرّازي المفقودة. ويزيد عدد كتب الرّازي على المائتي كتاب في الطبّ والفلسفة والكيمياء وفروع المعرفة الأخرى. ويتراوح حجمها بين الموسوعات الضّخمة والمقالات القصيرة.

ويجدر بنا أن نوضّح هنا الإبهام الشّديد الذي يشوب كلا من "الحاوي في الطبّ" و"الجامع الكبير".

وقد أخطأ مؤرّخو الطبّ القدامى والمحدثون في اعتبار هذين العنوانين كأنّهما لكتاب واحد فقط، وذلك لترادف معنى كلمتيْ الحاوي والجامع.

تمّت ترجمة كتب الرّازي إلى اللّغة اللاّتينيّة ولا سيما في الطبّ والفيزياء والكيمياء، كما ترجم القسم الأخير منها إلى اللّغات الأوروبيّة الحديثة ودرست في الجامعات الأوروبيّة، لا سيما في هولندا حيث كانت كتب الرّازي من المراجع الرّئيسيّة في جامعات هولندا حتّى القرن السّابع عشر.

وهنالك قصّة شهيرة تدلّ علي ذكاء الرّازي هي: أمره أحد الخلفاء ببناء مستشفي في مكان مناسب في بغداد وفكر ووضع قطع لحم في عمود خشبي في أماكن كثيرة في بغداد؛ وكان يمرّ عليها لكي يري أيّ القطع فسدت، وعندما عرف آخر قطعة فسدت

أمر ببناء المستشفي في هذا المكان، لأنّ جوّه نقيّ خال من الدخان والتّراب، لأنّ المرضى يحتاجون إلى هواء نقيّ خال من الملوّثات. ومن ذلك الحدث اشتهر الرّازي شهرة كبيرة بذكائه.

ومن المعروف أنّه كان يحبّ الشّعر والموسيقي في صغره، وفي كبره أحبّ الطبّ.

*** كتاب الحاوي في الطبّ:**

يعتبر من أكثر كتب الرّازي أهمّية، وقد وصفه بموسوعة عظيمة في الطبّ تحتوي على ملخّصات كثيرة من مؤلّفين إغريق وهنود إضافة إلى ملاحظاته الدّقيقة وتجاربه الخاصّة.

وقد ترجم *الحاوي* من اللّغة العربيّة إلى اللّغة اللاتينية، وطبع لأوّل مرّة في بريشيا في شمال إيطاليا عام 1486، وقد أعيد طبعه مرارًا في البندقية في القرن السّادس عشر الميلادي.

وتتّضح مهارة الرّازي في هذا المؤلّف الضّخم، ويكاد يجمع مؤرّخو الرّازي بأنّه لم يتم الكتاب بنفسه، ولكن تلاميذه هم الذين أكملوه.

3 – آراء الرّازي في الدّين:

كتب الرّازي أيضًا في مجال الأديان التي انتقدها، وقد خصّص عبد الرّحمن بدوي الفصل الأخير من كتابه *من تأريخ الإلحاد في الإسلام* لآراء الرّازي الفلسفيّة في نقد الأديان.

إلاّ أنّ الرّازي لم ينكر وجود الله بل أقرّ بوجوده، وقال بأنّه منح العقل للإنسان ليفكّر به.

وقد تمّ انتقاد آرائه الجريئة في نقد الدّين من طرف العديد من العلماء والمفكّرين من بينهم ابن سينا الذي يعتبر عند البعض فيلسوفًا مسلمًا بينما اعتبره رجال الدّين المسلمين كافرًا كأبي حامد الغزالي وابن تيميّة.

رفض الرّازي فكرة النّبوّة قائلاً: "من أين أوجبتم أن الله اختص قوما بالنبوة دون قوم، وفضّلهم على النّاس، وجعلهم أدلّة لهم، وأحوج النّاس إليهم؟ ومن أين أجزتم في

حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، ويعلي بعضهم على بعض، ويؤكّد بينهم العداوات، ويكثر المحاربات، ويهلك بذلك النّاس؟".

ويتحدّث عن العلاقة بين العنف والدّين، فيقول أنّه كان من الأولى "بحكمة الحكيم ورحمة الرّحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم، ولا يفضّل بعضهم على بعض، فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا، وذلك أحْوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض، فتصدق كل فرقة إمامها، وتكذب غيره، ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف ويعم البلاء".

ويقول عن ما يراه عدم تسامح المتدينين مع نقد الدّين: "إن سئل أهل هذه الدّعوى عن الدليل على صحة دعواهم، استطاروا غضبا، وهدروا دم من يطالبهم بذلك، ونهوا عن النّظر، وحرضوا على قتل مخالفيهم، فمن أجل ذلك اندفن الحق أشدّ اندفان، وانكتم أشدّ انكتام.

منذ بدْء التأريخ، كلّ الذين زعموا أنّهم أنبياء، كانوا في أسوأ افتراض لهم، مراوغين وفي أفضل افتراض كانوا يعانون من مشاكل نفسيّة.

4 – مؤلّفاته:

- كتاب الشّكوك على جالينوس
- كتاب "في الفصد والحجامة
- مخارق الأنبياء
- حيل المتنبّيين

III – مضمون الكتاب:

كتاب جمع فيه المؤلّف ما يدلّ على إثبات صحّة النّبوّة ويزيل شبه المستريب، وقد تضمّن الكتاب أمريْن:

– أحدهما: ما اختصّ بإثبات النّبوّة من إعلامها.

– والثّاني: فيما يختلف من أقسامها وأحكامها ليكون الجمع بينهما أنفى للشبهة وأبلغ في الإبانة الكتاب على ما به من مباحث شيقة وبداهة خاطفة لماحة واستدلال مفحم ورشاقة في الحوار يقدّم لنا صورة جليّة عن عظمة الثّقافة الإسلاميّة، وعن مدى الموسوعيّة التي كان يتمتّع بها العالم الذي يستحقّ أن يوصف بكونه عالمًا إسلاميًّا.

فقد وضع حقيقة الأديان الواحدة أمام أهل الأديان جميعًا وبين الخلاف بين فروع الشّرائع وأسبابه والتّرابط والاتّحاد بين أصولها وضروراته بما لا يدع مجالاً لمختلف أن يتخلف إلاّ أن يكون مرضه القلبي مزمنًا وعلّته العقليّة مستعصية أو يكون جاهلاً بكتابه الذي يعتقد به.

ويْنفرد *أعلام النبوّة* بأنّه صان فلسفة "الملحِد" أبي بكر الرّازي من الضّياع، وكرّسه فيلسوفًا عقلانيًّا، اعتقد منذ القرن الرّابع الهجري بغلبة العقل والمنطق والفلسفة على الفكر الدّيني، ومهّد لِمَا عادت وقامت عليه بعد قرون طويلة "فلسفة الأنوار" في عصر النهضة الأوروبية، وبشّر بها فيلسوفها العقلاني فولتيرز كما جاء نموذجًا مكتملاً ومعبّرًا عن أدب المساجلات والمناظرات الفكريّة التي تفتقده الثقافة العربية المعاصرة في زمن انحدارها.

يطرح هذا الكتاب إشكاليّة المواجهة بين منطق العقل ومنطق المعجزة، ويقدّم نموذجًا نادرًا عن تفكير –وبالتالي تكفير– فيلسوف رجيم أربك المؤسّسة الدينيّة المهيمنة بآرائه الفلسفيّة العقلانيّة.

يعود هذا الكتاب لسجالات فكريّة جرت بحضور العامّة في القرن العاشر بحضور محافظ ري، وهي واحدة من أهمّ المدن الإيرانيّة بالقرب من مدينة طهران اليوم.

نفى الطّبيب والفيلسوف أبو بكر زَكّريا الرّازي النّبوّة حيث قال بأنّ العقل والذي يمتلّكه كلّ بني البشر يعطي الطريق الوحيد للخلاص.

كان منافسه الدّاعي الإسماعيلي الكبير للريّ أبو حاتم الرّازي، والذي توفّي عام 934 م، والذي شكّل عمله واحدًا من أهمّ الأعمال المبكّرة في علم اللاّهوت الإسماعيلي.

جادل أبو حاتم بأنّ كلّ من الفلسفة والعلوم ليست نتاج العقل البشري، ولكنّها من أصل إلهي. كذلك أيّد صلاحيّة عالميّة النّبوّة، وليس فقط في إطار التّقاليد الإسلاميّة، وإنّما أيضًا في تعاليم الدّيانات الأخرى، بما فيها الزّرادشتيّة وكذلك المسيحيّة واليهوديّة.

صورة من الصّفحة الأولى من نسخة
أعلام النّبوّة لأبي حاتم الرّازي الخطّيّة

صورة من الصّفحة الأخيرة من نسخة
أعلام النّبوّة لأبي حاتم الرّازي الخطّيّة

أبو حاتم الرّازي

أعلام النّبوّة

الجزء الأوّل

الببم ب الرّل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الفصل الأوّل
في ما جرى بيني وبين الملحد

أنّه ناظرني في أمْر النّبوّة، وأوْرد كلامًا نحو ما رسمه في كتابه الذي قد ذكرناه؛

– **فقال**: من أيْن أوْجبتم أن الله اختصّ قومًا بالنّبوّة دون قوم، وفضّلهم على النّاس، وجعلهم أدلّة لهم وأحْوج النّاس إليهم؟

ومن أين أجزْتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، ويشلي بعضهم على بعض، ويؤكّد بينهم العدوات، ويكثر المحاربات، ويهْلك بذلك النّاس؟

– **قلتُ**: فكيْف يجوز عندك في حكمته أن يفعل؟!

– **[قال:]** الأوْلى بحكمة الحكيم ورحمة الرّحيم أن يلْهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارّهم في عاجلهم وآجلهم؛ فلا يفضّل بعضهم على بعض، ولا يكون بينهم تنازعٌ ولا اختلافٌ، فيهلكوا. وذلك أحْوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمّة لبعض؛ فتصدّق كلّ فرقة إمامها وتكذّب غيره؛ ويضرب بعضهم وجوه بعض بالسّيف، ويعمّ البلاء ويهْلكون بالتّعادي والمجاذبات؛ وقد هلك بذلك كثيرٌ من النّاس كما نرى.

– **قلتُ**: ألستَ تزعم أنّ الباري –جلَّ جلالُه– حكيمٌ رحيمٌ؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فهل ترى الحكيم فَعَل بخلْقه هذا الذي تزعم أنّه أَوْلى بحكمته ورحمته؟ وهل احْتاط لهم، فألهَمَ الجميعَ ذلك، وجعل هذه الهبة عامّة، ليستغني النّاس بعضهم عن بعض، وترْتفع عنهم الحاجة، إذا كان ذلك أوْلى بحكمته ورحْمته؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: أوْجدني حقيقة ما تدّعي. فإنّا لا نرى في العالم إلاّ إمامًا ومأمومًا، وعالمًا، ومتعلّمًا في جميع الملل والأديان والمقالات من أهل الشّرائع وأصحاب الفلسفة التي هي أصْل مقالتك؛ ولا نرى النّاس يستغني بعضهم عن بعض، بل كلّهم محتاجون بعضهم إلى بعض، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمّة والعلماء، ولم يُلهَموا ما ادّعيتَ من منافعهم ومضارّهم في أمْر العاجل والآجل، بل أحوجوا إلى علماء يتعلّمون منهم، وأئمّة يقتدون بهم، وراضة يروّضونهم؟

وهذا عيانٌ لا يقْدر على دفْعه إلاّ مباهتٌ ظاهر البهْت والعناد. وأنت، مع ذلك، تدّعي أنّك قد خُصّصت بهذه العلوم التي تدّعيها من الفلسفة، وأنّ غيْرك قد حُرم ذلك وأوجب[1] إليك، وأوجبتَ عليهم التّعلّم منك والاقتداء بك.

– **قال**: لم أُخَصّ بها أنا دون غيري، ولكنّي طلبتها وتوانوا فيها؛ وإنّما حُرِموا ذلك لإضرابهم عن النّظر، لا لنقْص فيهم.

والدّليل على ذلك: أنّ أحدهم يفْهم من أمْر معاشه وتجارته وتصرّفه في هذه الأمور، ويهتدي بحيله إلى أشياء تدقّ عن فهْم كثير منّا، وذلك لأنّه صرف همّته إلى ذلك؛ ولو صرف همّته إلى ما صرفتُ همّتي أنا إليه وطلب ما طلبتُ، لأدْرك ما أدركتُ.

– **قلتُ**: فهل يسْتوي النّاس في العقْل والهمّة والفطْنة أم لا؟

– **قال**: لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم، لاسْتووا في الهمم والعقول.

– **قلتُ**: كيف تجيز هذا وتدفع العيان؟! وإنّا نرى ونعاين أنّ النّاس على طبقات وتفاوت مراتب، ولستَ تقدر على دفع ما اتّفق النّاس عليه، أن يقولوا: "فلان أعْقل من فلان"، و"فلان عاقل وفلان أحْمق"، و"فلان أكْيس من فلان"، و"فلان كيّس وفلان بليد"، و"فلان لطيف الطّبع وفلان غليظ الطّبع"، و"فلان فطن وفلان غبيّ"؛ ومَن دفع هذا، فقد كابر وعاند.

---

[1] في الأصل: **أوج**.

وإذا ثبَت هذا، فقد وقعتْ الخصوصيّة. وقد علمْنا أنّ الأحمق البليد الطّبع الغبيّ لا يدرك بفطْنته ونظره ما يدركه العاقل الكيّس الفطن اللّطيف الطّبع من العلوم الدّقيقة والجليلة في باب المعاش والصّناعات التي ذكرتَ أنّ النّاس اشتغلوا بها عن النّظر في العلوم الدّقيقة، وأنّهم بلغوا في تلك الصّناعات ما يدقّ عن أفهامنا.

والنّاس في ذلك أيضًا يتفاوَتون في المراتب والطّبقات ويتفاضلون في كلّ صناعة. وفي كلّ طبقة من النّاس فاضل ومفضول، وعالم ومتعلّم، ولا نرى أحدًا يدرك شيئًا من الأمور بفطْنته وكيسه وعقله إلاّ بمعلّم يرشده، وبقانون يرجع إليه، ثمّ يحْتذي على مثاله ويبْني عليه أمْره؛ وهذا ما لا مريّة فيه، ولا يقدر أحدٌ على دفْعه.

وإذا ثبت هذا، فقد جاز أن يقع التّفاضل في النّاس، والتّفاوت في مراتبهم؛ كما قد أجزتَ لنفسك ما تدّعيه أنّك أدركتَ من علوم الفلسفة، بالعقل الكامل، والهمّة البعيدة، والطّبع التّامّ، ما لا يقدر على بلوغه مَن هو ناقصُ العقل متخلِّفٌ في الهمّة، ولا يتعلّمه وإن عُلِّم، ولا يتوجّه له وإن هُدِي إليه، لبلادته ونقصان طبعاه؛ وهذا موجودٌ في جبلّة النّاس. فإنّ البليد الجافي لا يبلغ معرفة ما يبلغه الفطن ولا يطيقه، وإن تكلّفه واجْتهد فيه.

فإذا وجب هذا، وثبت أن تختلف أحوال النّاس في العقل والكيس والفطنة، فقد وجَب أن يحوج بعضهم إلى بعض، وأن يتعلّم بعضهم من بعض، فيكون فيهم عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، في جميع الأسباب في الدّين وفي الأمور الدّنيويّة، كما نشاهده عيانًا.

وقد انْتقض قولك: إنّه لا يجوز في حكْمة الحكيم ورحمة الرّحيم أن يجعل النّاس بعضهم أئمّة لبعض، وأنّه يجب أن يُلهِم عباده أجمعين معْرفة منافعهم ومضارّهم في عاجلهم وآجلهم، وأن لا يحوّج بعضهم إلى بعض؛ وزعمتَ أنّ ذلك أحْوط لهم، وأوْلى بحكمته. فإنّ هذا غير موجود في جبلّة النّاس.

ونرى الحكيم الرّحيم قد فعل بعباده خلاف ما تدّعيه أنّه أحْوط لهم وأوْلى بحكمته، إلاّ ما نجد في طبائعهم مَن تساويهم في أشياء طُبعوا عليها، كما طُبع عليها سائر أصناف الحيوان من البهائم والسّباع والطّير ودوابّ الماء وجميع الأجناس، من طلب الغذاء

والتّناسل، وأُلهِمتْ معرفة ما لها من المنافع والمضارّ في ذلك؛ فكلّ جنس من الحيوان لا تفاضل فيه ولا درجات بيْنه، بل استوتْ في ذلك، وهي مطبوعة عليه؛ فلا درجات بينها ولا مراتب، لأنّها ليست بمأمورة، ولا منهيّة، ولا مُستعبَدة، ولا مُكلَّفة، ولا مُثابَة[1]، ولا مُعَاقبَة؛ من أجل ذلك لا درجات بينها.

وخصّ البشر بأن يكون فيهم عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وفاضل ومفضول، ليقوم الأمر والنّهي، وتظهر الطّاعة والمعصية، ويثبت الاستعْباد، ويقع الثّواب والعقاب على حسب ما يكون من أعمالهم باختيار لا بإجبار.

وهذا أوْجب في حكمة الحكيم ورحمة الرّحيم من أن يكون سبيلُ البشر سبيلَ البهائم وسائر الحيوان.

وليس يخلو الأمر من إحدى ثلاث خلال:

– إمّا أن تقول: إنّ الحكيم ترك ما ادّعيتَ أنَّه أوْلى به في حكْمته ورحْمته، وأنّه أعمّ نفعًا لبريّته وأحْوط لهم، فلم يفعله بهم وهو يقدر عليه. فإنّ الذي تدّعيه من هذا الباب هو معدومٌ في العالم.

وأنّه فعل بهم ما هو أعمّ ضررًا وأقْرب إلى هلاكهم على زعمك؛ فيكون قد فعل ما لا توجبه الحكمة والرّحمة؛ فإنّا نراه قد فعل بهم هكذا من إحْواج بعضهم إلى بعض.

– أو تقول: أراد ذلك وأوْجَبَهُ، فلم يقْدر عليه؛ فتُلزِمه العجْز.

– أو تقول: إنّ الأوْلى بحكمته ورحْمته ما قد فعَله بهم، على نحو ما ادّعيناه؛ فترجع عن أصلك، وتدَع اعتقادك السّقيم ودعواك البشعة التي قد نقضتها على نفسك حين زعمتَ أنّك أدركتَ بفطنتك ودقّة نظرك ما لم يدركه كثير من الفلاسفة القدماء.

وهم كانوا لك أئمّة، وفي أصولهم نظرتَ، وكتبهم درستَ، وبها استدركتَ ما تدّعيه.

فمرّة تزْعم أنّه لا يجب أن يكون النّاس أئمّة بعضهم لبعض، وأنّه يجب أن يتساووا، فلا يحوج بعضهم؛ ثمّ تنتقض على نفسك، كما قد أجزتَ أن تتفاوتَ مراتب الفلاسفة حتّى يدرك بعضهم ما لا يدركه البعض، وأن يكون بعضهم أئمّة لبعض؛ كما اتّفقت عليه

---

[1] في الأصل: **مثابتة**.

الفلاسفة أنّ أفلاطون[1] الحكيم كان إمامًا لأرسطاطاليس[2]، وأنّ أرسطاطاليس كان تلميذًا له؛ كما ادّعيتَ أنّهم قد نقصوا عن مرتبتك حين أدركتَ ما تدّعي أنّهم لم يدركوه من الصّواب الذي زعمتَ أنّهم أخطأوا فيه، وإنّه واجبٌ عليهم الرّجوع إلى قولك والاقْتداء بك.

أوَليس قد أثْبتَّ بهذه الدّعوى المراتبَ والدّرجات، وأثْبتَّ أن يكون في النّاس عالم ومتعلّم وإمام ومأموم، وأنّ بعضهم تعجز فطْنته عن فطْنة غيره وإن اجتهد؟! أَوَليس قد انْكسر عليك قولك الأوّل؟!

ولَعمْري إنّ هذا هو أشْبه بالصّواب وأثْبت.

---

[1] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، ويسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميدس* في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

[2] هو الفيلسوف اليوناني المشهور عند فلاسفة الإسلام باسم المعلّم الأوّل. وُلد سنة 384 ق. م. وتوفّي سنة 322 ق. م. من مصنّفاته: *المقولات*، *والعبارة*، *والقياس*، *والبرهان*، *والجدل*، *والأغاليط*، *والسّماع الطّبيعي*، *والميتافيزيقا* (ما بعد الطّبيعة) *والأخلاق إلى نيقوماخوس والخطابة والشّعر*... كان صاحب مدرسة فلسفيّة في الأنطولوجيا، والمعرفة، والأخلاق، والسّياسة، ظلّ تأثيرها حتّى قيام الفلسفة الحديثة مع رينيي ديكارت.

حول ترجمته راجع: *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* ليوسف كرم، *تاريخ الفكر الفلسفي* لمحمّد علي أبو ريّان؛ *أرسطو* لعبد الرّحمان بدوي؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا.

وإذا ثبت هذا، وجاز أن يكون في النّاس عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وأن تكون فيهم مراتب ودرجات، جاز أن يختصّ اللهُ بحكمته ورحمته قومًا، ويصطفيهم من خلْقه، ويجعلهم رُسُلاً إليهم، ويؤيّدهم ويفضّلهم بالنّبوّة، ويعلّمهم بوحْي منه ما ليس في وسْع البشر أن يعلموه؛ ليعلّموا النّاس، ويرشدوهم إلى ما فيه صلاح أمورهم دينًا ودنيًا، ويسوسوا الخلائق بمثل ما يرى من هذه السّياسة العجيبة التي يرتاض عليها الخاصّ والعامّ، والعالم والجاهل، والكيّس والبليد، ويسْتقيم أمْر العالم بهذه السّياسة التي نشاهدها بالشّرائع التي شرعوها، واستغنى بها البليد الغليظ الطّبع عن النّظر في دقائق علوم الفلسفة التي يتحيّرون فيها، وتبْهر عقولهم، ويعجزون عن ضبطها، وإن اجتهدوا.

فأيّ الأمريْن أوْلى بحكْمته ورحْمته، وأوْجب عليك أن تأخذ به: أن يختصّك بهذه الفضيلة التي ادّعيتها لنفسك ونقضتَ بها دعواك الأولى، فتثبت دعوى مَن يقول بأنّ في العالم إمامًا، ومأمومًا، وعالمًا، ومتعلّمًا؟ أو دعواك الأولى أنّه لا يجوز في حكْمته أن يكون في العالم إمام، ومأموم، وعالم، ومتعلّم؟

فاخْتر أيّهما شئتَ! فإن اخترتَ هذه الدّعوى، بَطُلَتْ دعواك وانْكسرت عليك، وأنت نقضتَ على نفسك.

وإن اخْترتَ الأخرى، وأجزتَ في حكمة الحكيم أن يختصّك بهذه الفضيلة دون غيرك، وأن يحوج النّاس إليك وإلى التّعلّم منك، فلِمَ أنكرتَ أن يختار -عزّ وجلّ- رُسُلاً، ويختصّهم بالنّبوّة، ويجعلهم أئمّة إلى النّاس، ويحوّج النّاس إليهم وإلى التّعلّم منهم، ليكونوا ساسة للنّاس في أولاهم، وقادة لهم في أمْر دينهم؛ كما تراه أنّه قد فعله؟

ولِمَ جاز أن يفيض عليك نعْمته، فيجعلك إمامًا للنّاس، وأنت لا تقْدر على سياسة رجليْن؛ ولم يجز أن يفيضها على أنبيائه الذين اصْطفاهم وجعلهم أئمّة للنّاس، حتّى ساسوا العالم بأبْنية شرائعهم وأحكامهم؟

فهذا ما جرى في هذه المسألة، وإن كان الكلام يزيد وينقص والألفاظ تختلف؛ كان جملته ومعانيه ما قد ذكرته.

وقد كان ادّعى في غير هذا المجلس ما احتججتُ به، أنّه أدْرك من العلوم ما لم يدْركه مَن تقدّمه من الفلاسفة، إلى غير ذلك ممّا قد ذكرْته من دعاويه.

الفصل الثاني
في ذكر القدماء الخمسة
والقول في الوقوف والنظر

وطالبته في مجلس آخر؛

– وقلتُ له: "أخبرني عن الأصْل الذي تعْتقده من القول بقدم الخمسة: الباري، والنّفس، والهيولى، والمكان، والزّمان؛ أهو شيء وافقك عليه القدماء من الفلاسفة، أم خالفوك فيه؟".

– قال: "بل للقدماء في هذا أقوال مختلفة، ولكنّي استدركتُ هذه بكثرة البحث والنّظر في أصولهم، فاستخرجتُ ما هو الحقّ الذي لا مدْفع له، ولا محيص عنه".

– قلتُ: "فكيف عجزَتْ فطنُ هؤلاء الحكماء واختلفتْ أقاويلهم، وكانوا بزعمك مجتهدين قد صرفوا هِمَمهم إلى النّظر إلى الفلسفة، حتّى أدركوا العلوم اللّطيفة وصاروا فيها علماء وقدْوة؟

وأنت تزْعم أنّك أدركتَ ما لم يدركوا بكثرة نظرك في رسومهم وكتبهم؛ وهم لك أئمّة، وأنت لهم تبعٌ، لأنّك درستَ رسومهم، ونظرتَ في أصولهم، وتعلّمتَ من كتبهم؟

فكيف يجوز أن يكون التّابع أعْلى من المتْبوع، والمأموم أتمّ في الحكمة من الإمام؟!".

– قال: "أنا أورد عليك في هذا ما تعلم أنّ الأمر كما ذكرتُه، وتعرف الصّواب من الخطأ في هذا الباب.

اعلم أنّ كلّ متأخّر من الفلاسفة إذا صرف همّته إلى النّظر في الفلسفة، وواظب على ذلك، واجتهد فيه، وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقّته وصعوبته، عَلِمَ عِلْمَ مَن تقدّمه منهم وحفظه، واستدرك بفطنته وكثرة بحْثه ونظره أشياء أخرى؛ لأنّه مَهَرَ بعلْم مَن

تقدّمه، وفَطِنَ لفوائدَ أُخْر واستفْضلها؛ إذ كان البحْث والنّظر والاجتهاد يوجب الزّيادة والفضل".

– **قلتُ**: "فإن كان الذي استدْركه المتأخّر خلافًا على مَن تقدّمه، كما خالفتَ أنت مَن تقدّمك، فإنّ الخلاف ليس بفائدة؛ بل الخلاف شرّ زيادة في العمى، وتقوية للباطل، ونقْض وفساد.

ونحن نجدُكم لم تزدادوا بكثرة البحث والنّظر بآرائكم إلاّ اختلافًا وتناقضًا.

فإذا شرطتَ على نفسك أنّ المتأخّر يدْرك ما لم يدْركه المتقدِّم، كما زعمتَ أنّك أدْركته وأوْردتَ الخلاف على مَن تقدّمك، لا تأمن أن يجيء بعْدك مَنْ يجتهد فوْق ما اجتهدتَ، فيعْلم ما قد علمتَ ويستفضل، ويدرك بفطنته واجتهاده ونظره ما لم تدْركه أنت؛ فينْقض ما حكمتَ به ويخالفك في أصْلك، كما نقضتَ على مَن تقدّمك قد أخطأ حين خالفك، وكما قد خالف بعضكم بعضًا.

وعلى هذه الشّريطة، فإنّ الفساد قائمٌ في العالم والحقّ معدومٌ أبدًا والباطل منتظمٌ، والذين خالفوك قد مضوا على الباطل والضّلال، لأنّ الخلاف باطلٌ والخطأ ضلالٌ.

ويلْزمك أيضًا على هذه الشّريطة أن تمْضي على الباطل والضّلال، إذ كان الذي يجيء بعدك يأتي بفائدة ويصيب ما لم تصبه، على قياس قولك.

– **قال**: ليس هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأنّ كلّ واحد منهما مجتهد. فإذا اجتهد وشغل نفسه بالنّظر والبحث، فقد أخذ في طريق الحقّ؛ لأنّ الأنفس لا تصفو من كدورة هذا العالَم، ولا تتخلّص إلى ذلك العالم إلاّ بالنّظر إلى الفلسفة.

فإذا نظر فيها ناظرٌ وأدْرك منها شيئًا، ولو أقلّ قليل، صفَت نفسك من هذه الكدورة وتخلّصت.

ولو أنّ العامّة الذين قد أهلكوا أنفسهم وغفلوا عن البحث نظروا فيها أدْنى نظر، لَكان في ذلك خلاصهم من هذه الكدورة، وإن أدْركوا القليل من ذلك.

– **قلتُ**: "أَلستَ أوْجبتَ أن النّظر في الفلسفة هو الوصول إلى الحقّ والخروج عن الباطل؟".

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فقد زعمتَ أنّ النّاس هلكوا بالتّعادي والاختلاف.

فعلى زعمك، لا يزداد مَن ينظر في الفلسفة إلاّ هلاكًا، لأنّك قد أقررتَ أنّ للفلاسفة أقاويل مختلفة؛ وأنّ الذي تعتقده خلاف ما كان عليه مَن تقدّمك.

وألْزمتَ نفسك هذه الشّريطة: أنّ الذي يجيء بعْدك يجوز أن يخالفك ويخالف غيرك. فعلى هذه الشّريطة، يقوى سبب الهلاك في كلّ يوم، ويزداد الباطل والضّلال.

– **قال**: أنا لا أعدّ هذا باطلاً ولا ضلالاً، لأنّ مَن نظر واجْتهد هو مُحِقٌّ، وإن لم يبلغ الغاية على ما قد وصفتُه لك، ولأنّ الأنفس لا تصفو إلاّ بالنّظر والبحث.

– **[قلتُ:]** هذا هو جملة القول فقط. أمّا إذا أصررتَ على هذه الدّعوة، ورددتَ الحقّ وعاندتَ، فأخْبرني ما تقول فيمَن نظر في الفلسفة وهو معتقِدٌ للشّرائع الأنبياء: هل تصفو نفسه؟ وهل ترجو له الخلاص من كدورة هذا العالم؟

– **قال**: كيف يكون ناظرًا في الفلسفة، وهو مُعتقِدٌ لهذه الخرافات، مقيمٌ على الاختلافات، مُصِرٌّ على الجهل والتّقليد؟!

– **قلتُ**: أَوَليس ادّعيتَ أنّ مَن نَظَر في الفلسفة، وإن لم يتبحّر فيها، ونظر في أقلّ قليل منها، صَفَتْ نفسه؟!

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فإنّ هذا الذي لم يتبحّر ونظر في القليل، قد اقْتدى بمَن تقدّمه وقلّده، ولم يحصل إلاّ على الإقتداء بالخلاف وعلى التّقليد.

فأيّ خرافات أكْثر من هذه، وأيّ تقليد فوْق هذا، وأيّ جهْل أعظم منه، وأيّ تصْفية لنفس هذا؟!

وعلى ماذا حصل إلاّ على رفْض الشّرائع، والكفْر بالله وأنبيائه ورسله، والدّخول في الإلْحاد، والقول بالتّعطيل؟!

أَوَليس هذا أوْلى بأن يُسمَّى جاهلاً مُقلِّدًا مُعتقِدًا للخرافات والاختلاف من جميع النّاس؟

– **قال**: إذا انتهى الكلام إلى هذا، فيجب أن يسكتَ!!

الفصل الثالث
قوله: إنّ الخمسة قديمة لا قديمة غيرها
القول في الزّمان

وطالبته في مجْلس آخر،

– **وقلتُ له**: أخبرني، ألستَ تزعم أنّ الخمسة قديمة لا قديم غيرها؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فإنّا نعرف الزّمان بحركات الفلك، وبمرّ الأيّام واللّيالي، وعدد السّنين والأشهر، وانْقضاء الأوقات؛ فهذه قديمة مع الزّمان أم مُحدَثة؟

– **قال**: لا يجوز أن تكون هذه قديمة، لأنّ هذه كلّها مُقدَّرة على حركات الفلك، ومعدودة بطلوع الشّمس وغروبها؛ والفلك وما فيه مُحدَث.

وهذا قول أرسطاطاليس في الزّمان. وقد يخالفه غيره؛ وقالوا فيه أقاويل مختلفة.

وأنا أقول: إنّ الزّمان زمانٌ مُطلَقٌ، وزمانٌ محصورٌ.

فالمطلَق هو المدّة والدّهر، وهو القديم، وهو مُتحرِّك غير لابث.

والمحْصور هو الذي بحركات الفلك، وجرْي الشّمس والكواكب.

وإذا ميّزتَ هذا وتوهّمتَ حركة الدّهر، فقد توهّمتَ الزّمان المطلَق؛ وهذا هو الأبد السّرمد. وإن توهّمتَ حركة الفلك، فقد توهّمتَ الزّمان المحصور.

– **قلتُ**: فأوجدني للزّمان المطلَق حقيقة نتوهّمها. فإنّا إذا رفعنا حركات الفلك، ومرّ الأيّام واللّيالي، وانقضاء السّاعات عن الوهْم، ارتفع الزّمان عن الوهْم، فلا نعرف له حقيقة؛ فأوْجدْني حركة الدّهر الذي ذكرتَ أنّه الزّمان المطلَق.

– **قال**: ألاَ ترى كيف ينقضي أمر هذا العالم بمرّ الزّمان: "طفّ، طفّ، طفّ"؟ هو شيء لا ينقضي ولا يفنى. وهكذا حركة الدّهر إذا توهّمتَ الزّمان المطلَق.

– **قلتُ**: إنّما ينقضي أمر العالم بمرّ الزّمان الذي هو بحركات الفلك، والعالم مُحدَث والفلك مُحدَث، وأنت مقِرٌّ بذلك؛ والزّمان من أسباب العالَم، وهو مُحدَث معه؛ ومرّ الزّمان وانقضاؤه مع انقضاء أمْر العالَم، كما أنّ حدوثه مع حدوثه؛ ولا نعرف للزّمان حقيقة إلاّ ما ذكرْنا من حركات الفلك، والشّمس، وعدد السّنين، والأشهر، والأيّام، والسّاعات؛ فإذا رفعتَ هذه عن الوهْم ارتفع الزّمان، فلا زمان كما ذكرنا.

فإمّا أن تجعل هذه أيضًا قديمةً مع الزّمان حتّى يكثر عدد الأشياء القديمة، ويكون الفلك وما يدبّره داخلاً في هذه الجملة؛ فيكون من ذلك الرّجوع إلى القول بقدم العالم؛ أو نقرّ بأن الزّمان مُحدَث كما هذه مُحدثَة؛ أو توجدني للزّمان إنّيّة غير هذه، يكون واقعًا تحت الوهْم، كما أنّه الآن واقعٌ تحت الوهْم، بوقوع هذه تحت الوهْم.

وهذه الألْفاظ التي أوردتها، قولك: "طفّ، طفّ، طفّ"، هو أيضًا شيءٌ يقع عليه العدد، ولا يقع تحت الوهْم إلاّ من جهة النّطْق والعدد؛ والنّطْق والعدد مُحدَثان.

وإذا كان كذلك، فلم تورد بعدُ شيئًا حين أوردتَ هذه الألْفاظ التي يستحي العاقل من مثلها.

فهاتِ ما تكون له حقيقة، ويقع تحت الوهْم!!

– **قال**: هذا لا ينقضي القول فيه، وقد عرّفتك أنّ أرسطاطاليس كان يعْتقد ما تقول أنتَ، وقد خولف فيه. وقول أفلاطُون[1] لا يكاد يخالف ما نعتقده في الزّمان؛ وهذا عندي أصوبُ الأقوال.

– **قلتُ**: فإذا رجعتَ إلى التّقليد وإلى الاختلاف الذي أنكرتَه، واقتديتَ بأفلاطون[2] في هذا الباب وقلّدته، وتركتَ قول أرسطاطاليس وخالفتَه، فقد سلّمناه لك.

ويلْزمك أيضًا في المكان مثل ما قد لزمك في الزّمان.

– **قال**: كيف؟

– **قلتُ**: أخبِرْني عن المكان، أهو مُحيط بالأقطار، أم الأقطار مُحيطة به؟

---

[1] في الأصل: **أفلاطن**.

[2] في الأصل: **أفلاطن**.

– **قال**: بل الأقطار محيطة بالمكان.

– **قلتُ**: كيف لا تُعَدّ الأقطار مع الخمسة التي زعمتَ أنّها قديمة؟ لأنّه إن كان المكان قديمًا، فقد أوجبتَ أنّ الأقطار، وهما شيءٌ واحدٌ، لا فرْق بينهما.

– **قلتُ**: كيف لا يكون الفرْق بينهما؟ وكيف يكونان شيئًا واحدًا، وقد أعطيتَني أنّ الأقطار تحيط بالمكان، والمكانَ لا يحيط بالأقطار؟!

أوَليس قد فرّقتَ بهذا القوْل بين المكان والأقطار؟

ولَعمري إنّ الصّواب أن تفرّق بينهما، ولكن قد اضطرّك الأمرُ إلى أن تُباهتَ وتقول: إنّهما شيءٌ واحدٌ، حين انْتقض عليك قولُك بقدم المكان دون الأقطار.

فإمّا أن تجْعل الأقطار السّتة قديمة مع المكان، حتّى يصير عدد الأشياء القديمة أحد عشر، أو ترجع عن القول بقدم المكان.

– **قال**: قد اختلف قول الفلاسفة في الأقطار، فأنْكر بعضهم أن تكون ستّة، وقالوا في هذا أقوالاً كثيرة.

فلمّا رأيْته قد فزع إلى هذا القول يريد أن يخرج إلى كلام آخر، قلتُ: لا نبالي، اختلفوا في عددها أم اتّفقوا، زادوا أم نقصوا، قالوا إنّ أعدادها كثيرة أو قالوا هو قطْرٌ واحدٌ؛ فإنّ تلك الكثيرة أو هذا الواحد، هو مع المكان.

فإن كان المكان قديمًا، فإنّ القطْر قديمٌ؛ وإن كان القطْر مُحدَثًا، فإنّ المكان مُحْدَثٌ؛ ولا بدّ للمكان من الأقطار؛ لأنّه إن لم تكن أقطارٌ، فلا مكانٌ.

– **قال**: فإنّي أقول في المكان أيضًا: إنّه مكان مُطلَقٌ ومكان مُضافٌ. فالمكان المطلَقُ، مثاله مثال الوِعَاءِ الذي يَجْمَعُ أجسامًا، وإن رُفعت الأجسام عن الوهْم، لم يرتفع الوعاء؛ كما لو أنّا رفعْنا الفلك عن الوهْم، لم يرْتفع الشّيء الذي هو فيه عن الوهْم؛ بل هو باقٍ في الوهْم، كالدّنّ بتّة.

والمكان المضاف إنّما هو مُضافٌ إلى المتمكّن. فإذا لم يكن المتمكّن، لم يكن مكان.

وهذا مثلُ العرَضِ الذي إذا رفعته عن الوهْم ارْتفع الجسم؛ كما أنّك إذا رفعتَ الخطَّ عن الوهْم، ارْتفع السّطح عن الوهْم.

– **قلتُ**: فإنّ السّطح من الخطّ، وليس مثالُه مثال المكان من المتمكّن؛ إنّما المثال كقولك الأوّل في الفلك.

ولكنّ الأمْر خلاف ما ذكرتَ أنّك إذا رفعتَ الفلك عن الوهْم، لم يرتفع المكان عن الوهْم؛ بل يرتفع المكان عن الوهْم بارْتفاع الفلك عن الوهْم. والذي قلتَ في باب الدّنّ والشّراب هو أيضًا مثل الخطّ والسّطح؛ لأنّ كِلاهما جسْمان، وليس مثل المكان والمتمكّن.

– **قال**: فأَوْجَدْنِي للأقطار إنِّيّة يُشار إليها!

– **قلتُ**: أجبني! هل نحن في المكان؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فأشرْ إلى المكان الذي نحن فيه.

– **قال**: هذا الذي نحن فيه لا يدفعه أحدٌ.

– **قلتُ**: قولك إن أشرتَ إلى الأرض، قلنا: "هذه أرض ولها أقطار"؛ وإن أشرتَ إلى الهواء[1]، قلنا: "هذا هواءٌ وله أقطارٌ"؛ وإن أَشَرْتَ إلى السَّماء، قُلْنَا: "هذه سماء ولها أقطار".

– **قال**: هذه كلّها متمكِّنة في المكان، والمكان ليس له جرمٌ يُشار إليه، إنّما يُعرَف بالوهْم.

– **قلتُ**: وكذلك الأقطار التي تحيط بالمكان، ليس لها[2] جُرمٌ يُشار إليه، إنّما تُدرَك بالوهْم؛ كما يُدرَك المكان بالوهْم. فإن ارتفعت الأقطار عن الوهْم، ارتفع المكان. فإذًا لا مكان ولا أقطار، وسبيلهما في الواقع تحت الوهْم سبيلٌ واحدٌ.

وهذه المسألة مثل ما جرى في باب الزّمان.

---

[1] في الأصل: **الهوى**.

[2] في الأصل: **له**.

– **قال**: أجلْ لَعمري، والذي أقوله أيضًا في باب المكان هو قوْل أفلاطُون[1]؛ والذي تشبّثتَ فيه أنتَ هو قوْلُ أرسطاطاليس.

وأنا قد وضعتُ في المكان والزّمان كتابٌ. فإن أردْتَ الشّفاء في هذا الباب، فانْظرْ في ذلك الكتاب.

– **قلتُ**: لستُ أدري ما في ذلك الكتاب، ولا ما قاله أفلاطون[2] وأرسطاطاليس، فهات على ما تدّعيه بُرهانًا، ولا تُحِلْنِي على كتاب.

– **قال**: هو ما قد قُلتُ لَك.

ثمّ سَكَتَ.

---

[1] في الأصل: **أفلاطن**.

[2] في الأصل: **أفلاطن**.

الفصل الرابع
في أن العالم محدث

– **قلتُ**: قد انقضى هذا.

ألستَ تزعم أنّه لا قديم إلاّ هذه الخمسة، وأنّ العالم مُحدَثٌ؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: وأيُّ هذه الخمسة أحْدثَ العَالَمَ؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: تكلَّم في هذا الباب؛ فإنّه أنْفع، فقد كثرت المطالبة من الدّهريّةِ[1] لنا بالعلّة في

---

[1] يعرّف محمّد الخوارزمي في كتاب *مفاتيح العلوم* (الباب الثّاني في الكلام) هذه الفرقة قائلاً: "الدّهريّة: الذين يقولون بقدم الدهر". أمّا ابن حزم الظّاهري فقد أومأ إلى مذهبهم في كتاب الأحكام في *أصول الأحكام* (الجزء الثّاني، ص583) بقوله: "الدّهريّة [هم] الذين جعلوا برهانهم في إبطال الخالق، لما رأوا الأمور لا تجري على المعهود فيما يحسن في عقولهم، وأنّه لا بدّ من علّة للمفعولات، وإذ لا بدّ من علّة فلا بدّ لتلك العلّة من علّة، وهكذا أبدًا حتى يوجبوا كون أشياء لا أوائل لها". ومذهب الدّهريّة من زرفان، زروان=دهر، الذي صار، كما في الأخبار المأثورة، دينًا ظاهرًا يجاهر النّاس بالاعتراف به في عهد يزدجرد الثّاني من الدّولة السّاسانيّة (438–457 م)، هو أعظم من ذلك تأثيرًا في المفكّرين الذين لا يتّصل تفكيرهم بالدّين. في هذا المذهب أُلغيت النّظرة الاثنينيّة للكون، وذلك بأن جعل الزّمان الذي لا نهاية له هو المبدأ الأسمى، واعتبر هو عين القدر أو الفلك الأعظم أو حركة الأفلاك؛ وقد نال هذا المذهب الجديد إعجاب أهل النّظر الفلسفي، فتبوّأ مكانًا بارزًا في الأدب الفارسي وفي الآراء الشّعبيّة تحت ستار الإسلام أو من غير ستار؛ ولكنّ متكلّمي الإسلام أنكروه إنكارهم للمادّية والكفر بالله الخالق وما إليهما. ويُسمّى أصحاب الدّهر بالمادّيين أو الحسّيّين أو منكري الخالق أو أهل التّناسخ أو نحو ذلك من الأسماء، ولكنّا لا نعرف عن آرائهم شيئًا أدقّ من هذا. يقول الغزالي في *المنقذ من الضّلال* عند كلامه عن أصناف الفلاسفة إنّ الدّهريّين: "طائفة من الأقدمين جحدوا الصّانع المدبّر العالم القادر، وزعموا أنّ العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النّطفة، والنّطفة من الحيوان، كذلك كان وكذلك يكون أبدًا؛ وهؤلاء هم الزّنادقة". أمّا الشّهرستاني (*الملل*، ص74 من الجزء الثّاني من طبعة القاهرة 1347 هـ. على هامش *الفصل* لابن حزم)، فهو في إحصائه لأهل الأهواء والنّحل المقابلين لأهل الدّيانات يقول عن طائفة يسمّيهم الطّبيعيّين الدّهريّين إنّهم معطّلة لا اعتقاد لهم بشيء ولا يؤمنون بالمعاد وينكرون كلّ ما وراء المحسوس، ولا يثبتون معقولاً، وإن كان يقول في موضع آخر (ص76) إنّ الطّبيعيّين الدّهريّين يقولون بالمحسوس و ينكرون المعقول، على حين أنّ الفلاسفة الدّهريّين يقولون بالمحسوس والمعقول وينكرون الحدود والأحكام، وأقدم كلام عن الدّهريّة ما يقوله الجاحظ في كتاب *الحيوان* (ج7/ص5–ص6 من طبعة القاهرة 1324 هـ.–1906 م) من أنّهم ينكرون الخالق والنّبوّات والبعث والثّواب والعقاب، ويردّون كلّ شيء إلى فعل الأفلاك، ولا يعرفون خيرًا ولا شرًّا سوى اللذّة والمنفعة.
انظر: مادّة "دهريّة" في *دائرة المعارف الإسلاميّة*؛ الشّهرستاني، *الملل والنّحل*، المجلّد الثّاني، ص3–ص4. تحقيق محسن سيّد كيلاني. دار المعرفة. بيروت. 1961.

حَدَثِ العَالَم.

– **قال**: للنّاس فيه أقاويل غير مُقنِعة، وليست عليهم حجّة أوْكد ممّا استدركتُه، ولا تثبت لأحد حجّة في ذلك دون الرّجوع إلى ما اعتقدُه.

– **قلتُ**: وما تلك الحجّة المقنِعة؟

– **قال**: أنا أقول: إنّ الخمسة قديمة، وإنّ العالَم مُحْدَثٌ؛ والعلّة في إحداثِ العالَم أنّ النّفس اشتهت أن تتجبّل في هذا العالم، وحرّكتها الشّهوةُ لذلك، ولم تعلَم ما يلْحقها من الوبال إذا تجبّلت فيه؛ واضطربت في إحداث العالَم، وحرّكت الهيولي حركات مضطربة مُشوَّشة على غير نظام، وعجزتْ عمّا أرادتْ.

فرحمها الباري –جلّ وتعالى–، وأعانها على إحداث هذا العالم، وحملها على النّظام والاعتدال رحمة منه لها، وعلمًا أنّها إذا ذاقت وبال ما اكتسبت، عادت إلى عالمها، وسكن اضطرابها، وزالت شهْوتها واستراحت. فأحدثت هذا العالم بمعاونة الباري لها.

لولا ذلك، لَمَا قدرت على إحداثه؛ ولولا هذه العلّة، لَمَا أُحدِث[1] العالم.

وليست لنا حجّة على الدّهريّة أوْكد من هذه. وإن لم يكن هكذا، فلا حجّة لنا عليهم بتّة بتّة، لأنّا لا نجد لإحداث العالم علّة ثبتت بحجّة ولا برهان.

– **قلتُ**: أمّا الحجج على الدّهريّة في إحداث العالم فكثيرة، ولكنّها خفيت عليك؛ لأنّ هواك فيما تدّعيه قد غلب.

وإن لم يكن على الدّهريّة حجّة في إحداث العالم إلاّ ما ذكرتَ، فقد ضعف مَن قال بحدوث العالم –ونعوذ بالله من ذلك–، لأنّ الذي تدّعيه ينْكسر عليك من وجوه كثيرة.

– **قال**: ومن أيْن ينْكسر عليَّ؟

---

[1] في الأصل: **أخذت**.

– **قلتُ**: أخبرني! أَلستَ تزعم أنّ النّفس اشتهتْ أن تتجبّل في هذا العالم، فاضطربتْ في إحداثه، على ما حكيتَ من القول، فأعانها الباري رحمة منه لها؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فهل عَلِمَ الباري أن يلْحقها في ذلك الوبال إن تجبّلت فيه؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: أليس لو لم يعاونها على إحداث هذا العالم ومنعها من التّجبّل فيه، كان أوْلى بالرّحمة لها من أن أعانها وأوْقعها في هذا الوبال العظيم على زعمك؟

– **قال**: لم يقدر على منْعه من ذلك.

– **قلتُ**: قد ألزمْتَ الباري العجْز!

– **قال**: لم أُلْزمه العجْز!

– **قلتُ**: ألستَ تزعم أنّه لم يقدر على منْعها؟ فقولك: "لم يقدر" أليس هو عجزًا؟

– **قال**: لم أعْنِ أنّه لم يقدر، لأنّه عجز عن منْعِها؛ ولكنّي أضْرب لك مثلاً تعرف منه صواب ما أوردتُه.

إنّما المثل في هذا كمثل رجل له ولد صغير يحبّه ويرْحمه ويشْفق عليه ويمْنع منه الآفات، فتطلّع ولده هذا في بستان، فرأى ما فيه من الزّهر والغضارة، وفي البستان شوك كثير وهوامّ تلسع، والصّبيّ لا يعرف ما فيه من الآفات، إنّما يرى الزّهر والغضارة؛ فتحرّكه الشّهوة وتنازعه نفْسه إلى الدّخول إلى هذا البستان، ووالده يمْنعه لعلْمه بما في البستان من الآفات، وهو يبكي وينزع إلى ذلك جهلاً منه بما يلْحقه من الوبال من جهة الشّوك والهوّام.

فيرْحمه والده، وهو يقْدر على منْعه من الدّخول؛ ولكن يعلم أنّه لا ينتهي، وتزول شهْوته، وتتريّح نفسه؛ فيخلّيه حتّى يدخله. فإذا دخله لسعتْه عقربٌ، فرجع ثمّ لم تنازعه نفْسه بعد ذلك إلى العوْد إليه، واستراح.

فهكذا مثال النّفس مع الباري –جلّ وتعالى–، وهذا معنى قولي: "لم يقْدر على منعها"، ولم أُلزمه العجز.

– **قلتُ**: وهذا أيضًا منكسرٌ من جهات.

– **قال**: كيف؟

– **قلتُ**: أَليس تقول إنّ الباري –جلّ وعزّ– تامّ القدرة؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فكيف لم يُعْرِف النّفس ما ينالها من الوبال إذا تجبّلت في هذا العالم قبل أن تتجبّل فيه، وهو قادرٌ تامّ القدرة؟

فإنّ ذلك أتمّ في الحكمة وأبلغُ في الرّحمة من أن ألْقاها في هذا الوبال الطّويل هذا الدّهر المديد.

فإن زعمتَ أنّه لم يقْدر أنّ يُعَرِفْها إلاّ بعد تجبّلها في هذا العالم، فقد عجّزته؛ لأنّ المخلوق أيضًا لا يقدر أن يعرّف الصّبي إلاّ بعْد دخوله البستان؛ فإذًا قد استوى الخالق والمخلوق في القدرة؛ وهذا هو العجْز التامّ –جلّ الله وتعالى عن ذلك–.

وإن زعمتَ أنّه قدر ولم يفعل، فقد أدخلتَ النّقص في رحمته وحكْمته –عزّ الله عن ذلك–.

وينْكسر أيضًا من جهات أُخر: ألستَ تزعم أنّ النّفس كانت جاهلة بما يلحقها من الوبال إذا تجبّلت في هذا العالم، وضربتَ المثل بالصّبيّ والبستان؟

– **قال**: نعم!

– **قلتُ**: فقد وجدْنا البستان مع وجود الصّبيّ ينظر إليه وتحرّكه الشّهوة الغريزيّة للدّخول إليه، فهل كان العالم موجودًا مع النّفس حتّى تطلّعت فيه وحرّكتها الشّهوة للتجبّل فيه؟

فإن زعمتَ أنّ العالم كان موجودًا مع النّفس، فقد رجعتَ عن القوْل بحدث العالم؛ لأنّك زعمتَ أنّه موجود مع النّفس؛ والنّفس عندك أزليّة قديمة.

وإن زعمتَ أنّ العالم كان معدومًا، فمن أين عرفتَ النّفس جاهلة بما نالها من الوبال في ذلك؛ فهي بأن تجهل عالما ليس بموجود أوْلى.

وإن زعمتَ أنّها علمت أنّ عالما يكون على هذا المثال قبل أن كان، فقد قضيتَ عن النّفس بالعلْم.

فكيْف يجوز أن تعْلم أنّ عالما يكون بهذه الصّفة، ولم تَعْلَم ما يلْحقها من الوبال لما تجبّلت فيه؟

وإن زعمتَ أنّ العالم ليس بقديم مع النّفس، وأنّه أُحدِثَ العالَم، ثمّ تطلّعت النّفسُ فيه، فقد نقضتَ قولك: إنّ علّة إحداث العالم أنّ النّفس اضطربتْ وحرّكتها الشّهوة للتّجَبّل في هذا العالم، فأعانها الباري حتّى أحدثتْه.

وفي وجْه آخر: أخبرني عن هذه الحركة التي بعثت شهْوة النّفس على التّجبّل في هذا العالم: أهي غريزيّة، أم قسْريّة؟

فإن ادّعيتَ أنّها غريزيّة، فقد لزمك أن تقول إنّ هذه الحركة والشّهوة قديمتان مع النّفس.

وإذا كان كذلك، فيجب أن يكون سبعة أشياء قديمة، لأنّ الحركة والشّهوة قديمتان.

ويلْزمك أيضًا أن يكون العالم قديمًا معها، لأنّه إذا كانت علّة تجبّلها في العالم الحركة والشّهوة، وهما قديمتان؛ فالعالم إذًا قديمٌ مع علّته.

وإن زعمتَ أنّ الحركة التي بعثت الشّهوة مُحدَثة غير طبيعيّة، فلا بدّ أن تكون قسريّة، ولا بدّ من قاسِر قسَرها. ولا يجوز أن يكون شيء قسَرها إلاّ الباري –جلّ وتعالى– ؛ إلاّ أن تجعل القاسِر لها الهيولي أو المكان أو الزّمان؟

وهذا خُلْفٌ غير ممكن.

– **قال**: فإنّي أقول إنّ هذه الحركة ليْست طبيعيّة، ولا هي قسريّة.

– **قلتُ**: فإنّ الفلاسفة اتّفقوا على أنّ الحركة حركتان: طبيعيّة وقسريّة؛ ولا ثالثة لهما.

– **قال**: صدقتَ، هذا قول القدماء. ولكنّي قد استدركتُ في هذا شيئًا لطيفًا، واستخرجتُ منه ما لم يسبقني إليه أحدٌ غيري. وأنا أقول: إنّ الحركات ثلاث: طبيعيّة، وقسريّة، وفلتيّة.

– **قلتُ**: فهذه الثّالثة لم نسْمع بها ولا نعْرفها، فعرّفناها كيف تكون؟

– **قال**: أنا أضْرب لك مثلاً يتصوّر لك وتعرف وجْه الصّواب فيه.

وجرتْ هذه المناظرة بيْني وبيْنه في دار بعض الرّؤساء، وكان ذلك الرّئيس قاعدًا مع قاضي البلد يتناظران في أمْر بينهما، وهما بحيْث نراهما؛ وحضر هذا المجلس معنا المعروف بأبي بكر خِتن التّمار المتطبّب.

فقال الملحِد في باب المثل الذي أراد أن يثبت به الحركة الفَلْتِيَّةَ التي أبدعها: "هل تَرى هذا القاضي قاعدًا مع الأمير؟".

– قلتُ: نعم!

– قال: أرأيتَ لو أنّه تناول طعامًا رياحيًّا، فتحرّكت الرّياح في جوْفه واشتدّت، وهو يمْسكها ويضْبط نفسه، وهو لا يرسلها حذرًا من أن يتأذّى الأمير بنتْنها، أو حذرًا من أن يكون لها وقع، فيفتضح؛ ثمّ تغلبه الرّياح، فتفلتُ منه؛ فليست هذه الحركة طبيعيّة ولا قسريّة، بل هي فلْتيّة.

– قلتُ: ألستَ تزعم أنّ علّة هذه الرّياح التي انفلتت من القاضي هي الطّعام الذي تناوله؟

– قال: نعم!

– قلتُ: فيجب إذًا أن تكون لهذه الحركة الفلْتيّة التي تزعم أنّها حرّكت شهوة النّفس علّة قد تقدّمت الحركة حتّى أحدثتها في النّفس، كما أنّ الطّعام علّة لهذه الرّياح.

وإذا كانت هنالك علّة قد تقدّمت، فلا بدّ أن تكون قديمة مع النّفس، أو أحْدثها مُحْدِثٌ. فإن كانت قديمة معها، فهي طبيعيّة. ويجب أن تكون النّفس أبدًا مُتحرِّكة بهذه الحركة، لأنّ الطّبع لا يفْتُرُ عن عمَله؛ ويجب أيضًا أن تعدّها مع هذه الخمسة التي تزْعم أنّها قديمة. وإن كانت الحركة مُحدَثة، فهي قسريّة. فمَن ذا الذي أحدثها، وقسَر النّفس عليها؟

فلمّا انتهى الكلام إلى هاهنا، ضحك خِتن التّمار شامتًا به، وكان يحْضر هذه المناظرات، فيظهر الشّماتة به إذا انْكسر، لِمَا كان بينهما من الخلاف في قِدَم العالم وحدثه.

فلمّا ضحك متعجّبًا لِمَا أورده، خجل الملْحِد من ضحكه، وأقْبل عليه وقال له: "وأيّ مقدار للدّهريّ حتّى يستهزئ ويضْحك ويسيءَ أدبه! دعْ عنك الضّحك، وتكلّم على مذْهبك من القول بالدّهر وقِدَمِ العالم، لأعرّفك مقدارك".

قال له خِتن التّمار: "الآن، بعد أن افتضحتَ وانكسرتَ ولم يُقْنِعْكَ، حتّى ضَرَطْتَ القاضي وفضحْته عند الأمير وأوردْتَ هَذا السُّخْفَ وهذه الحجّة الباردة، أقبلتَ تسْفه عليَّ وتسْتريح إلى مخاصمتي! دَعْني ومذهبي، وأجبْ الرّجل؛ فليس هذا ممّا يعنيك ويخلّصك من هذه الفضائح والدّعاوى الباطلة التي تُمَخْرِقُ بها على النّاس".

وبقيَا ساعة في نحو هذا التّشاتم، وانْقطع الكلام.

وإنّما ذكرتُ هذه الحكايات لتعرف –رحمك الله– ما كان عليه الملحِد من الاعتقاد الضّعيف والرّأي السّخيف؛ ثمّ يصنّف بعقله المدخولِ ورأيه المأفون كلامًا في إبطال النُّبُوّة، ويورد ذلك الهَذَرَ الذي في كتابه الذي صنّفه في هذا الباب.

وأنا أذْكر نكتًا أحتجّ بها وأَدُلُّ على فساد قوله، وأقول في إثبات النّبوّة، وتقوية أمْر الأنبياء والرّسل –عليهم[1] السّلام–، والدّلائل الواضحة على نبوّتهم، ما يمحق الله به دعاوى الملحِدين الكفرة الضّالّين الفجرة؛ وإن كان الله –عزّ وجلّ– قد أوْهن كيدهم، وأعزّ دينه ونصر أولياءه، وأهان أعداءَه وأعداء دينه؛ وأذكر من معجزات محمّد –صلّى الله عليه وآله–، القائمة في العالم، ما لا يقدر ملْحدٌ على دفْعه، ولا كافرٌ على نقْضه، بحوْل الله وقوّته– عزّ جاره– وبحسْن نظر أوليائه.

وبالله نستعين، وعليه نتوكّل؛ وهو حسبنا ونِعْم الوكيل.

وممّا ذكر الملْحِد في كتابه المسألة التي ذكرْنا في صدْر كتابنا هذا أنّا ناظرناه عليها، وذكرنا في جوابها ما فيه مقنع لمن أنصف –إن شاء الله–.

---

[1] في الأصل: **عليه**.

الباب الثامن

الفصل الأوّل
وممّا ذكر أيضًا في كتابه واحتجّ به

– **قال**: إنّ أهل الشّرائع أخذوا الدّين عن رؤسائهم بالتّقليد؛ ودفعوا النّظر والبحث عن الأصول، وشدّدوا فيه، ونهوا عنه؛ ورووا عن رؤسائهم أخبارًا توجب عليهم ترك النّظر دِيانةً، وتوجب الكفْر على مَن خالف الأخبار التي رؤُوها.

من ذلك: ما رووه عن أسْلافهم: أنّ الجدل في الدّين والمراء فيه كفرٌ؛ ومَن عرّض دينه للقياس لم يزل الدّهر في الْتباس؛ ولا تتفكّروا في الله وتفكّروا في خلْقه؛ والقدر سرّ الله، فلا تخوضوا فيه؛ وإيّاكم والتّعمّق، فإنّ مَن كان قبلكم هلك بالتّعمّق.

وذكر نحْو هذا، ثمّ قال: إن سُئل أهل هذه الدّعوة عن الدّليل على صحّة دعواهم، استطاروا وغضبوا، وهدروا دم مَن يطالبهم بذلك، ونهؤا عن النّظر، وحرّضوا على قتْل مخالفيهم.

فمِن أجْل ذلك، انْدفن الحقّ أشدّ انْدفان، وانْكتَم[1] أشدّ انْكِتام.

– **وقال المُلحِد**: وإنّما أتوا في هذا الباب من قوْل الإلْف لمذهبهم، ومرّ الأيّام والعادة، واغترارهم بلح التيوس المتصدّرين في المجالس يمزّقون حلوقهم بالأكاذيب، والخرافات، وحدّثنا فلان عن فلان بالزّور والبهْتان، وبرواياتهم الأخبار المتناقضة؛ من ذلك: آثار توجب خلق القرآن وأخرى تنْفي ذلك، وأخْبار في تقديم عليّ[2] وأخرى في تقديم غيره،

---

[1] في الأصل: **انكنتم**.

[2] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لما قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.
حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

وآثار تنفي القدر وأخرى تنفي الإجبار، وآثار في التّشبيه؛ ذكرها الملحِد وكرهنا تطويل الكتاب بها.

– **وقال المُلحِد**: إنّما غرّهم طول لِحَى التُّيوس، وبياض ثياب المجتمعين حولهم: الضّعفاء من الرّجال والنّساء والصّبيان، وطول المدّة، حتّى صار طبعًا وعادة.

هذا كلام الملحِد واحْتجاجه في هذا الباب.

– **جوابه**: أمّا قوله: "إنّ أهل الشّرائع أخذوا الدّين عن رؤسائهم بالتّقليد، ودفعوا البحث عن الأصول والنّظر، وشدّدوا فيه ونَهَوا عنه"، فقد ذكرنا في صدر كتابنا ما فيه جوابُ قوله في باب التّقليد والنّظر؛ ولكنّا نعيد القول به، إذ كان هذا موضعه.

ونقول: إنّه وغيره ممَّن يدّعي الفلسفة، قد أوْجبوا التّقليد على أتباعهم فيما يدقُّ من علومهم، وأجازوا التّسليم لرؤسائهم فيما لا تبلغه عقولهم؛ على ما ادّعاه الملحِد من أنّ مَن نظر في شيء مكمن الفلسفة، تخلّصت نفسه من كدورة هذا العالم، وإن لم يبلغ الغاية فيها.

أَوَ ليست هذه رخصة في ترك النّظر فيما يدقُّ، والتّسليم والرّضى بمقدار ما يلحق؟ أَوَليس قد أوْجب التّقليد فيما لا يبْلغه عقْله؟

فكيْف يجيز ذلك لأتباعه، وينكر على أهل الشّرائع أن ينهوا أتباعهم عن النّظر فيما تعجز عنه عقولهم، وأن يسلّموا لعلمائهم إذا عرفوا طريقَ الحقّ، وأن يقلّدوهم ما ليس في وسعهم أن يلحقوه؟!

ونقول: إنّ أهل الحقّ والعدل لا يجيزون التّقليد في الأصول، مثل: معرفة التّوحيد، وأمر النّبوّة، وإثبات الإمامة؛ هذا ما لا يجوز قبوله بالتّقليد. فإذا ثبت التّوحيد، وصحّ أمر النّبوّة، وثبت أمْر الإمامة، بعد ذلك يجوز التّقليد للإمام الحقّ العادل العالِم.

وليْس في جبلّة البشر أن يبلغوا الغاية من العِلم، إذ كان فوق كلّ ذي عِلْم عليمٌ. وإن سقَط التّقليد بعد معرفة هذه الأصول، كما ذكرنا، وكُلّف النّاس كلّهم أن يبلغوا الغاية، فقد كُلِّفوا ما لا يطيقون؛ والله –عزّ وجلّ– أعْدل وأرْحم بعباده من ذلك، ولا يُكَلّفُ نفسًا إلاّ وسْعها.

الفصل الثّاني
عودٌ إلى البحث والنّظر

وأمّا ما ذكر في باب البحث والنّظر، فإنّ أهْل الشّرائع كافّة لا يدفعون ذلك؛ ولا توجب الشّرائع ترْك البحْث والنّظر.

وإن كان قومٌ من ضعفاء أهل المِلَلِ يدفعون لضعْفهم، ويخفَى عليهم وجْه الصّواب فيه، فليس ذلك بحجّة للمُلحِد على كافّة أهل الشّرائع.

وتحقيق ذلك في القرآن العظيم: قال الله –أصدق القائلين–: ﴿فَبَشِرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبَعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ الله وَأُولَئِكَ هُم أُولو الأَلبَاب﴾[1].

وأمَر النّبيّ أن يدعو[2] اليهود[3] إلى النّظر، فقال: ﴿تَعَالوا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إلاّ نَعْبُدُ إلاَّ الله ولاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا أَرْبَابًا مِنْ دُون الله﴾[4].

---

[1] سورة الزّمر (39)، الآية 18.

[2] في الأصل: **يدعوا**.

[3] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى –عليه السّلام–: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى –عليه السّلام– وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى –عليه السّلام– وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[4] سورة آل عمران (3)، الآية 64.

ودعاهم إلى النّظر في التّوراة، وما يوجبه حكم التّوْراة فيما أنكروه عليه وخالفوه فيه، في أشياء أحلّت لهم وحُرّمت عليهم، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بالتّوراة فَاتلوها إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

فهذه الآيات تدلّ على أنّ الله –جلّ وتعالى– أمَر بالنّظر، وأمَر بالاسْتماع من المخْتلفين، والنّظر فيه، واتّباع ما هو أحْسن وأوْلى وأحقّ وأوْجب؛ وعلى هذا أهل المعرفة وذووا الألباب من أصحاب الشّرائع.

وليستْ للمُلحِد حجّة عليهم بما يفعله ضعفاء الأمّة، ومَن لا معرفة له مستحكِمة، ومَنْ هو مِنْ عوامّ النّاس.

فأمّا الخبَر الذي احتجّ به وعاب على روّاته، وزعم أنّه يوجب ترك النّظر، قوله: "الجدلُ في الدّين والمِراء فيه كفرٌ"، فإنّه صحيحٌ؛ ولكن ليس الجدَل معناه: النّظر، وإنّما معنى الجَدل: الخصومة والتّنازع.

وأُخِذَ الجَدلُ من الجَدَالَةِ في[2] الأرض: كأنّ المجادليْن، هما أحدهما يخاصم صاحبه وينازعه حتّى يلقيه إلى الأرض ويسْتعلي عليه.

فإذا كان الأمْر على هذا، فليْس ذلك بنظر، بل هو جَدَلٌ وخصومة، وهو كفرٌ في الدّين؛ لأنّه عن طريق المغالبة، والمعاداة، وترْك الإنْصاف.

والمجادِلُ، على هذه الجهة، هو تاركٌ لِمَا أُمِرَ به مِنَ النّظر على أحْسن الوجوه بالإنْصاف والعدْل؛ وهو الجَدَلُ الذي نُهينا عنه، ورُوِيَ فيه أنّه كفرٌ، لأنّه كما ذكرنا مُغالَبة ومُكابَرة واسْتعلاء.

وقد نهَى الله عن الجدَل وأمَر بالنّظر على أحْسن الوجوه، فقال –جلّ ذكره–: ﴿ولاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3].

---

[1] سورة آل عمران (3)، الآية 93.

[2] في الأصل: **هي**.

[3] سورة العنكبوت (29)، الآية 46.

ألاَ تراه قد نَهى عن الجَدل على وجْه المغالبة والاستعلاء والمكابرة ودفْع الحقّ، وأطْلق فيه على أحْسن الوجوه، واستثْنى، فقال: ﴿إلاّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]؟. وقال في آية أخرى: ﴿أُدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بِالحِكمَةِ والمؤعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

فقد نُهينا عن الجدَل، والخصومة، والمِرَاءِ؛ وإذا كان على سبيل التّنازع، والمكابرة، وترك الإنْصاف، ودفْع الحقّ؛ فهذا هو الكفْر.

فأمّا إذا ترك المناظرُ الخصومةَ والتّنازُعَ ودفْع الحقّ، فالنّظر مُطلَقٌ له، بل هو أمرٌ من الله، على حسب ما ذكرنا.

والمراء أيضًا معْناه: الخصومة والتّنازع.

وقال بعض أهل اللّغة: المِراء هو الجُحود، واحتجّ بقول الشّاعر:

لئِنْ هَجَرْتَ أخا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ لقد مَرَيْتَ أَخًا ما كان يَمريكا

قال: يمريك، معْناه: يجْحدك.

فالجُحود في الدّين هو كفرٌ، لأنّه استعلاءٌ، وظلمٌ، وردٌّ للحقّ على معرفة ويقين؛ كما قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلمًا وعلُوًّا﴾[3].

فهذا معْنى الحديث؛ ولكنّ الملحِد خَفِيَ عليه معناه، لقلّة معرفته بلغة العرب؛ فقدّر أنّ المرادَ بالمراء والجدل هو النّظر والإنْصاف، واحتجّ بما لا حجّة له فيه.

وأمّا احْتجاجه بالحديث: "لا تتفكّروا في الله وتفكّروا في خلْقه"، فهو أيضًا خبرٌ صحيحٌ؛ ولكن ليس هو ممّا يَنهَى عن النّظر؛ إنّما نُهينا عن أن ننظر في كيفيّة الخالق، وأن نقدّر أنّا نبلغ الغاية فيه.

وأُمرْنا أن نعلم أنّ أحدًا مِنَ الخلائق لا يبلغ نعْته، وأنّ الحواسَّ لا تحيط به، وأنّ الأوْهام والصّفات تقْصر عنه.

---

[1] سورة العنكبوت (29)، الآية 46.

[2] سورة النّحل (16)، الآية 125.

[3] سورة النّمل (27)، الآية 14.

فنُهينا عن أن ننظر في كيفيّته، وأُمرْنا أن ننظر في خلْقه، ونعتبر به، ونعرّف إلهيّته ورُبوبيّته وتوحيده بخلْقه، ونستدلّ عليه بصنْعه؛ فإنَّ في ما خَلقَ مِنْ سماواته وأرضه وما بينهما من عجائب الصّنع، ما يدلّ على إنّيته ووحدانيّته؛ وفي ذلك عبرة للمعتبرين، ودليل للمتفكّرين[1].

وبهذا أمَر –جلّ ذكره– في القرآن العظيم، فقال: ﴿إنّ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتِ لأُولي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وقعُودًا وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُون في خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارْ﴾[2]؛ وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلِ فِيهَ رَوَاسِيَ﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقْومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]؛ وقال في آية أخرى: ﴿وَالخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِير لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾[5] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6].

فهذه الآيات وما أشْبهها كثيرة في القرآن، هي كلّها تدلّ على أنّا قد أُمرنا أن نتفكّر في خلْق الله، ونعتبر بما فيه من عجائب الصّنع والتّدبير، ونسْتدلّ بذلك عليه –جلّ وتعالى–؛ إذْ كُنَّا لاَ نَلْحَقُ كَيْفِيَّتَهُ ولا نحيطُ به. ومَن تفكّر فيه دون خلْقهِ تحيّر وذهل عقْله، ولم يدرك كيفيّته ولم يحط به، لأنّه –عزّ وتعالى– جلّ عن أن يحيط به مخلوقٌ؛ لأنّه إذا أحاط المخلوق بالخالق، فالمخلوق أعْلى من الخالق –تعالى الله عن ذلك–؛ بل المخلوق يعجز عن الإحاطة بالخالق، والخالق يحيط بخلْقه كلّه؛ لا يعْزب عنه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السّماء.

---

[1] في الأصل: **للمتكفرين**.

[2] سورة آل عمران (3)، الآية 191.

[3] سورة فصلت (41)، الآية 10.

[4] سورة الجاثية (45)، الآية 13.

[5] سورة النّحل (16)، الآية 8.

[6] سورة الجاثية (45)، الآية 13.

وإنّما نُهينا عن التّفكّر في الله، وأُمرنا بالتّفَكُّر في خَلْقِهِ لهذه العلّة؛ ومَن خالف ذلك هلك.

وهذا هو الحقُّ الوَاضِحُ. وليس للمُلحِد في ردّه حجّة، ولا له إلى ذلك سبيل.

وليْس هذا الحديث ممّا يردّ النّظر وينهَى عنه؛ بل فيه: النّهي عن النّظر في كيفيّة الخالق، والتّفكّر في ذاته، والأمْر بالتَّفَكُرْ في خَلْقِهِ والاعْتبار به والاسْتدْلال بذلك على إنّيته وكيفيّته. وأيّ حجّة للمُلحِد في هذا حين أنْكره على رُوّاته؟!

وأمّا الخبَر، قوله: "القَدَرُ سِرُّ الله، فلا تخوضوا فِيهِ"، وما ادّعى مِنَ الأخبار التي ذكر أنّها تنفي القدَرَ، وأخرى تنفي الإجبار، فإنّها كلّها صحيحة.

ومَن الذي نظر في القَدَرِ، فبلغ الغاية فيه، حتّى قطع حجّة خصْمه؟ ومَن الذي أثبت القدر، أو مَنْ الذي أثبت الإجبار، مع كثرة نظر النّاس فيه ومجاذبتهم؟ وهل حصلوا إلاّ على الوسْواس، والهَذَيَانِ، ونقْض بعضهم على بعض؟

هذا ممّا يدلّ على أنّ الأخبار التي تنفي القَدَر هي صحيحة؛ وكذلك التي تنْفي الإجبار هي صحيحة.

وأهْل النّظر في ذلك –أعني: القَدَر– على ثلاث طبقات:

– قوم أوْجبوا الإجبار، وادّعوا أنّ أفعالَ العباد مخلوقة وأنّها بقدرٍ، وأنّ العباد مُجْبرون على أفعالهم. فهؤلاء أوْجَبوا أنّهم أطاعوا الله وعصوه مُكْرَهِينَ؛ فألْزموا الباريَ الجورَ، وأوْجبوا أنّ الله أجبَرَ خلْقه على المعاصي، ثمّ يعاقبهم عليها –عزّ الله عن ذلك–.

– والطّائفة الأخرى قالوا: إنّ أفعال العباد ليست بمخلوقة، وإنّه ليس لله فيها مشيئة، ولا إرادة، ولا تقدير. فأوْجبوا أن العباد يقْدِرونَ على فِعْل ما لا يريده الله ولا يُقَدّره، وأنّهم عصوه وأطاعوه غالبين؛ فأشْركوا أنفسهم مع الله في سلْطانه؛ إذ كانوا يقدرون على ما لا يقدر الله ولا يريده؛ وسقطوا عن حكم التّنزيل؛ لأنّ الله –عزّ وجلّ–، يقول: ﴿إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]، وأفْعال العباد هي شيء داخلٌ في الكلّ الذي ذكره الله أنّه خلَقه بقدر –تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا–.

---

[1] سورة القمر (54)، الآية 49.

– وقوْم عرفوا الحقّ والعدْل، فنفوا القدر والإجبار، وصحّحوا الأخبار التي أنكرها الملحِد، وزعم أنّها متناقضة، وزعم أنّ منها ما ينفي القدر ومنها ما ينفي الإجبار، جهلاً منه بهذه المنزلة الثّالثة.

وأهْل الحقّ والعدل اقْتدوا في ذلك بالصّادقين من آل الرّسول –عليه وعليهم السّلام– الذين هم ورثة علم رسول الله، وصحّحوا هذه الأخبار كلّها التي تنْفي القدر والإجْبار، وقالوا: "لا إجبار ولا تفويض"؛ كما قال الصّادق جعفر بن محمّد[1] –عليه السّلام–، حين سُئل، فقيل له: "يا ابن رسول الله، النّاس مُجبَرون؟". قال: "الله أعْدل من أن يجْبر خلْقه على المعاصي، ثمّ يعاقبهم عليها". قيل: "فمُفوَّضٌ إليهم؟". قال: "هو أعزّ من أن يكون لأحد في مُلكه سلطان". قالوا: "فكيف هو؟". قال: "هُوَ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْن، لا إجبارٌ ولا تفْويضٌ".

فهذا هو سرّ الله الذي مَن ترك القول بالعدْل والحقّ فيه، وسلك فيه برأيه وقياسه، هلك؛ وهو سرّ الله الذي أَطْلَعَ عليه أنبياءه وأولياءه؛ ولا يُوصَل إلى معرفته إلاّ بتوقيف منهم. وكذلك كلّ أمر مُلتبِس في الدّين لا يلْحق إلاّ بتوْقيف منهم.

ومَن لم يرجع في ذلك إلى الأصل يأخذه عنهم، وقال في ذلك برأيه وقياسه، لم يزل الدّهرَ في الْتباس؛ على نحو ما رُوِيَ في الحديث الذي عاب به الملحِد، وذكر أنّ هذا الحديث ينهى عن النّظر.

---

[1] جعفر بن محمّد الصّادق، أبو عبد الله، ولد يوم 17 ربيع الأول 80هـ في المدينة المنورة وتوفّي فيها سنة 148 هـ، إمام وعالم جليل وعابد فاضل من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب وله مكانة جليلة عظيمة لدى جميع المسلمين. لقب بالصادق لأنّه لم يعرف عنه الكذب ويعتبر الإمام السّادس لدى الشيعة الإمامية (الإثنا عشريّة) والإسماعيليّة وباقي الإماميّة وإليه انتشار مدرستهم الفقهية. ولذلك تسمّى الشّيعة الإماميّة بالجعفريّة أيضًا، بينما يرى أهل السنة والجماعة أنّ علم الإمام جعفر ومدرسته أساس لكل طوائف المسلمين دون القول بإمامته من الله، وروى عنه كثير من كتاب الحديث السنّة والشّيعة على حد سواء، وقد ستطاع أن يؤسّس في عصره مدرسة فقهية وتتلمذ على يده العديد من العلماء. ويُقال إنّه من أوائل الروّاد في علم الكيمياء حيث تتلمذ على يديه أبو الكيمياء جابر بن حيان.

وقد ذكرْنا في باب النّظر ما فيه كفاية لِمَن أنْصف.

وإنّما هذا الحديث ينهى عن الخوْض فيما ليس في وسْع المخلوقين أن يدركوه برأيهم وقياسهم، ولا يعرفونه إلاّ بتوقيف من العلماء البرَرة كما ذكرنا، الذين هم قادة الأنام.

ومَن قاس برأيه في مثل هذه الغوامض، على غير أصْلٍ من أصولهم، وابتدع بقياسه ما يعقد به الرّياسة، لا يزال الدّهرَ في الْتباس؛ وهذا هو القياس المَنْهِيُّ عنه.

الفصل الثالث
البحث في الوعوق

وأمّا قوله: "إيّاكم والتّعمّق! فإنّ مَن كان قبلكم هلك بالتّعمق"، فليس في هذا أيضًا نَهْيٌ عن النّظر، إنّما هو نهيٌ عن التّعمّق في الدّين ترك القصد؛ وهو الغُلُوّ في الدّين، وابْتداع أشياء لم يؤمَروا بها في باب العبادة، والتّشديد في ذلك، وترْك القصد في الاجتهاد، والأخْذ بالتّعسير فيه.

فالمتعمِّق يغْلو[1] ويزعم أنّه مجتهدٌ في الدّين، يتكلّف ما لم يكلّفه الله؛ كما فعَل الخوارج[2] في هذه الأمّة، حتّى ابتدعوا تلك الآراء، وخالفوا الأئمّة، وغَلوا في الدّين، وتعمّقوا في العبادة، من غير جهة السّنّة التي سنّها الله –عزّ وجلّ–، وأمرهم بها.

وقد جاءت فيهم أخبار بصحّة ما قلنا؛ كما رُوي أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– نظر إلى رجل ساجد في المسجد، حتّى فرغ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– من صلاته، فقال –صلّى الله عليه وسلّم–: "مِنْ رَجُلٍ يَقْتُلُهُ؟"، فقام أبو بكر[3] ومشى إليه ليقتله، ثمّ انْصرف وقال: "يا رسول الله، كيف أقتل رجلاً ساجدًا لله؟!"؛ فقال: "مِنْ

---

[1] في الأصل: **يغلوا**.

[2] يعرّف الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (طبعة كيلاني، ج1/ص114) الخوارج تعريفًا عامًّا بقوله: "كلّ مَن خرج على الإمام الحقّ الذي اتّفقت الجماعة عليه يُسمّى خارجيًّا، سواء كان الخروج في أيّام الصّحابة على الأئمّة الرّاشدين أو كان بعدهم على التّابعين بإحسان والأئمّة في كلّ زمان". يعني هذا أنّ هذا الاصطلاح منشؤه سياسيّ، وقد ورد في الحديث الشّريف: "مَن خرج من الطّاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهليّة"، رواه مسلم وأحمد والنّسّائي عن أبي هريرة. والذي يظهر أنّه اصطلاح أُطلق عليهم من قِبَل أهل السنّة، ويخصّون به الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– في معركة صفّين وبعد التّحكيم المعروف. إلاّ أنّه صار علما على فرقة معيّنة لها آراء سياسيّة في الخلافة، من أهمّها: إنكار شرط القرشيّة، وآراء أخرى في عليّ ومعاوية والصّحابة، وآراء سياسيّة وفقهيّة في مرتكب الكبيرة".

[3] هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة –و اسمه عثمان– بن عامر، من ولد تيم ابن مرّة –تيم قريش–. كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– عبد الله، ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه –رضي الله عنه–، وسمّي صدّيقًا لتصديقه خبر المسرى. وأمّه سلمى وتكنى أمّ الخير بنت صخر، وهي بنت عمّ أبيه. بويع له يوم الاثنين الذي توفّي فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وتوفّي بالسلّ ليلة الثّلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، وسنّه ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيّام، وصلّى عليه عمر –رضي الله عنه–. ودُفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–.
حول ترجمته راجع: ابن خلّكان، *وفيّات الأعيان*، ج3/ص64 إلى ص71؛ *الرّياض النّضرة*؛ الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*؛ *غاية النّهاية*.

رَجُلِ يَقْتُلُهُ؟"، فقام عمر[1] ومشَى إليه ليقْتله، ثمّ انْصرف وقال: "يا رسول الله كيف أقْتل رجلاً ساجدًا لله؟!"؛ فقال: "مِنْ رَجُلِ يَقْتُلُهُ؟"، فقام عليّ –رضي الله عنه– ومشى إليه ليقتله، فوجده قد ذهب.

وفي الحديث زيادة، ولرسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– فيه قولٌ؛ وإِنَّمَا أَمَرَ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– بقتْله، لأنّه ترك القصْد وابْتدع ما لمْ يفترضْه الله –جلّ ذكره–، ولا أمر به رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– من التّعمّق في العبادة.

ثمّ قيل إنّه كان أحد الخوارج الذين قال فيهم النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–: "يَقْرَأُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ". وقال: "يمْرقون مِنَ الدّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ"؛ والمروق هو أن يصيب السّهم الرَّمِيَّةَ، ثمّ ينْفذ إلى الجانب الآخر؛ فهذا هو خروج عن المقْدار. وكذلك التّعمّق، هو الغلوّ والخروج عن المقْدار. وكلّ خارج عن المقْدار والحدّ، فهو غالٍ ومُتعمّقٌ ومارِقٌ.

ورُوِيَ عن أمير المؤمنين –رضي الله عنه– ، أنّه قال: "الغلوّ على أربع شُعَبٍ: على التّعمّق، والتّنازع، والدّفع، والشّقاق".

فمَن تعمَّق، لم يُنِبْ إلى الحقّ، ولم تنْحسر عنه فتْنة إلاّ غشيته أخرى، وانْخرق دينه، فهو في أمْر مريج.

---

[1] هو أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه–، أبو حفص العدوي الفاروق، وزير رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–. وهو الذي سنّ المحدّثين التّثبّت في النّقل، وربّما كان يتوقّف في خبر الواحد إذا ارتاب. وقد كان عمر أمر الصّحابة أن يقلّوا الرّواية عن نبيّهم ولئلاّ يتشاغل النّاس بالأحاديث عن حفظ القرآن. اسْتشهد أمير المؤمنين عمر في أواخر ذي الحجّة من سنة ثلاث وعشرين، وعاش نحوا من ستّين سنة، وقيل إنّه عاش خمسين سنة، والأرجح أنّه عاش ثلاثًا وستّين سنة.
حول ترجمته راجع: الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*، ج1/ص5 إلى ص8.

والغلوّ والتّعمّق في الدّين على وجوه كثيرة: أحدها[1] ما قد ذكرناه من فعل الخوارج الذين شدّدوا في أشياء لم يُلْزَموها، وخفّف الله عن الأمّة فيها؛ فتعمّقوا، وتركوا القصْد، وغَلَوا، ومَرقوا؛ وإنّما تُعرَف هذه المعاني من لغة العرب.

وقد قال السيّد بن محمّد الحميري[2] في تحقيق ما قلنا يخاطب الشّيعةَ[3]:

---

[1] في الأصل: **أحدهما**.

[2] هو إسماعيل بن محمّد بن يزيد بن ربيعة، المعروف بالسيّد الحميري. كان شاعرًا محسنًا كثير القول، وكان رافضيًّا. له مدائح جمّة في آل البيت –عليهم السّلام–. وكان مقيمًا بالبصرة. وكان أبواه يبغضان عليًّا، وسمعهما يسبّانه بعد صلاة الفجر، فلعنهما. وكان يرى رجعة محمّد بن الحنفيّة في الدّنيا. وكان السيّد يعتقد أنّ ابن الحنفيّة لم يمت، وأنّه في جبل بين أسد ونمر يحفظانه، وعنده عينان نضّاختان تجريان بماء وعسل، ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا. ويُقال إنّ السيّد اجتمع بجعفر الصّادق –عليه السّلام– فعرّفه خطأه وأنّه على ضلالة فتاب. وكان مُقدَّمًا عند المنصور والمهدي. وكان أحد الشّعراء الثّلاثة الذين لم يضبط ما لهم من الشّعر، هو وبشّار وأبو العتاهية، وإنّما أمات ذكره وهجره النّاس لسبّه الصّحابة وبغض أمّهات المؤمنين وإفحاشه في قذفهم، فتحاماه الروّاة. وُلد السيّد سنة 105 هـ. ومات أوّل أيّام الرّشيد سنة 173 هـ.

حول ترجمته راجع: *فوات الوفيّات*، ج1/ص188 إلى ص193؛ *طبقات الشّعراء* لابن المعتزّ، ص32؛ *الأغاني* لأبي الفرج الأصبهاني، ج7/ص2242؛ *وفيّات الأعيان*، ج6/ص343؛ *الوافي*، ج9/رقم 5003؛ *فتوح* ابن أعثم، ج2/ص234؛ *رجال* الكشي، ص242.

[3] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص146 إلى ص147): "الشّيعة هم الذين شايعوا عليّا –رضي الله عنه– على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصّا ووصيّة، إمّا جليًّا وإمّا خفيًّا؛ واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت، فبظلم يكون من غيره أو بتقيّة من عنده. وقالوا ليست الإمامة قضيّة مصلحيّة تُناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضيّة أصوليّة، وهي ركن الدّين، لا يجوز للرّسل –عليهم الصّلاة والسّلام– إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله. يجمعهم القول بوجوب التّعيين والتّنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوبًا عن الكبائر والصّغائر، والقول بالتّولّي والتّبرّي قولاً وفعلاً وعقدًا، إلاّ في حال التّقيّة. ويخالفهم بعض الزّيديّة في ذلك، ولهم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير... وهم خمس فرق: كيسانيّة، وزيديّة، وإماميّة، وغلاة، وإسماعيليّة. وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنّة، وبعضهم إلى التّشبيه".

أنتم قليلٌ من كثير، فاقْصدوا وذروا التّعمّق، واحْذروا أن تمْرقـوا
إنّ الذين بنَهْرَوَان، إنّما مرقوا مِنَ الإسلام حين تعمّقـــــــوا
نزعوا غداتئذ بحكْم واقع عند الحكومة، جاحدين، فأغرقـــوا

فجمَع معنى التّعمّق والمروق والإغراق، وهي كلّها بمعنى الغلوّ وترْك القصْد. ألا تراه يقول: فاقْصدوا وذروا التعمّق؟

وقوله في هذا الحديث: "فإنّ مَنْ كان قَبْلُكُم هَلَكَ بالتَّعَمُّقْ"، فإنّه هذا المعنى بعيْنه؛ يعني بذلك النّصارى[1] الذين ذكرهم الله –تعالى– حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ورَهْبَانيّة ابتدعوهَا ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغَاءَ رِضْوَانِ الله فَما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[2]، يعني ما ابْتدعته النّصارى من الرّهبانيّة، والتّعمّق في الدّين، والتّعسير عن أنفسهم، والغلوّ فيما لم يأمرهم الله به ولا كتبه عليهم، أي: لم يفترضه عليهم؛ إنّما أُمروا

انظر: *المرجع المذكور*، ج1/ص146–ص147.

[1] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون –كالزّمخشري– إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

[2] سورة الحديد (57)، الآية 27.

بالعبادة بمقدار ما يبتغون به رضوان الله، وأُمروا أن يقْتصدوا رأْفة ورحْمة؛ فابتدعوا وتكلّفوا ما لم يؤمروا[1] به، ولم يرعَوا فرائض الله حقّ رعايتها؛ فهلكوا بذلك.

فهذا هو التّعمّق في الدّين الذي نُهينا عنه، وأُمِرنا باجْتنابه، واسْتعمال القصْد، وترْك الابتداع في التّعمُّق، لِئَلاَّ نهْلك كما هلك مَن كان قبلنا. ولم نعْن بالتّعمّق: النّظر؛ ولا نُهينا عن النّظر.

وأخْطأ الملحِد في تأويل هذا الحديث، لقلّة معرفته بلغة العرب؛ فجهل معنى الخبر، وعاب بما لو مَدَح به، لكان أوْلى؛ لأنّ مَنْ أمَر بالقصد ونهى عن التّعمّق، فقد احتاط، وخفّف، ويسّر؛ وهو بالمدْح أحقّ منه بالذّمّ.

ولعلّ مُعارِضًا يقول: إنّا احتججْنا على الملحِد بالقرآن، وبالحديث، وبالشّعر، ولم نقلْ ذلك احتجاجًا عليه في أصْله. ولكنّا أرَدْنَا أن نُبَيِّنَ معنى ما جَهِلَهُ من تأويل الأخبار؛ وكذلك السّبيل فيما نُورِدُ بعد هذا من الاحتجاج بالقرآن، والأخبار، والشّعر –إن شاء الله تعالى–.

---

[1] في الأصل: **يأمروا**.

الفصل الرابع
البحث في التناقض

وأمّا الأخبار التي ادّعى فيها التّناقض، وما ذَكر في باب التّشْبيه، وغير ذلك؛ فإنّ هذه الأخبار، منها ما هي مصنوعة، ومنها ما هي صحيحة.

فأمّا المصنوعة:

فمنها: ما ابْتدَعها الكذّابون من أهل الشّريعة، أرادوا أن يعقدوا بها الرّياسات، ويُوردوا أخبارًا غريبة يسْتميلون بها قلوب العامّة؛ فإنّ المبتدعين في كلّ شريعة هكذا كان سبيلهم.

ومنها: ما وَضَعها الملحِدون ودسّوها، يريدون أن يشنّعوا بها.

فقد رُوِيَ عن قوْم منهم أنّهم فعلوا ذلك، مثل: ابن المقفّع[1]، وابن أبي العَوجاء[2]،

---

[1] ابن المقفّع (م 724 . 759 م) هو أبو محمّد عبد الله مؤلف وكاتب من البصرة، تقول بعض المصادر إنّ والده كان من أصْل فارسي مجوسيّ. لُقِّب أبوه بالمقفّع لأنّه اتّهم بالسّياسة، وكان الوالي يكرهه فأمر بقتله. رافق الأزمات السّياسيّة في زمن الدّولتيْن الأمويّة والعبّاسيّة. درس الفارسيّة وتعلّم العربيّة في كتب الأدباء واشترك في سوق المربد. نقل من البهلويّة إلى العربيّة *كليلة ودمنة*. وله في الكتب المنقولة التي وصلت إلينا الأدب الكبير، والصغير. والأدب الكبير فيه كلامٌ عن السّلطان وعلاقته بالرّعيّة، وعلاقة الرّعيّة به. والأدب الصّغير حول تهذيب النّفس وترويضها على الأعمال الصّالحة. ومن أعماله أيضًا مقدّمة *كليلة ودمنة*.

[2] عبد الكريم بن أبي العوجاء خال معن بن زائدة الشيباني، كان في البصرة من المشهورين بالزّندقة والتّهاون بأمْر الدّين. قال قبل قتله: "أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرّم فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام والله لقد فطَّرتكم يوم صومكم وصوّمتكم يوم فطركم". وكان قتله في خلافة المهدي بعد الستّين ومائة. قال الشّيخ الجويني أنّ ابن العوجاء وضع 12 ألف حديث. يروى أنّه كان من تلامذة الحسن البصري، فانْحرف عن التوحيد وقدم مكة تمرداً وإنكارًا على من يحجّ، وكانت العلماء تكره مجالسته لخبث لسانه وفساد ضميره، فأتى أبا عبد الله –جعفر الصّادق– فجلس إليه في جماعة من نظرائه، فاستأذنه في الكلام على أن تكون المجالس بالأمانات، فلما أذن له قال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، إن هذا أسسه غير حكيم، ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وأبوك أسسه. كان ابن أبي العوجاء يتتلمذ على حماد ويدس في رواياته وحماد إمام جليل وهو مفتي أهل البصرة وهو ثقة الناس كما ذكر ابن عدي واحمد. ذكر ابن حجر أيضاً في ترجمة حماد: "إنَّ حماداً كان لا يحفظ، وكانوا يقولون: إنَّها (أي روايات التشبيه) دُسَّت في كتبه، وقد قيل إنَّ ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدس في كتبه". وقال الذّهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: "الإمام القدوة شيخ الإسلام وكان مع إمامته في الحديث إماماً كبيراً في العربية فقيها فصيحاً رأسًا في السنة صاحب تصانيف". من هنا نرى مدى خطورة اندساس الزنادقة بين العلماء وتلامذتهم وأولئك الزنادقة كانوا من الأذكياء وممَّن انعم الله عليهم بالقدرة على الكلام والجدل ولكنهم استخدموا نعمة الله في الشرّ والخراب والإلحاد. الإمام الصادق –عليه السّلام– والاتجاهات الفكرية المنحرفة تبوّأ الإمام الصادق عليه السلام مركز الإمامة الشرعية بعد آبائه الطاهرين وبرز إلى قمة العلم والمعرفة في ذلك العصر الذي عاش فيه, مرموقًا مهابًا، فطأطأت له رؤوس العلماء إجلالاً

وإكبارًا حتّى عصرنا هذا. فقد كان عامة المسلمين وعلماؤهم يرون جعفر بن محمّد –عليه السّلام– سليل النبوة وعميد أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا, فهو الرّمز الشّرعي للمعارضة التي قادها أهل بيت الوحي عليهم السلام ضد الظلم والطغيان الأموي والعباسي معًا. وفي عصره انتشرت الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والخوارج والكيسانيّة والزّيديّة، واشتدّ الصراع بينها، كما بدأت الزندقة تستفحل وتخترق أجواء المجتمع الإسلامي, فتصدّى الإمام الصادق –عليه السّلام– للردّ على الملاحدة من جهة، وتصدّى لمحاكمة الفرق المنحرفة من جهة أخرى. ومع كلّ هذا وذاك، لقد اهتم الإمام –عليه السّلام– ببناء الجماعة الصّالحة التي تتحمّل مسؤولية تحذير خطّ أهل البيت في الأمّة الإسلاميّة، إلى جانب اهتمامه ببناء جامعة أهل البيت الإسلامية وتخريج العلماء في مختلف فنون المعرفة، لا سيّما علماء الشّريعة الذين يضمنون للأمة سلامة مسيرتها على مدى المستقبل القريب والبعيد, ويزرعون بذور الثّورة ضدّ الطغيان. ولم يغفل الإمام –عليه السّلام– عن تقوية خط الثورة والجهاد في أوساط الأمّة, وذلك من خلال تقوية وتأييد كل تحرك يهدف إلى إزاحة الظلم والطغيان, وهذا ما حصل لثورة عمّه الشهيد زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام فقد أيّده ومن تلاه من ثوار البيت العلوي. الزندقة: ومن الأفكار التي ظهرت في عصر الإمام الصّادق –عليه السّلام– فكرة الإلحاد والزّندقة، ولا يستغرب أحد من نشوء هذه الفكرة المنحرفة في العالم الإسلامي، وهو عالم التّوحيد الخالص وفي وقت تتطلّع سائر الأمم للرسالة الإسلامية الخاتمة. إن الظلم والفساد الذي أشاعه الأمويّون في كل ميادين الحياة كان هو السّبب في ظهور هذه الأفكار المناهضة للفكر الإسلامي. لقد كان السّؤال والمناقشة للفكر الذي يتبناه الحكّام ذنباً لا يغتفر، وعلى الإنسان أن يسمع ولا يفكّر، أو نفذ ثم ناقش، كما هو مبدأ الطغاة على مر التأريخ. أمّا الخلافة الإسلاميّة، فتبلورت في زمن طواغيت بني أُميّة وفراعنة بني العباس. إنّ هذا الفساد الذي عمّ ميادين الفكر والسلوك شجّع ظهور الفكر الإلحادي كرفض للواقع الفاسد. قال الإمام محمد عبده: "قد وضع الزّنادقة اللاّبسون لباس الإسلام غشًّا ونفاقًا وقصدهم بذلك إفساد الدّين، وإيقاع الخلاف والافتراق في المسلمين. ومن هنا نشاهد ابن أبي العوجاء يعقد حلقاته الفكريّة لغرض التّشكيك في التّوحيد وفي مسجد رسول الله –صلّى الله عليه وآله–, إذ كان ينكر أصل الوجود ويقول: إن الوجود بدأ بإهمال. وكان الجعد بن درهم ممعنًا في الكفر ومبتدعاً ومتفانياً في الزّندقة وكان يعلن الإلحاد. ومن بدعه أنّه جعل في قارورة ترابًا وماءًا فاستحال دودًا وهوامًا، فقال لأصحابه: إنّي خلقت ذلك لأنّي كنت سبب كوْنه, وبلغ ذلك الإمام الصّادق –عليه السّلام– فردّه

وأشباههما.

فأمّا ابن المقفّع، فإنّه كان مُشتهِرًا بالزّندقة، يسْتتر بالإسلام، ويميل إلى المجوسيّة والمنانيّة[1]، ويعْتقد القول بالاثنيْن.

ورُويَ أنّه مرّ على بيت النّار، فتمثّل بقول القائل:

يا بَيْتَ عَاتِكَةَ التي أَتَعَـزَّلُ   حَذَرَ العِدَى وبه الفؤادُ مُوَكَّـلُ

إِنِّي لأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وإنَّنِي   قَسَمًا إليْكَ مَعَ الصُّدُودِ لأمْيَلُ

وأمّا ابن أبي العَوْجاء[2]، فإنّه كان معروفًا بالإلْحاد.

بأبلغ البرهان قائلاً: إن كان خلقه فليقل كم هو؟ وكم الذكران منه والإناث؟ وكم وزن كل واحدة منهنّ؟ وليأمر الذي يسْعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره.

[1] أو المانويّة. وهو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك –أو فتّق–، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250- ص251.

[2] واسمه عبد الكريم، خال معن بن زائدة الشيباني، من الملاحدة المشهورين، واعترف بدسّه الأحاديث الكاذبة في أحاديث النبي (صلّى الله عليه وآله)، وكفى في معرفة حاله هذه المناظرات، وقد قُتِل على الإلحاد كما قُتِل صاحبه ابن المقفّع. قال قبل قتله: "أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف

فهذان قد عُرِفَا واشْتهر أمْرهما؛ وأنّهما كانا يصْنعان هذه الأخبار ويدُسّانها، نحو قوله: "إنّ الله أجرَى خيلاً، فعرقت، فخلق نفسه من ذلك العرْق"، ونحو حديث: "زَغِبَ الصّدر، ونورِ الذّراعيْن، وعيادة الملائكةِ، وقفص الذّهب على جمل أورق"؛ وأشْباه هذه الأخبار التي هي من هذا الجنْس.

وأمّا الأخبار التي وضَعَها الكذّابون مِنَ المحدّثين الذين ابتَدعوها واسْتمالوا بها قلوبَ العامّة، فإنّ الثّقاة[1] مِنْ روّاة[2] الحديث قد نبّهوا على كثير منها، وذكروا روّاتها الذين صنعوها وجرّحوهم، ونهوا عن الرّواية عنهم، ووقَفوا على كذبهم.

حديث أحرّم فيها الحلال وأحلّ فيها الحرام والله لقد فطَّرْتكم يوم صومكم وصوّمتكم يوم فطركم". وكان قتله في خلافة المهدي بعد الستّين ومائة.

[1] في الأصل: **الثقات**.

[2] في الأصل: **روات**.

كما رُوِيَ عن شعبة[1] أنّه قال: "لأَنْ أَزْنِيَ كذا وكذا زَنْيَة، أحبُّ إليّ من أنْ أروي عن أبان بِن عيّاش[2]".

---

[1] شعبة (ع) ابن الحجاج بن الورد، الإمام الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث أبو بسطام الأزدي العتكي، مولاهم الواسطي، عالم أهل البصرة وشيخها، سكن البصرة من الصغر، ورأى الحسن، وأخذ عنه مسائل. وحدث عن: أنس بن سيرين، وإسماعيل بن رجاء، وسلمة بن كهيل، وجامع بن شداد، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، وجبلة بن سحيم، والحكم بن عتيبة، وعمرو بن مرة، وزبيد بن الحارث اليامي، وقتادة بن دعامة، ومعاوية بن قرة، وأبي جمرة الضبعي، وعمرو بن دينار، ويحيى بن أبي كثير، وعبيد بن الحسن، وعدي بن ثابت، وطلحة بن مصرف، والمنهال بن عمرو، وسعيد بن أبي بردة، وسماك بن الوليد، وأيوب السختياني، ومنصور بن المعتمر، وخلق كثير سواهم. ورأى ناجية بن كعب شيخ أبي إسحاق السبيعي. وكان من أوعية العلم، لا يتقدّمه أحد في الحديث في زمانه، وهو من نظراء الأوزاعي ومعمر والثوري في الكثرة. قال علي بن المديني: له نحو من ألفي حديث. قلت: ما أظنّه إلاّ يروي أكثر من ذلك بكثير. قيل: وُلد سنة ثمانين في دولة عبد الملك بن مروان. وقال أبو زيد الهروي: ولد سنة اثنتين وثمانين. روى عنه عالم عظيم، وانتشر حديثه في الآفاق. وكان سفيان الثوري يخضع له ويجله، ويقول: شعبة أمير المؤمنين في الحديث. وقال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. قال أبو عبد الله الحاكم: شعبة إمام الأئمّة بالبصرة في معرفة الحديث، رأى أنس بن مالك، وعمرو بن سلمة الجرمي، وسمع من أربع مائة شيخ من التّابعين، قال: وحدث عنه من شيوخه: منصور، والأعمش، وأيوب، وداود بن أبي هند، وسعد بن إبراهيم –يعني قاضي المدينة–.

[2] أبان بن أبي عياش (ت 138 هـ) هو أحد الكذّابين الذين أصّلوا للديانة الباطنيّة بصفة عامّة، وللمذهب الشّيعيّ الإثني عشريّ بصفة خاصّة، وينسب إليه كثير من المحقّقين وضع أوّل كتاب سبئيّ هو كتاب "سليم بن قيس الهلالي". وسليم بن قيس الهلالي هذا نكرة لا يعرف، لا أثر لذكره في كتب التّراجم والتواريخ عند أهل السنّة؛ فلا ذكر له في تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وشذرات الذهب لابن العماد، ولا في البداية والنهاية لابن كثير، ولا في طبقات ابن سعد، ولا في مجموعة من كتب الرجال مثل: لسان الميزان، أو التّاريخ الكبير والصغير للبخاري، أو *تهذيب الكمال* للمزي، باستثناء ما نقله الزّركلي في (الأعلام) نقلاً عن مصادر الشّيعة. ومع كلّ هذه الجهالة التي أحاطت بهذا الرّجل، فإنّ الشّيعة يزعمون أنّه مؤلف أوّل كتاب في الإسلام، ويقولون أنّ الحجّاج لاحقه لقتله، فهرب إلى بلاد فارس وأوى إلى بيت أبان بن أبي عياش. ولعلّ في هذا دليلاً على أنّه شخصية خيالية، ادّعى أبان بن أبي عياش أنّه من أصحاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب –رضي

ورُوِي عن ابن المبارك أنّه قال: "حديث أُبيّ بن كَعْبٍ[1] أنّه قال: "مَنْ قرأ سورة

الله عنه- لينسب إليه عن طريقه تلك العقائد السّبئيّة التي حواها كتابه. هذا وقد شهد بعض رجال الشّيعة أنّ الكتاب المنسوب إلى سليم بن قيس هذا موضوع: يقول ابن المطهّر الحلي: "وقال ابن الغضائري: سليم بن قيس الهلالي العامري، روى عن أبي عبد الله والحسن والحسين وعليّ بن الحسين -عليهم السّلام-، وينسب إليه هذا الكتاب المشهور، وكان أصحابنا يقولون إنّ سليما لا يُعرف ولا ذُكر في خبر، وقد وجدتُ ذكره في مواضع من غير جهة كتابه ولا رواية أبان بن أبي عياش. وقد ذكر له ابن عقدة في رجال أمير المؤمنين -عليه السّلام- أحاديث عنه، والكتاب (كتاب سليم بن قيس) موضوع لا مرية فيه، وعلى ذلك علامات تدل على ما ذكرنا". (رجال الحلي: ص83). فأبان بن أبي عياش كما يبدو هو الذي وضع كتاب سليم بن قيس الهلاليّ الذي أسّس للغلوّ في أئمّة أهل البيت، والطّعن في صحابة النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم-؛ حيث ادّعى أنّه روى هذا الكتاب عن تابعيّ يدعى سليم بن قيس من أصحاب علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وهذا ليس غريبا على رجل اشتهر بالكذب: قال الإمام أحمد بن حنبل عن أبان بن أبي عياش هذا: "متروك الحديث، ترك الناس حديثه منذ دهر"، وقال: "لا يكتب حديثه، كان منكر الحديث"، وقال ابن معين: "ليس حديثه بشيء"، وقال ابن المديني: "كان ضعيفًا"، وقال شعبة: "ابن أبي عياش كان يكذب في الحديث". (تهذيب التهذيب: 1/97-101، الضعفاء للعقيلي 4-1/38؛ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: 2/295-296). وقد أقرّ بعض رجاليي الشّيعة بهذه الحقيقة: قال ابن المطهّر الحليّ: "أبان بن أبي عياش: بالعين غير المعجمة والشين المعجمة، واسم أبي عياش فيروز بالفاء المفتوحة والياء المنقطة تحتها نقطتين السّاكنة وبعدها راء وبعد الواوزاي: تابعي ضعيف جدًّا، روى عن أنس بن مالك، وروى عن عليّ بن الحسين -عليهما السّلام-، لا يلْتفت إليه، وينسب أصحابنا وضع كتاب سليم بن قيس إليه. هكذا قاله ابن الغضائري. وقال السيّد علي بن أحمد العقيقي في كتاب الرّجال: أبان بن أبي عياش كان سبب تعريفه هذا الأمر سليم بن قيس حيث طلبه الحجاج ليقتله حيث هو من أصحاب علي -عليه السّلام-، فهرب إلى ناحية من أرض فارس ولجأ إلى أبان بن أبي عياش. فلمّا حضرته الوفاة قال لابن أبي عياش إن لك حقا وقد حضرني الموت، يا ابن أخي إنّه كان من الأمر بعد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كيت وكيت وأعطاه كتابا، فلم يرو عن سليم بن قيس أحد من الناس سوى أبان. وذكر أبان في حديثه قال: كان شيخا متعبدا له نور ويعلوه. والأقوى عندي التوقف فيما يرويه لشهادة ابن الغضائري عليه بالضعف. وكذا قال شيخنا الطوسي (ره) في كتاب الرّجال قال إنّه ضعيف". (رجال الحلي: ص206).

كذا، فله كذا"، هو مِنْ وضْع الزّنادقة، فلا تروُوه".

---

[1] هو أُبي بن كعب بن قيس بي عبيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو من الخزرج . له كنيتان: أبو المنذر؛ كناه بها نبي الإسلام محمد، وأبو الطفيل؛ كناه بها عمر بن الخطاب بابنه الطفيل وكان عمر يسميه سيد المسلمين. وأمّه صهيلة بنت النجار، وهي عمة أبي طلحة الأنصاري. وقيل في وصفه انه كان أبيض الرأس واللحية لا يخضب. كان أُبي بن كعب من فقهاء الصحابة، وكان من كُتّاب الوحي، ومن اعتبر من أفضل قرّاء القرآن، وهو أحد الإثنا عشر الذين بايعوا الرسول، في بيعة العقبة .وقد روي أن أُبي بن كعب قال: "سألني رسول الله ما هي برأيك أعظم آية جاءت في القرآن الكريم؟، فقلتُ: آية الكرسي، فضرب رسول الله على صدري، وقال لي: ليهنئك العلم يا أبا المنذر. «وقد جاء في الحديث: "أقرؤكم أُبي" وقد أسند إليه النّبيّ مهمّة تعليم الوفود القرآن وتفقيهها في الدين وكان النّبيّ إذا غاب عن المدينة يستخلفه لإمامة المسلمين في الصّلاة. وقد قال عنه عمر بن الخطّاب: "سيد المسلمين أبي بن كعب". وجاء في صحيح البخاري أنّ الرّسول قال لأُبي بن كعب حين نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ "إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال أبي: آلله سماني لك؟ قال: نعم الله سماك لي فجعل أبي يبكي". شهد أبي بن كعب مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وقد خطب عمر بالجابية فقال: "أيّها الناس من كان يريد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أبيَّ بن كعب". عن عبد الله بن أبي نُصير قال: عُدْنا أبي بن كعب في مرضه، فسمع المنادي بالأذان فقال: "الإقامة هذه أو الأذان؟"، قلنا: "الإقامة"، قال: "فلا تفعلوا قوموا، إن رسول الله صلّى بنا صلاة الفجر، فلمّا سلّم أقبل على القوم بوجهه فقال: "أشاهدٌ فلان؟ أشاهدٌ فلان؟". حتّى دعا بثلاثة كلّهم في منازلهم لم يحضروا الصلاة فقال: "إن أثقل الصّلاة على المنافقين صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا، واعْلم أنّ صلاتك مع رجلٍ أفضل من صلاتك وحدك، وإن صلاتك مع رجلين أفضل من صلاتك مع رجل، وما أكثرتم فهو أحبّ إلى الله، وإنّ الصفّ المقدّم على مثل صف الملائكة، ولو يعلمون فضيلته لابتدروه، ألا وإنّ صلاة الجماعة تفضل على صلاة الرّجل وحدَه أربعًا وعشرين أو خمساً وعشرين". وكان الرّسول قد قال: "ما مِنْ شيءٍ يصيب المؤمن في جسده إلاّ كفَّر الله عنه به من الذّنوب" كعب حتّى يلقاك، لا يمنعه من صيام ولا صلاة ولا حجّ ولا عُمرة ولا جهاد في سبيلك". فارتكبته الحمى فلما تفارقه حتّى مات، وكان في ذلك يشهد الصّلوات ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو. توفّي سنة 30 هـ، يقول عُتيّ السعديّ: قدمت المدينة في يوم ريحٍ وغُبْرةٍ، وإذا الناس يموج بعضهم في بعض، فقلت: "ما لي أرى الناس يموج بعضهم في بعض؟"، فقالوا: "أما أنت من أهل هذا البلد؟". قلت: "لا". قالوا: "مات اليوم سيد المسلمين، أبيّ بن كعب".

ويُروَى عن المغيرة –صاحب إبراهيم– أنّه قال: "حديث سالم بن أبي الجعد[1] وحديث فلاّس لا تُرووه"؛ وكان لا يعْبأ بما يُروَى عنهما.

ورُوي عن غير واحد أنّ حديث ابنِ عبّاس[2]: أنّه كان يبْصق الدّوتة ويكتُبُ منها، وضَعَه عاصم الكوزيُّ.

وقالوا: حديث النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–: أنّه لم يحدّ المريض، وضَعَه سهل السّرّاج.

---

[1] سالم بن أبي الجعد الأشجعي الكوفي، أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران ومسلم، وهو تابعي جليل، روى عن ثوبان وجابر وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والنعمان بن بشير وغيرهم. وعنه قتادة والأعمش وآخرون، وكان ثقة نبيلاً جليلاً. توفي سنة 100 هجرية.

[2] هو عبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم، ابن عمّ النّبيّ محمّد، حبر الأمّة وفقيهها وإمام التّفسير، ولد ببني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، وكان النّبيّ محمّد دائم الدعاء لابن عبّاس فدعا أن يملأ الله جوفه علما وأن يجعله صالحًا. وكان النّبيّ محمّد يدنيه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول: "اللّهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل". توفّي رسول الله محمّد وعمر ابن عبّاس لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وقد روي له 1660 حديثًا. كان عبد الله بن عبّاس مقدما عند عثمان بن عفّان، وأبو بكر الصديق– رضي الله عنه–، ثمّ جعله علي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه– واليًا على البصرة وكان عمره يوم وفاة النّبيّ محمّد 14 عامًا. لغزارة علم ابن عباس– رضي الله عنه–، لقّب بالبحر إذ أنّه لم يتعود أن يسكت عن أمر سُئل عنه، فإن كان الأمر في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن، وكان عن رسول الله أخبر به، فإن كان من سيرة أحد الصّحابة أخبر به، فإن لم يكن في شيء من هؤلاء قدم رأيه فيه، ومن شدة إتقانه فقد قرأ سورة البقرة وفسرها آية آية وحرفًا حرفًا. لشدّة إيمانه أنّه لما وقع في عينه الماء أراد أن يتعالج منه فقيل له: "إنّك تمكث كذا وكذا يوما لا تصلّي إلاّ مضطجعًا"، فكره ذلك. وقد قال –رضي الله عنه–: سلوني عن التفسير، فإنّ ربّي وهب لي لسانا سؤولاً وقلبًا عقولاً.

توفّي عبد الله بن عبّاس سنة 68 هـ بالطّائف، وقد نزل في قبره، وتولّى دفنه عليّ بن عبد الله ومحمّد بن الحنفيّة، والعبّاس بن محمّد بن عبد الله بن العبّاس، وصفْوان، وكريب.

وحديثه (ع) الذي رُوِيَ عن عمرو بن حريث[1]، أنّه قال: "رأيتُ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يوم العيد يُسار بين يديْه بالحِرابِ"، وضعه المُنْذرُ بنُ زِياد.

وحديثه (ع) أنّه نهى[2] عن عَشرِ كنًى، وضَعَه أبو عاصم -قاضي مَرْو-.

وحديثه (ع): "لا يَزالُ راكبًا مَا دَامَ مُنْتَعِلاً"، وضَعَه أيّوبُ بن خوط[3].

---

[1] هو عمرو بن حريث (ع) ابن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي، أخو سعيد بن حريث.كان عمرو من بقايا أصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- الذين كانوا نزلوا الكوفة. مولده قبيل الهجرة. له صحبة ورواية. وروى أيضًا عن أبي بكر الصديق، وابن مسعود. حدّث عنه: ابنه جعفر، والحسن العرني، والمغيرة بن سبيع، والوليد بن سريع، وعبد الملك بن عمير، وإسماعيل بن أبي خالد، وآخرون. وآخر من رآه رؤية خلف بن خليفة. توفّي سنة خمس وثمانين.
أخبرنا الحسن بن علي، أخبرنا جعفر الهمداني، أخبرنا السلفي، أخبرنا أحمد بن علي الطريثيثي، أخبرنا المسيب بن منصور الدينوري بآمل، أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد، حدثنا يوسف بن يعقوب بن خالد النيسابوري، أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع؛ حدثنا شريك، عن أبي إسحاق: سمعت عمرو بن حريث يقول: كنت في بطن المرأة يوم بدرا. وروى فطر بن خليفة، عن أبيه؛ سمع مولاه عمرو بن حريث يقول: انطلق بي إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وأنا غلام؛ فدعا لي بالبركة، ومسح رأسي، وخط لي دارا بالمدينة بقوس، ثمّ قال: ألا أزيدك.
وروى معبد بن خالد، عن عمرو بن حريث، قال: أمرني عمر -رضي الله عنه- أن أؤمّ النّساء في رمضان. قال الواقدي: ثم ولي الكوفة لزياد بن أبيه، ولابنه عبيد الله بن زياد: عمرو بن حريث وحصل مالا عظيما وأولادًا، منهم: عبد الله، وجعفر، ويحيى، وخالد، وأم الوليد، وأم عبد الله، وأم سلمة، وسعيد، ومغيرة، وعثمان، وحريث. قال الواقدي: قبض النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولعمرو بن حريث اثنتا عشرة سنة. وشهد أخوه سعيد بن حريث فتح مكة وهو حدث.

[2] في الأصل: **نهي**.

[3] أيّوب بن خوط من من أهل البصرة كنيته أبو أميّة، وهو الذي يُقال له أيوب الحبطي، يروى عن قتادة، مُنكَر الحديث جدًّا، يروى المناكير عن المشاهير، كأنّه ممّا عملت يداه، تركه ابن المبارك. وهو الذي روى عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: "مَن كان ذا لسانين في الدّنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة"؛ أخبرناه الحسن بن سفيان ثنا حميد بن قتيبة ثنا [أحمد بن إسرائيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا] أيّوب من خوط عن قتادة.
انظر ترجمته في: الميزان 286 / 1؛ التاريخ الكبير 414 / 1.

فهكذا كان سبيل هؤلاء الكذّابين، والزّنادقة، والملحِدين الذين وضَعوا هذه الأخْبار.

وليس ما يبْتدعه الكذّابون ويُدلِّسه الملْحِدون بحجّة للمُلحِدين على الأنبياء الطّاهرين، وعلى أهل الصّدق من الأمّة؛ إذ كانت الشّريعة قد اشتملت على أصناف النّاس.

وأمّا الأخبارُ الصّحيحة: فمنها ما يُشكل معناها، ومنها ما يقع فيها النّسْخ.

وأمّا ما يُشكل معناها فكثيرة؛ ومَن لا يعرف معانيها يقدّر فيها التّناقض.

ومنها: ما يقع فيها الزّيادة والنّقصان، ويوهم فيها المحدِّث ويُغلّط؛ مثل الحديث الذي احتجّ به الملحِد، وعابه، وطَعَن على النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، قوله: "رَأَيْتَ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ"، ووضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَنْدُوَتَيَّ". فإنّه -صلّى الله عليه وسلّم- إنّما أراد أنّه رآه في المنام، لم يردْ أنّه رآه في اليَقَظة.

وكيف يجوز أن يقول إنّه رأى ربّه، والله -عزّ وجلّ يقول-: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾[1]؟!

فأراد -صلّى الله عليه وسلّم- أنّهُ رآه في المنَامِ.

ومثل هذا الحديث رواه عبيد الله بن وَهَبْ عن عمرو بن الحارث عن سعد بن أبي مالك[2] عن مروان بن عُثْمَان عن عمارة بن عامر عن أمّ الطُفيل[3] -امْرَأَةِ أُبَيّ بن

---

[1] سورة الأنعام (6)، الآية 103.

[2] هو: سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. فهو من بني زهرة وهم فخذ آمنة بنت وهب أمّ الرّسول، وقد كان الرّسول (ص) يعتز بهذه الخؤولة. فقد ورد أنّه كان جالسًا مع نفر من أصحابه (ص)، فرأى سعد بن أبي وقاص مقبِلاً، فقال لمن معه: "هذا خالي فليرني أمرؤ خاله".

وُلد في مكّة سنة 23 قبل الهجرة. نشأ سعد في قريش، واشتغل في بري السهام وصناعة القسي، وهذا عمل يؤهل صاحبه للائتلاف مع الرّمي، وحياة الصّيد والغزو. وكان يمْضي وقْته وهو يخالط شباب قريش وساداتهم ويتعرّف على الدّنيا من خلال معرفة الحجّاج الوافدين إلى مكّة المكرّمة في

كعب–، قال: "سمعتُ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– يذكر أنّه رأى ربّه في المنام في صورة شابّ مُوفّرٍ على فراش من ذهَبٍ في رجلَيْه نعْلان من ذهبٍ".

وليس هذا بمُنْكَرٍ أن يقول –صلّى الله عليه وسلّم–: "رَأَيْتُ رَبِّي في المنام"، فإنّ كثيرًا من النّاس يَرَوْنَ مثل هذه المنامات؛ يرَوْنَ رَبَّهُمْ، ويَرَوْنَ الملائكة، ويروْن الأنبياء،

أيّام الحجّ ومواسمها، المتباينة الأهداف والمتنوعة الغايات. سعد بن أبي وقاص دخل الإسلام وهو ابن سبع عشرة سنة. وكان إسلامه مبكّرا، ويتحدث عن نفسه فيقول: "ولقد أتى عليّ يوم, وإنّي لثلث الإسلام"، يعني أنّه كان ثالث ثلاثة سارعوا إلى الإسلام، وقد أعلن إسلامه مع الذين أعلنوه بإقناع أبي بكر الصدّيق إياهم، وهم عثمان بن عفان، والزّبير بن العوّام، وعبد الرّحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله. أسْلم عبر حلم حين كان في يومٍ رأى رؤية وجد فيها أنّه يمشي في مكان مظلم، وكلّما مشى أكثر اشتد علية الظلام، ثمّ وجد قمرًا منيرًا بشدّة، فذهب هناك وجد أنّ "أبو بكر الصدّيق" و"عليّ بن أبي طالب" و"عبد الرّحمن بن عوف" يقفون أسفله، فعلم أنّ القمر هو الرّسول محمّد، فعندها استيقظ وأعلن إسلامه.

عمّر سعد بن أبي وقاص كثيرًا وأفاء الله عليه من المال الخير الكثير، لكنّه حين أدركته الوفاة دعا بجبّة من صوف بالية وقال: "كفّنوني بها، فإنّي لقيت بها المشركين يوم بدر وإنّي أريد أن ألقى بها الله –عزّ وجلّ– أيضًا". وكان رأسه بحجر ابنه الباكي، فقال له: "ما يبكيك يا بني؟ إنّ الله لا يعذّبني أبدًا، وإنّي من أهل الجنّة"، فقد كان إيمانه بصدق بشارة رسول الله كبيرًا. وكانت وفاته سنة خمس وخمسين من الهجرة النّبويّة. وكان آخر المهاجرين وفاة, ودفن في البقيع –رضي الله عنه وأرضاه–.

[3] أمّ الطفيل امْرَأَة أُبي بن كعب. روى عنها مُحَمَّد بن أُبيّ بن كعب، وعَمَارَة بن عامر، وبُسر بن سعيد. أخبرنا أبو ياسر بن أبي حبّة بإسناده عن عَبْد الله: حدثني أبي، حدّثنا إسحاق بن عيسى، أخبرني ابن لهيعة، عن بكير، عن بسر بن سعيد، عن أبي بن كعب قال: نازعني عُمر بن الخطّاب في المتوفَّ عنها وهي حامل، فقلت: تُزَوَّج إذا وضعت. فقالت أم الطفيل أم ولدي لعُمر: "قد أمر رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– سُبَيعة الأسلمية أن تنكح إذا وضعت". وروى سعيد بن هلال، عن مروان بن عُثْمان، عن عَمَارَة بن عامر بن حزم الأنصاريّ، عن أم الطفيل امْرَأَة أبي بن كعب قالت: "سمعتُ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– يقول: "رأيتُ ربّي عَزَّ وجَلّ في المنام..." الحديث. أخرجها ابن منده، وأبو نعيم.

انظر ترجمته في: أسد الغابة في معرفة الصّحابة – ابن الأثير.

ويروْن القيامة، ويروْن الأمور العظيمة؛ وهذا واسعٌ كثيرٌ غير مدفوع، وليس يقع فيه نكيرٌ من أحد العالمين.

وقرأتُ في كتاب إشعياء النّبيّ: أنّ إشعياء رأى رؤيا من بعد ارتفاع النُّبُوّة عنه بثلاث سنين، في السّنة التي توفّي فيها عُزْيا الملك، وقال: "رأيتُ الربّ جالسًا على منبر عظيم، ورأيتُ نورًا خرج من أسْفل منْبَره ملأ هيْكله، ورأيتُ السّرافين قائمًا أمامه، له ستّة أجْنحة، يسْتر وجهه بجناحيْن، وبجناحيْن يسْتر رجليْه، ويطير بجناحيْن، ويضيف بعضها إلى بعض ويقول: "قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، ربّ الملائكة والرّوح، قدّوس الرّب القويّ الذي الأرض كلّها ممتلئة من تسبيحه؛ وتزلزلت مَعَقِمُ الأبواب من الصّوت الذي هَتَفَ، وامْتلأ البيت دخانًا؛ ورأيتُ عيناي المِلِكَ الرّبَّ القويّ". ثمّ ذكر أشياء كثيرة رآها، ثمّ فسّرها.

وقرأتُ في كتاب دانيال[1]: رأى دانيال رؤيا، وحَلِمَ حُلمًا، ورأْسه على مضْجعه؛

---

[1] النّبيّ دانيال كان ممن تم أسرهم ونقلهم إلى بابل إبان السبي البابلي لبيت المقدس وتدميرها على زمن نبوخذ نصر. ودانيال نبيّ من أنبياء بني إسرائيل ممّن لا يُعلم وقته على اليقين، إلاّ أنّه كان في الزّمن الذي بعد داود، وقبل زَكّريا ويحيى –عليهم السّلام–، وكان في الوقت الذي قدم فيه بختنصر إلى بيت المقدس وخربه، وقتل فيه من قتل من بني إسرائيل وسبى من سبى وأحرق التّوراة.

وقيل: إنّه أسر دانيال الأصغر، وقيل: بل وجدوه ميّتاً عندما دخل بختنصر بيت المقدس، والظّاهر أنّه كان في بني إسرائيل دانيال الأكبر ودانيال الأصغر. والله أعلم. وقد أورد ابن أبي الدّنيا بإسناده إلى عبد الله بن أبي الهذيل أن بختنصر سلط أسدين على دانيال بعد أن ألْقاه في جُب –أي بئر– فلم يفعلا به شيئًا. فمكث ما شاء الله ثمّ اشتهى ما يشتهي الآدميّون من الطّعام والشّراب، فأوحى الله إلى أرمياء وهو من أنبياء بني إسرائيل وهو بالشّام أن أعدّ طعاماً وشراباً لـ دانيال. فقال: يا رب أنا بالأرض المقدّسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله إليه أن أعد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال من هذا؟ قال أنا أرمياء فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك، قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي يجيب من دعاه، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً. والحمد لله الذي يجزي بالصّبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا وكربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا... واشتهر أنّ الصّحابة عثروا على قبره عندما فتحوا (تستر) ثمّ أمرهم عمر بن الخطاب أن يغيبوا قبره خشية أن يتّخذه النّاس معبدًا أو يشرك بالله عنده. وقيل إن الذي وجدوه رجلاً صالحًا. والأوّل أشهر.

وأخرج ابن أبي الدّنيا بإسناد حسن –كما قال الحافظ ابن كثير– عن أبي الزّناد قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتما نقش فصه (أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرّجل). قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرّجل الميّت الذي زعم أهل هذه البلدة أنّه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه أي يوم دفن دانيال. قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه، جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنّه يولد كذا وكذا غلام يُذهب ملكك ويفسده، فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليلة مولود إلا قتلته. إلاّ أنّهم أخذوا دانيال، فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه ولم يضرّاه. فجاءت أمّه

فكتب حينئذ رؤياه، وقصّ مبتدأ كلامه، وبَدَأَ بالقوْل، فقال: "رأيتُ فيما يرى النّائم باللّيل كذا، ورأيتُ كذا"، وذكر أشياء كثيرة، ثمّ عبّرها وفسّرها؛ وتطول الخُطَبُ بذكْرها.

وقال في آخرها: "ومن بعد هذه الأمور، رأيتُ كراسيَ قد وُضِعَتْ، وَعَتِيقَ الأَيّامِ قد جَلَسَ لِسانه أَبْيَضُ كبياضِ الثَّلْج، وشعْر رأسه كالقُطْن الأبيض النّقيّ، وكُرْسِيَّهُ كَلَهَبِ النّارِ، ودعائم كرسيّه وبكراتُه من نار تَتَّقِدُ؛ ورأيتُ نهرًا من نار يجري بين يديْه، وبين يديْه ألف ألف خدّام يخدمونه، وكتّابٌ لا تُحْصى؛ ورأيتُ الدّيان قد جلس، ونُشِرَتْ الأسْفَارُ؛ ورأَيْتُ على سحاب السّماء كهيْئة إنسان، فانْتهى إلى عَتِيق الأيّام، وقدّموه بين يديْه".

فخَوَّلَهُ المُلْك، والسّلطانَ، والكرامَةَ؛ وأن تتعبّد له جميع الشّعوب، والأمم، واللّغات؛ وسلطانه دائمٌ إلى الأبد، ومُلكه إلى الأبد لا يتغيّر. وضاقت نفسي أنّ دانِيال على مضْجعي، وغمَّتني الرّؤيا التي رأيتُ، فدنوْتُ من خادم من الخدّام، وسألته عن تحقيقِ هذه كلّها، وقال لي يقينًا، وأخبرني بتعبير رؤياي.

ثمّ فسّر دانيال تعبيرَهَا، وقال في آخرها: "أرْبعة أملاك تقوم في الأرض ويرثون المُلكَ؛ والمملكة الرّابعة هي التي تتفاضل على المُلكاتِ، ويمْلك الأرض كلّها، ويدوسها، ويدقّها، وينال المُلكَ دائم إلى الأبدِ، له يتعبّد كلُّ سلطان ويطيع".

إلى ها هنا انْقضى الكلام.

فأمّا أنّ دانيال، فغمّتني فِكرتي جدًّا وتغيّر لوْن بهائي، ولكنّي حفظتُ الكلام في قلبي.

فهكذا، هو من حديث الذي ذكره المُلحِد، وقال: إنّ في التّوراة أنّ قَدِيم الأيّامِ في صورة شيخ أبيض الرّأس واللّحية.

فعابَ المُلحِد هذا وأشباهه ممّا رآه الأنبياء في مناماتهم.

وهذه الرّؤيا أراد الله –عزّ وجلّ– أن يوحي بها إلى دانيال، ليُخْبِر بما يكون في العَالم؛ فَأَبْرَ بذلك، وصحَّ ما ذكرَه.

فوجدتهما يلحسانه فنجّاه الله بذلك حتّى بلغ ما بلغ. قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فصّ خاتمه لئلاّ ينسى نعمة الله عليه في ذلك.

وذَكَرَ في هذه الرّؤيا أخبار ملوك كانوا بعْدَهُ، وما يحدث من أمْرهم وممالكهم، يطول شرحها.

ثُمَّ أخْبر بعد أخبارهم وقِصَصهم، بهذه القصّة التي أمرُها أوْضح من فَلَق الصّبح؛ لأنّه قال: "أربعة أملاكٍ تقوم في الأرض ويرثون الملك".

فالأملاك الأربعَةُ هي أملاك أهل الأديان الأربعة: اليهوديّة، والنّصرانيّة، والمجوسيّة، والإسلام.

والمِلْكة الرّابعة التي ذكر أنّها تتفاضل على المملكات، هي مملكة الإسلام، وهي التي ورثتْ الملك في هذا العالم.

فأمّا الممالك كلّها في العالم، فهي تحت هذه الممالك الأربع، ومنها انشَعَبَتْ كلُّها.

ومِلْكة الإسلام، التي هي الرّابعة، قد علَتْ عليها؛ كما قال: "إنّ الرَّابِعة تتفَاضَلُ على المملكاتِ، وتملكُ الأرض كلّها، وتدوسُها، وتدُقُّها؛ وينالُ المُلْكَ، والسّلطان العظيمَ، والعظمة التي تحت السّماء، والشّعب الظّاهرَ؛ مُلْكه دائمٌ إلى الأبد؛ وله يتعبّدُ كلّ سلطانٍ ويُطيعُ".

فهذه المِلْكة الرّابعة هي مملكة الإسلام؛ وقد دَاست الأرض، ودقّتها، وقهرت كلّ شريعةٍ، وكسّرت الأصنام، وتعبّد لها كلُّ سلطانٍ؛ وهي دائمة إلى القيامة.

والذي رآه على سَحابِ السّماء كهَيْئَةِ إنسانٍ وقُدِّمَ إلى عتيق الأيّام، وخوَّلَهُ المُلْكْ والسّلطانَ الكرامةَ، وأن يتعبّد لهُ جميعُ الشُّعوب والأمم واللّغات، وسلطانه دائمٌ إلى الأبد، ومُلْكُهُ لا يتغيّرُ، هو محمّد -صلّى الله عليه وعلى آله-؛ لأنّ شريعته قد قهرتْ جميع الشّرائع، وسلْطانه دائم إلى الأبد.

فهذا هو كتاب دانيال، وهو في أيدي أهل الكتاب، يقرأونه ويدرسونه، ولا يُنكرونه؛ ولكن قد عَمِيَتْ قلوبهم عن هذا الأمر الواضح؛ وهذا أقوى الدّلالات على نُبوّةِ مُحَمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم-، وعلى سائر النّبواتِ، وهذا ما عاب به الملحِد.

وإنّما كانت رؤيا أراها الله دانيالَ في نوْمه، وصحّت كما ترى؛ ولكنّ الملحِد قصَد إلى موضع التّشنيع، وذكر ألْفاظًا شنّع بها، ولم يعْرف القصّة بعيْنها؛ وإن كان قد سمعها بكاملها، فقد حبل تأويلها، وكتم ذلك عنادًا منه وكُفرًا.

وهذا حجّة عليه في إثبات النّبوّة أكيدة، لا يدفعها إلاّ مُباهِتٌ، ولا ينكرها إلاّ معانِدٌ.

وحديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، الذي طعَن عليه الملحِد، هو رؤيا، كما قد ذكرنا؛ وهو مُشاكِلٌ لرؤيا دانيال ولرؤيا إشعياء، في رؤية الله -عزّ وجلّ-؛ وليس ذلك بمُنكَر، ولا فيه مطْعن، ولا حجّة للمُلحِد.

الفصل الخامس
إنّ أهل الشّرائع إذا طُلبوا بالدّليل على دعاويهم، شتموا، وغضِبوا، وهدروا دَمَ من يطالِبهم

وأمّا قوله: إنّ أهل الشّرائع إذا طُلبوا بالدّليل على دعاويهم، شتموا، وغضِبوا، وهدروا دَمَ من يطالِبهم؛ فمن أجل ذلك، انْدفن الحقّ أشدّ انْدفان، وانْكتم أشدّ انْكتام.

فإنّا نقول: لا تخلو[1] كلّ أمّة من أخلاط النّاس، ولا يكملون قاطبة في العقْل، والفهْم، والمعْرفة، والحلْم. وليس يجوز أن تطالب الأمّة كلّها أنّ يكونوا تامّين في هذا الخصال، مع كثرة عددهم الذي لا يحصيه إلاّ الله –عزّ وجلّ–؛ لأنّ العالم قد امتلأ من أهل الشّرائع، وهم مُجبَلون على طبائع مُختلِفة وأخلاق شتّى.

ففيهم الكامل والنّاقص، والعالم والجاهل، والسّفيه والحليم، والعاقل والأحْمق؛ بل أهل العقل، والعِلم، والحِلم، والمعرفة هم الأقلّون عددًا في كلّ شريعة؛ واشتملتْ الشّرائع على هذه الطّبقات من النّاس، كلّ تفاوت آرائها ومذاهبها؛ وليس في رسْم الشّرائع أن لا يقبل إلاّ الكامل العاقلُ، الدّيّن، اللّبيبُ، وأن يطرد عنها مَن نقص عن هذه المرَاتِب؛ ولا تُوجِب الدّيانةُ ذلك، بل يُقْبَلُون على مراتبهم، ويُعَلّمون ما يحتاجون إليه من أمْر دينهم[2]، ويؤمرون، ويُنْهون، ويتراضون؛ ثُمّ حسابهم على الله –عزّ وجلّ–، يجازي كلاًّ بعمله، وعلى مقدار قبول الأمْر والنّهي، وسعْيه لأمرِ معاده؛ إذ كان الله –عزّ وجلّ– يستعبد الأنام على مقدار عُقولهم، ووُسعهم، وطَاقتهم؛ ثمّ هو أعْلَم بما يستوْجِبون من الثّواب والعقاب، وإنّه عليم بذات الصّدور؛ كما أمَر به رسوله محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم–، وسنّه له في القرآن، فقال –تبارك اسْمه–: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾[3]، وقال: ﴿ولاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ

---

[1] في الأصل: **تخلوا**.

[2] في الأصل: **دينه**.

[3] سورة الأنعام (6)، الآية 103.

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بُالغُدَاةِ والعَشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالمين﴾[1].

هكذا جرتْ السّنّة فيمَن تقدّم من الأنبياء، كما قال الله –عزّ وجلّ– في قصّة نُوحٍ (ع) لما عيّره قوْمه باتّباعه، وقالوا له: ﴿أنُؤْمِنُ لك واتّبَعَكَ الأرْذَلُونَ﴾[2]، قال لهم: ﴿وما عِلْمِي بِما كانوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابَهُم إلاّ على ربّي لو تشعرون ومَا أنَا بطارِدِ المؤْمِنِين﴾[3]؛ فقد دَلّ أنّهم لم يطردوا أتباعهم، وإن قلّت معرفَتُهم، وضعفت عقولُهم؛ بل علّموهم وبلّغُوا رسالات الله، ووَكَّلُوا أمْرَهُم إلى الله. فاشْتملتْ الشّرائع على طبقات النّاس.

وليس فِعْلُ السُّفَهَاءِ، الذين يُسيئون آدابَهم، بحجّة للمُلحِد على العلماء وذوِي الألباب. فإنّ أهل العلم والمعرفة لا يدفعون النّظر، ولا يَكِيعُونَ عَنِ الحُجَجِ والبراهينِ؛ ولكنَّ المُلْحِدَ أراد أن يستظهر بهذه الدّعاوى، ويحتجّ بما لا حجّة له في إبطال النّبوّة.

ولو وُجِد الملحِد على اعتقاده وأصْل مقالته أتباعًا يكون لهم أدْنى عددٍ، لكانوا لا يخلون من هذه الأخلاق التي قَدْ جُبِلَ عليها عوامُّ النّاس: لأنّ الجميع، إذا كَثُرَ، لم يخْل من هذه الطّبقات؛ ولكنَّ أصابعه. ومع ذلك، فقد ماتت مقالتُه قبل موْته؛ إذ كان الباطل لا قِوام له، ولا ثبات؛ كما قال الله –تعالى–: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَة اجتُثّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لها مِنْ قرار﴾[4].

---

[1] سورة الأنعام (6)، الآية 52.

[2] سورة الشّعراء (26)، الآية 111.

[3] سورة هود (11)، الآية 29.

[4] سورة إبراهيم (14)، الآية 26.

الفصل السادس
قوله: اغترّوا بطول لحى التّيوس...

وأمّا قوله: اغْترُّوا بطول لِحَى التّيوس، الذين يمزّقون حلوقهم بالزّور والبهْتان، ورِواياتِ الأخبار المتناقضة[1] التي ذكرها؛ وأنّهم اغترّوا بكثرة الحُمقاء المجْتمِعين حوْلهم من ضعفاء الرّجال والنّساء والصّبيان، وطول المدّة حتّى صار طبعًا وعادة؛ وأنّهم يفْعلون ذلك ليبلغوا مبْلغ رؤسائهم التّيوس؛ فليس في هذا الكلام فائدة ولا حُجَّة؛ بل هو جنسٌ من الحُمق والسّفاهة.

ولوْ شئْنا لقابَلْنَاه بمثله، وطوّلنا القول بصفتِه وصِفَة أمثاله من الملحِدين، الذين هم على مِثل أخلاقِ القردةِ والخنازير؛ ولكنّا نكْره أن نجريَ مَجْراه في باب السّفاهة والحمْق، فنكون قد نُهينا عن شيءٍ وآتيناه؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتنْسون أنفسكم﴾[2].

ولكنّا نقول: لَولاَ هذه القُوّةُ التي هي في الشّرائع وفي رُسومِ الأنْبياء وكلامِهم، التي صدّرتْ أَصحابَ اللّحي في هذه المجالس، لَكان عيْشُ الكِلاب أهْنأ مِنْ عيش الملحِدين. ولكنّ تلك القوّة هي التي أقرّت رُؤوسهم على كواهلها، وحقنت دِماءَهم في أُهُبِهَا.

فإن قال قائلٌ: إنّ قَوْلَنَا له: "الملحِد" هو من باب السّفاهة.

قلنا: ليس كذلك: لأنّ الإنسانَ يكون مُلحِدًا، ولا يكون تيْسًا.

---

[1] في الأصل: **المتناقظة**.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 44.

فإذا سمّى أحدُهم الآخر: تيسًا، قد سبَّهُ. وإذا سمّاه: مُلحِدًا، وكان مُلحِدًا، فلم يسُبّهُ؛ ولكن نسَبَهُ إلى مقالته؛ كما يُقالُ: مُسْلِمٌ، ويَهوديٌّ، ونَصْرَانيٌّ، ومجوسيٌّ، وديصانيٌّ[1]، ومنّانيٌّ، وغيرُ ذلك.

فكلّ إنسانٍ يُدْعَى بما يعْتقده؛ وعلى هذه الجهةِ، قلنا: "مُلحِد".

وإن قال: إنّا ذكرْنا القِرْدَةَ والخَنَازير.

قلْنا: أليس هذا المِقْدَارُ يستوْجبُ من الجواب هذا المِقْدَار...؟ حين أسبُّ أعلام الشّريعة ومشايخها ابتداءً؟

ولا عيْب علينا إذا كان الجّواب هذا المقدار، إلاّ أن نُعاتَب على التّقْصير والمحاباةِ، قصدًا منّا للاقتِصارِ، وتَرَكًا لِلتّطويل، واجتنابًا للسّفَاهة؛ ونسْتغفر الله من ذلك.

---

[1] مفرد ديصانيّة. هم أتباع رجل اسمه ديصان، سمّي باسم نهر وُلد عليه قبل ماني. وهم يقولون كالمانويّة بالنّور والظّلمة. والفرق بينهم وبين المانويّة أنّ المانويّة يقولون: إنّ النّور والظّلمة حيّان، والدّيصانيّة يقولون: إنّ النّور حيّ والظّلمة ميّتة. وحول اختلاط النّور بالظّلمة اختلفت الدّيصانيّة فرقتين: فرقة زعمت أنّ النّور خالط الظّلمة باختيار منه ليصلحها، فلمّا حصل فيها ورام الخروج عنها، امتنع ذلك عليه. وفرقة زعمت أنّ النّور أراد أن يرفع الظّلمة عنه، لما أحسّ بخشونتها ونتنها، شابكها بغير اختيار... إلخ. وقد نسب ابن النّديم لديصان من الكتب: *النّور والظّلمة*، و*روحانيّة الحقّ*، و*المتحرّك والجماد*...

انظر: الشّهرستاني، (طبعة كيلاني) ج1/ص250، و(طبعة بدران) ج1/ص230؛ *المنية والأمل*، ص63؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص194؛ *الفهرست*، ص402.

الفصل السابع
قوله: انْدفن الحقُّ أشدَّ انْدِفَانٍ وانكتم أشدَّ انْكتام...!

وأمّا قوله: انْدفن الحقُّ أشدَّ انْدِفَانٍ وانكتم أشدَّ انْكتام، فإن كان هذا الحقّ الذي انْدفَنَ وانْكتم، هو النّظر في أصول هؤلاء الضّلاّل الذين تشبّهوا بالفلاسفةِ المحِقِّين، حتّى قبّحُوا أمرَهُم عند العامّة بوساوِسِهم وأباطيلهم التي تدْعو إلى الإلْحاد، فإنّ تلك ظاهرةٌ مكشوفة مبْذولة[1] لكلّ حاذق وقاذف؛ وهي غير مُنْدَفِنَة ولا مكْتومة؛ واخْتلافاتهم وقوانينُهم المتناقضة غير معْدومةٍ؛ ولكن ليس فيها برهانٌ واضحٌ تَقَبَلُهُ العُقُولُ، ولا قوّةٌ كَامِنَةٌ فَتَجْتَذِبُ القلوب. والرّاغبون فيها، على مِقْدار قوّة ذلك الكلام.

وليْس هو كقوّة كلامِ الأنبياء (ع) والكتُبِ المنزَّلَةِ التي قد جذبت قلوب الخلائق من الخاصّ والعامّ، والعالم والجَاهِلِ؛ وكثيرٌ ممَّن قَبِلَ كلام الأنبياء والكتُب المنزَّلة، لا يعْرفون ما فيها؛ ولكنّ تلك القوّة جمعت الأنفس على محبّتها؛ حتّى جعلوها شِعَارَهُم ودثارهم، وحلّت في قلوبهم، وجذبتها إلى قبول ذلك، كما تجْذِبُ القوّة التي في حجر المغناطيس الحديد.

فكذلك في الكتب المنزَّلة، قوّة كامنة مُستتِرة[2] فيها، تجذب القلوب؛ حتّى قد صارت كتب الأنبياء (ع) مِثل الطّلسمات في العالم.

وسوْف نشرحُ هذا الباب في موضعه، ونذكر في جواب قول الملحِد في باب الإلف والعادةِ ما يجبُ إن شاء الله –تعالى–.

---

[1] في الأصل: **مبذوله**.

[2] في الأصل: **مستسرة**.

الفصل الثّامن
قوله في الضّعفاء من الرّجال والنّساء...!

وأمّا قوله في الضُّعَفَاءِ مِنَ الرّجالِ والنّساءِ والصّبيانِ، واجتماعهم على رؤساءِ أهلِ المِلّةِ، فإنّ هذه الطّبقاتِ من النّاسِ، إن كانت أنفُسَهُم لا تتخَلّصُ من كدورة هذا العالم، حتّى ينظروا في الفلسفة، على ما ادّعاهُ الملحِد، فإنّ الحكيم الرّحيم قد ظلمهم –عزّ تعالى عن ذلك– حين لم يرْزقهم عقولاً تامّة قويّة تضبطُ الفلسفةَ، وتقْدر على النّظر فيها، حتّى تتخلّص من كدورة هذا العالم. ولا يجُوز في حكْمته وعِلْمِه أن يعين هذه الأنفس على أن تتجبّل في هذا العالم.

وتتّحد بهذه الأجساد الكَدِرَةِ، وتقَع في هذَا البلاء العظيم، فيلْزمون النّظر في أُمورٍ يعجزون عنها، ويكلّفون طَلَبَ ما لا يُطيقونَهُ. فإذا لم يفْعلوا، تركَهم يكرّون في هذا العالم، ويشقّون فيه، على أصْل مقالة الملحِد.

وهذا ظُلْمٌ، وتعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا؛ لأنّا نَجِدُ دهماء النّاس في هذه الأقاليم التي نناشدها، وكافّةَ الأُمَمِ في سائر الأقاليم والجزائر من أهل الألسنة المختلفةِ، لا يدْرون ما الفلسفة، ولا يعْرفون كيفيّتها وحقيقتها، فضلاً عن النّظر فيها؛ إلاّ قليلاً مِنَ النَّاس من أهْلِ اللُّغَةِ العربيّة أو اليونانيّة، ولو عدّوا لسَهل تعْدادُهم؛ وسائر الخلائق، سبيلهم ما قد ذكرنا، ونعتدّ في ذلك بما نشاهدُه.

فأيْن الفلسفة بلسان الفُرْسِ، وبِلُغاتها المختلفة في بُلْدانها؟ وهكذا سبيل سائر الأُمَم.

فأمّا النّساء والصّغارُ مِنَ النَّاس الذين لم يبلُغُوا الاستعبادَ، والضُّعَفَاءِ من البالغين في جميع الأمصار والمدنِ فيما قَرُبَ وَبَعُدَ، فَأَنْتَ يائسٌ مُنْقَطِعُ الرّجاء أن يرتاضوا بالفلْسفة، أو تبلغَها عقولُهم؛ لأنّا لا نجِدُ فيلَسوفَاتٍ، ولا وِلدانًا، ولا ضعفاءَ مِنَ النّاس متفلسفين؛ والموتُ يجرى عليهم.

وحُكْمُ الأُمم التي في أطْراف الأرْض مِنْ أصنافِ العَجَمِ مثل الدَّيْلَمْ، والتُّرْكِ، والزّنج، والحَبَشَةِ، وسائر الأقاليم، حُكْمُ ما نُشاهدُه.

فإن كان الحكيم الرّحيم حرَمهم ذلك، ومنَعهم تلك القوّة، وبَخِلَ عليهم بتلك الآلة، حتّى عجِزُوا عن النّظر في الفلسفة؛ ثمّ إذا ماتوا، يُعِينُهم على التّجبّل في هذا العالم والعوْد إليه على مذْهب الملحِد، أنّهم يكرّون فيه أبدًا، حتّى ينظروا في الفلسفة، فتصْفو أنفسهم.

فإنّ هذا لَظُلْمٌ غيرُ جائز في حكمة الحكيم ورحمة الرّحيم، حين لم يلهمْهم كافّة ما يحتاجون إليه في أمْر دِينهم ودُنياهم طبْعًا وفطْنة، وقد اخْتار لهم أعْسَرَ الأُمور وحرَمهم أيْسرها.

وهو خِلافُ ما ادّعاه الملحِد، أنّ الحكيم اختار لهم أيسَرَ الأمور، ولم يكلّفهم الأعسر، وألْهَمهم هذه الأسبابَ طبعًا. وزعَم أنّه لا يجوز في حكمة الحكيم النّاظر لخلْقه، إذا وجد السّبيل إلى أيْسر الأمور، أن يكلّفه عباده، فيدع ذلك ويكلّفهم الأعْسر، وألْهَمَهُم هذه الأسبابَ طَبْعًا. وزعَم أنّه لا يجوز في حكمة الحكيم النّاظِرِ لخلْقِهِ، إذا وُجِد السّبيل إلى أيْسر الأمور، أن يكلّفه عباده، فيدع ذلك ويكلّفهم الأعْسر؛ يُريدُ بذلك أنّه لم يكلّفهم طاعة الأنبياء والرّسل، فإنّها أعْسر الأمور؛ ولكن ألْهمهم ما يحتاجون إليه، ليُدركوه بطباعهم.

فأيْن ما ألْهم هؤلاء الضُّعفاء من الرّجال، والنّساء، والولدان، وهذه الأُمم التي ذكرْناها؟

أَوَ ليس ما يدين به أهل الشّريعة أوْلى بحكمة الحكيم ورحْمة الرّحيم، وأيْسر الأمور التي اختارها لبرّيته؟ لأنّ أهل الشّريعةِ قالوا: إنّ الخلائق كلّهم مُسْتَعْبَدونَ، مأمورنَ، مَنهيّون، مُجازون بأعْمالهم على قدْر نيّاتهم واجتهادهم؛ وإنّهم لا يُكلَّفون ما لا يُطيقون؛ وإنّ الضّعفاء من الرّجال، والنّساء، والولدان، الذين ليس في وسْعهم الطّلب والبحثُ، لمْ يُكلَّفوا ذلك؛ بل كلّفه العقلاءُ الأقوياءُ؛ فإذا قصّروا، عوقِبوا؛ وإذا اجْتهدوا، أُثيبُوا؛ وإذا عجزوا، فقد وَعَدَ الله أن يعفُوَ عنهم.

وبهذا نطَق القرآنُ، قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿إنّ الذينَ توفَّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قَالوا فِيمَ كُنتمْ قالوا كنّا مُسْتَضْعِفِينَ في الأرضِ قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله واسعة فتُهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا إلاّ المسْتضْعفينَ من الرِّجَالِ والنّساء والوِلدان لا يستطِيعون حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سبيلا فَأُولئكَ عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُم وَكَانَ اللهُ عَفُوّا غَفُورًا﴾[1].

فهذا شرْطه –عزّ وجلّ– على بريّته ولبريّته على لسان رسوله محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– الذي جعله سببًا بينه وبين خلْقه.

وهذا أشْبه بحكْمته ورحْمته، وأوْلى به؛ وهو أيْسَرُ الأمور عليهم مِنَ الذي ادّعاه الملحِد.

وإذا كان الأمْر هكذا، فإنّ الضُّعفَاءَ من الرّجال، والنّساء، والولدان هُمْ معذورون في اجتماعهم على رؤساء أهل الملّة، والأخْذ عنْهم مقدار ما يُطيقون ممّا يرجون به خلاصهم من وِبَالِ هذا العالم؛ وجائزٌ لهم التّقليد إذا لم يستطيعوا حيلَةً، ولم يهتدوا سبيلاً.

وتقْليدهم لهؤلاءِ الرّؤساء أوْلى من تقليدهم للمتفلسفين؛ لأنّ الرّؤساء من أهل الشّرائع يرغَبون في الثّواب العظيم على العمل الصّالح، ويرْهبون من العذاب الأليم على الظُّلم والفساد؛ والرّؤساء المتفلْسِفون من أهْل الإلْحاد، فلا رغْبة عندهم ولا رهبة.

فأيّ الأمْريْن أوْلَى بالاحتياط: الإقتداء برؤساء أهل الشّريعة، والأخْذ بالحزم، وتقليدهم إيّاهم؛ أم الإقتداء بالملحِدين، وتقليدهم في إهْمال الأمر؟! وأيّ الأمريْن أشْبه بحكمة الحكيم ورحمة الرّحيم: ما ادّعاه الملحِد، أم ما ادّعاه أهل الشّريعة؟!

كلاّ، لا وزْر للمُلحِد من هذا، ولا مَحِيصَ؛ وليس في احتجاجه باجتماع الضّعفاء من الرّجال، والنّساء، والوِلْدان على رؤساء أهل الملّة برْهان على إبطال النّبوّة.

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 99.

الباب الثالث

الفصل الأوّل
قوله: الآن ننظر في كلام القوم
وتناقضه

وأمّا قوله:

الآن ننْظر في كلام القوْم وتناقضه -يعني بذلك: كلام الأنبياء (ع)- وقال: زعَم عيسى أنّه ابنُ الله، وزعَم موسى أنّه لا ابن له، وزعَم محمّد أنّه مخلوقٌ كسائر النّاس؛ وماني[1] وزرهِشْتُ[2] خالَفَا موسى وعيسى ومحمّدًا في القدم، وكَوْنِ العَالَمِ، وسبَب الخيْر

---

[1] في القرن الثالث أصبح ماني مؤسسا للديانة المانيشية.نشأت هذه الديانة في الشرق الأوسط وانتشرت غربا حتّى المحيط الأطلسي وشرقا حتى المحيط الهادي وظل هذا الدين منتشرا أكثر من ألف سنة كانت هذه الديانة خليطا من البوذية والمسيحية والزّرادتشيّة لكن هذه الديانة أعلنت أنّها تلقّت وحيا بمعان أخرى لم تعرفها هذه الديانات الأخرى. وعلى الرغم من أنّ هذه الديانة نقلت الكثير من المسيحية والبوذية إلاّ أنّ أفكار زرادشت قد أثّرت فيها أكبر الأثر وكان من رأي ماني أنّه لا يوجد آله واحد إنّما هو صراع مستمر بين اثنين من الآلهة احدهما هو الشر والآخر هو الخير وهذا المعني قريب من معني الخير والشر في الديانة المسيحية لكن ماني كان يري أنّ الشرّ لا يقل خطورة عن الخير فكلاهما علي درجة واحدة من القدرة وعلي ذلك فمادام الشر قويا كالخير انحلت المشكلة التي واجهت الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية وهى كيف يكون الله خيرت مطلقًا ويصنع الشر ان الديانة المانيشيّة ترى أنّ الخير والشر توأمان وجدا معا ليتصارعا معا وإلى الأبد. ومادام الخير والشرّ متلازمين في الجسم الإنساني تلازم الروح والجسم فلا يصح أن يساعد الإنسان علي التكاثر لان التكاثر معناه إضافة أجسام جديدة وأرواح جديدة ولذلك حرم العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة وحرم أكل اللحوم وشرب النبيذ ولهذه الأسباب كان صعبا على عامّة النّاس أن يؤمنوا بهذه الدّيانة إنّما فقط يؤمن بها الصفوة أمّا المؤمنون العاديون ويسمونهم المستمعون فلهم عشيقات وهؤلاء العشيقات يردن الجنس والطعام والشراب وهناك الرهبان والكهنة وهؤلاء ممنوعون منعا باتا من الزواج واكل اللحوم وشرب النبيذ أمّا الجنة فمن نصيب هؤلاء الصفوة. ولد مانى سنة 216 في العراق

والشرّ؛ وماني خالف زَرْهِشْتُ في الكونيْن وعِلَلِهِمَا؛ ومحمّد زعَم أنّ المسيح لم يُقْتَلْ،

وكان في ذلك الوقت جزءا من الإمبراطوريّة الفارسيّة وكان ماني فارسيا ومنحدرا من أسرة ملكية وأكثر الفارسيين في زمانه كانوا يؤمنون برازدشت أمّا هو فقد نشا في أسرة مسيحية وكانت له رؤية دينيّة وهو في الثانية عشرة وكان يبشر بالديانة الجديدة ولم يوفق في أول الأمر في بلده ولذلك رحل إلى الهند ومصر وهناك جعل أحد الحكام يؤمن به ثم عاد إلى فارس في سنة 242 حيث استمع إليه الملك شابور الأول وسمح له بان يدعو إلى ديانتة وظل ماني يدعو إلي ديانته حتى عصر هرمز الأول حوالي ثلاثين عاما إلى أن ثار علية كهنة الزرادتشية التي كانت الدّين الرّسمى للامبراطورية الفارسية أعدم سنة /٢٧٦/ميلادي على يد الملك الفارسي بهرام في، جنديسابور بالإمبراطورية السّاسانيّة وهنالك كتابات تصفه لماني في تجواله، يرتدي سروالا واسعا أصفر اللون وعباءة زرقاء وبيده عصا طويلة من الأبانوس، متأبطا على الدوام كتاب خطه بنفسه بالغة البابلية (وهي الأراميّة المشرقية في ذلك الوقت) معظم كتبه كانت بالسريانية بالإضافة إلى كتاب في مدح شابور الأوّل بالفارسية القديمة. كتب عنه الروائي أمين معلوف رواية حدائق النّور التي تحكي عن حياته.

[2] أو زردشت. وعاش زردشت في منتصف القرن السّابع قبل المسيح، وتوفّي على الأرجح سنة 582 ق. م. وُلد في أذربيجان، وولادته تشبه إلى حدّ بعيد ولادة المسيح. انتقل إلى فلسطين، واستمع إلى بعض أنبياء بني إسرائيل من تلاميذ النّبيّ أرميا، ثمّ عاد إلى أذربيجان، ولم تطمئنّ نفسه إلى اليهوديّة، فبدأ يدرس الأديان الفارسيّة القديمة. وحين بلغ ثلاثين سنة زعموا أنّه بعثه الله نبيّا ورسولا إلى الخلق. ونُسبت إليه معجزات كإحياء الموتى وردّ البصر. وأهمّ كتاب نُسب إليه هو *الأبستا* (أو *الأفستا*) وشرحه *التّزند أفستا*. ويظهر أنّ مذهبه الثّنوي في إرجاع أصل العلم إلى النّور والظّلمة يعود إلى مبدإ خلقي الخير والشرّ. فمذهبه الوجودي متّصل بالمشكلة الخلقيّة الأنطولوجيّة. فمن امتزاج النّور بالظّلمة وُجدت الأشياء وحدثت الصّور من التّراكيب المختلفة. وصراع النّور والظّلمة ينتهي بتغلّب النّور، وتخلّص الخير إلى عالمه وانحطاط الشرّ إلى عالمه. وقد أورد الشّهرستاني محاورات بين زرادشت وأومرزد، وفيه نزعة تشبيهيّة وعضْويّة صريحة.

حول ترجمته راجع: *الملل* للشّهرستاني (طبعة كيلاني) ج1/ص236 و(طبعة بدران)، ج1/ص216؛ *التّبصير*، ص105؛ *المنية*، ص64؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص191–ص192؛ *قاموس الفلسفة*، ص343؛ *مروج الذّهب*، ج1/ص229–ص230.

واليهودُ[1] والنّصارى[2] تُنْكِرِ ذلك، وتزْعم أنّه قُتِلَ وصُلِبَ.

---

[1] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى –عليه السّلام–: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى –عليه السّلام– وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى –عليه السّلام– وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[2] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون –كالزّمخشري– إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

وذكَر هذه الأبوابَ وخلطَها بِحَشْوٍ كبيرٍ من دعاوَى المجوس[1] والثَّنْوِيَّةِ[2] وبدَعمهم؛ ثمّ قال: إنّ اليهود قالت إنّ موسى قال: إنّ الله قديرٌ غيرُ مُؤَلَّفٍ ولا مصْنُوعٍ؛ وإنّه لا تنْفعه المنافع، ولا تضرُّهُ المضارُّ؛ وإنّ في التّوراة: أن يضَع الشَّحْمُ على النّار ليشُمَّ الرّيحَ مِنْهُ الربُّ؛ وإنَّ في التّوراة: أنّ قديم الأيّام في صورة شيْخ أبْيض الرّأسِ واللّحْيَةِ؛ وفيها: "مَا لَكُمْ تُقَرَّبُونَ إلَيَّ كلَّ عَرْجَاءَ وَعَوْرَاء؟! أتُرَاكُمْ لو أهْدَيْتُمْ ذلك إلى أصْدقائكم قَبلوه منْكم إلاّ صحيحًا؟!"؛ وفيها: "اتّخِذُوا إليَّ بِساطًا من أُبْرَيْسمْ دقيق الصّنعة، وخِوانًا من خَشَبِ الشّمشارِ".

ثمّ قال الملحِد: هذا، بكلام أهل الفاقة أشبهُ مِنْهُ بِكَلامِ الغنيّ الحميد. وذكَر أشياء كثيرة ممّا هي في التّوراة، وعابها.

وقال: زَعَمَت النّصارى أنّ عيسى قديمٌ غير مَرْبُوبٍ، وأنّهُ قال: "جئتُ لأتمّم التّوراة"؛ ثمّ نسخ شرائعها، وبدّل قوانينها وأحكامها؛ وأنّ النّصارى زعمتْ أنّه أبٌ، وابنٌ، ورُوحُ القُدُس.

وذكَرَ ما تدّعيه المجوسُ عن زَرْهِشْتَ في باب أهرِمن وارمزد؛ وما ادّعاه ماني: أنّ الكلمةَ انفَصَلت من الأب، ومزَّقت الشّياطين، وقتلَت؛ وأنّ السّماء من جلُود الشّياطين؛ وأنّ الرّعد جرجرة العفاريت؛ وأنّ الزّلزة تحرّك الشّياطين تحت الأرْض؛ وأنّ ماني رفَع سابور

---

[1] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين: أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني محدث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[2] الفرق بين الثّنويّة والمجوس أنّهم –أي الثّنويّة– يقولون بقدم الأصليْن، وأنّ النّور والظّلمة عندهم أزليّان.

الذي عمل له "الشّابرقان" في الجوّ، وأخْفاه حينًا هناك؛ وأنّ مانيكان يُختطف من بين أيْديهم بروحه يحاذي به عيْن الشّمس، فربّما مكَث ساعة، وربّما مكَث أيّامًا.

فأوْرد مثل هذه المحالات التي ابْتَدعها المبتدِعون في المجوسيّة والمنّانيّة[1]، وخلَطها بما في الكتب المنزَّلة وآثار الأنبياء، وأضافها إلى رُسل الله الطاّهرين الذين هم بَراءٌ من كلّ ذلك.

وزعَم أنّ هذا من رسُومهم، وأنّ هذا اختلافٌ وتناقضٌ في كلامهم؛ واحْتجّ بذلك في دفْع النّبوّة، وأراد أن يستظْهر بهذه المخاريق والخرافات، ويقَوّي كلامه بهذه الأباطيل والسّخافات.

ولَعمري قد افْتقر مَن أراد أن يطفئ نور الله بالمحالات التي تدّعيها المنّانيّة، والزّنادقة، وغيرهم من الضُّلاّل في كلّ أمّة: ﴿واللهُ متمُّ نورِهِ ولوْ كَرِهَ الكافرونَ﴾[2].

فنقول في جوابه:

---

[1] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك –أو فتّق–، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من "العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولاً للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.

انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

[2] سورة الصفّ (61)، الآية 8.

أمّا الذي ذكَره عن المجوس والمنّانيّة، فإنّ المُلحِد قصَد في ذلك التّشْنيع على أهْل المِلل؛ وليست له حجّة في إيراد تلك المحالات التي ابْتدعها المنّانيّة والمجوس على إبْطال النّبوّة؛ فإنّ تلك بدع الضّلال، مثلها يُنْسَب إلى الفلسفة؛ وسنذْكره في موْضعه –إن شاء الله تعالى–.

فأمّا الذي ذكَره أنّه في التّوراة، وفي الإنجيل، وفي غيرهما من الكتب المنزَّلة، وما ادّعاه من التّناقض في القرآن؛ فإنّ أكثر ذلك أمثال مضروبة، منها ما معانيها واضحة، ومنها مُسْتغلَقة؛ وليس هناك اختلافٌ ولا تناقضٌ؛ وهو كلّه حقٌّ وصدقٌ؛ وإنّ الأنبياء لم يخْتلفوا.

وكلامُهم الذي يقدّره الجهّال أنّه متناقضٌ، فإنّه إن اختلفت ألْفاضه، فإنّ المعاني فيه متّفِقة؛ لأنّ الأنبياء والحُكماء كان أكثر كلامهم مرموزًا، وكانوا يخاطبون الأمم بالحكمة، ويضربون الأمثال؛ فيسْمعها الخاصّ والعامّ؛ فيعْقل ذلك عنهم العُلماء والخواصُّ الذين كانوا يقفون على أسرار الأنْبياء (ع)، ثمّ يعلِّمون المسْتحقِّين من النّاس؛ ليكون في النّاس عالِمٌ ومُتعلِّمٌ، وخاصٌّ وعامٌّ؛ وليكون الامْتحان قائمًا فيهم بذلك.

ومَن نظر في ظاهر ألْفاظهم، ولم يعْرف معانيها، حكَم فيه بالتّناقض والاخْتلاف.

هكذا كانت رُسُوم الأنبياء (ع)، وهو الأصْل الصّحيح الذي كان يعْتقده العُلماء في كلّ ملّة، مَن مضَى منهم في الشّرائع القديمة، ومَن غبر في هذه الأمّة.

وبهذا نطَقت الكتب المنزَّلة، ودلّت عليه جميع كتب الحكماء، وبه أخْبر العلماء.

وهذه شريطة موجودة أيضًا في كتب الفلاسفة الحكماء المحقّين؛ ففيها كلامٌ مُغلَقٌ، يحْتاج المتعلّم فيه إلى مَن يحلّه له، حتّى يصل إلى معْرفته.

وَمَنْ جهله، وقلّ فيه برأيه، أخْطأ فيه؛ حتّى اختلفوا، وتقوّلوا على القدماء، وطعنوا عليهم في مذاهبهم؛ كما اختلفوا في أمر أرسطاطاليس[1]؛ فمنهم مَن قضي عليه في

---

[1] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر،

كلامه أنّه مُوحِّد، وقضَى آخرون بغيْر ذلك؛ هذا حين جهلوا رموز كلامه.

فسبيل الكتب المنزَّلة، وكلام الأنبياء (ع)، والأخبار التي رُويت عنهم على ما ذكرنا.

ويجب أن ينْظر في شأن هذه الكتب المنزَّلة وأخبار الأنبياء (ع) التي ادّعى الملحِد أنّها مستحيلة، وأنّ فيها تناقُضًا؛ فإنَّ مَن كان تُنْسَب إليه هذه الأخبار صادقًا عاقلاً مُمَيَّزًا عند أهل زمانه، فالأمْر فيه على ما ذكرنا.

وإن كان مَن تُنْسَبُ إليه هذه الكتب وتُسْنَدُ إليه هذه الأخبار كذوبًا مجنونًا معتوهًا عند أهل زمانه لا يَعْقِلُ ما يقول، جاز أن يُحْكَم فيها بالتّناقض والكذب، على حسب[1] ما ادَّعى الملحِد؛ لأنّه لا يجوز أن يورِد العاقِل المميّز الكامل كلامًا متناقضًا وقولاً مستحيلاً يخالف بعْضه بعضًا، ولا يجوز أن يكون عاقلٌ مميّزٌ يشْهد لغيره بالصّدق والنّبوّة، ويزْعم أنّه على مناهجه، وأنّه يريد أن يشيّد بنْيانه، ثمّ ينْقض كلامه ويهْدم بنْيانه؛ مثل ما ادّعاه الملحِد من تناقض كلام الأنبياء، والخلاف من بعضهم على بعض، وهدْم بعْضهم بنْيان بعض.

فإن كان الأئمّة الذين أُخِذت عنهم هذه الكتب، ورُوِيَتْ عنهم هذه الأخبار، مثل: موسى، وعيسى، ومحمّد (ع) معروفين بالجهْل، والغباوة، والحمْق، والجنون، فالقول

فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، ويسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميدس* في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

[1] في الأصل: **حب**.

فيه ما قال الملحِد –ونعوذ بالله أن يكون كذلك–؛ بل الأئمّة الذين يقتدي بهم أصحاب الشّرائع، مثل موسى، وعيسى، ومحمّد، وغيرهم من الأنبياء (ع)، كانوا مشهورين بالكمال، والعقل، والتّمييز، والسّياسة، والجمع لكلّ خُلق محمود؛ وكيف لا يكون كذلك، مع سياستهم للأَنام، وجمعهم إيّاهم على شرائعهم؟!

وكما اتّفَقت الأُمم التي شاهدت محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم– أنّهم وجدوه تامًّا في عقْله، وحلْمه، وأناته، وتدْبيره، وسياسته للخاصّ والعامّ، وكماله في جميع الخصال التي يحْتاج إليها السّائس للبريّة.

فأقرّت قريش أنّهم وجدوه أكْمل أهْل دهْره، وأجْمعهم للخِصال الحميدة؛ وكانت قريش تسمّيه "الصّادق الأمين" قبْل أن قام بالنّبوّة؛ حتّى إنّهم لما اجْتمعوا لبناء البيت، لأنّه كان قد انْتقض بناؤه؛ فحضر من كلّ بطْن من بطون قريش رؤساؤهم، وتعاونوا على بنائه، لكي لا تكون تلك المنقبة لبعضهم دون بعض.

فلمّا أرادوا أن يضعوا[1] الحجر الأسود موْضعه، اختلفوا وتنافسوا في ذلك؛ ثمّ اتّفقوا على محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، وقالوا: "رضينا بحُكْم الأمين". فحضَر (ع)، وأمَر أن يبسط ثوبٌ، ويوضع عليه الحجر؛ وأن يأخذ رئيس كلّ قبيلة طرفًا من الثّوب، ثمّ يرفعوها معًا، ففعلوا؛ ثمّ تناوله هو –صلّى الله عليه وسلّم–، فوضَعه في موْضعه؛ فرضوا[2] بذلك ثقَة منهم به، واعتمادًا على رأيه، وأمانته، وعقله، وصدْقه؛ وبذلك كانوا يعْرفونه، حتّى ظهر بالنّبوّة.

فلمّا ظهر بالنُّبوَّة، وعاب دينهم، وما كانوا يعْبدونه من دون الله، عادوه، ونابذوه، وقالوا: "يا محمّد، إنّا عرفْناك صدوقًا أمينًا، فما هذا الذي قد أتيْتنا به؟!".

---

[1] في الأصل: **يضيعوا**.

[2] في الأصل: **فرفضوا**.

فأنْزل الله –تعالى– في ذلك، فقال: ﴿فإنّهم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ الله يَجْحَدُونَ﴾[1]، أي: لا يجدونك كذّابٌ، ويعْرفونك بالصّدْق؛ ولكن يظْلمون أنفسهم، ويجْحدون الحقّ، ويسْتَكْفون منه.

فإن قال قائل: فلِمَ قالوا له إنّك مجْنون حتّى أنزل الله –عزّ وجلّ–: ﴿ثُمَّ تَوَلُّوا عنهُ وقالوا مُعَلِّمٌ مَجْنُونٌ﴾[2]، وأنْزل قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رسولَهُمْ فهُم لَهُ منكِرون أَم يَقُولُون به جنّة بل جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون﴾[3]؟

قلنا: إنّهم لم يعنوا بهذا أنّه مجْنون معْتوه، ولكنّهم ادّعوا أنّ له تابعًا من الجنّ يعلّمه، وعلى هذا المعْنى قالوا به: جِنَّ؛ لأنّهم لما وجدوا للأشياء التي يُخْبر بها حقيقة من الأمور الغائبة التي كان يذْكرها، ثمّ يجدونها كما يقول، قالوا: "هذا له رِئيّ مِنَ الجِنّ، وتابعٌ يلقي[4] إليه هذه الأمور".

وهكذا قالوا لِمَن تقدّم من الأنبياء، كما ذكر الله في قصّة نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّة فتَرَبَّصُوا بِهِ حتّى حِيْنٍ﴾[5].

---

[1] سورة غافر (40)، الآية 63.

[2] سورة الدخان (44)، الآية 14.

[3] سورة المؤمنون (23)، الآيتان 69–70.

[4] في الأصل: **يلقى**.

[5] سورة المؤمنون (23)، الآية 25.

وفي قصّة موسى (ع) حكاية عن فرعون[1] حين قال: ﴿إِنّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[2]، ثمّ قال على إثر هذه الآية التي أظْهرها من العصا واليد: ﴿إِنَّ هَذَا

---

[1] خلص جمهور المؤرّخين إلى أنّ فرعون المشار إليه في الكتاب العزيز هو رمسيس الثاني. كان ابن الملك سيتي الأول والملكة تويا، وزوجته الملكيّة هي الملكة نفرتاري المحبوبة له، كما كان له عدد من الزوجات الثانويّات ومن ضمنهم زوجته إيزيس نوفرت وماعت حور نفرو رع، والأميرة حاتيّ. وبلغ عدد أبنائه نحو 90 ابنة وابن منهن: بنتاناث ومريت أمن، ستناخت. ومن أبنائه الأمير مرنپتاح الذي خلف والده كملك على عرش مصر. وأخيرًا الأمير خعامواست الذي رمم آثار أجداده. مثل معظم ملوك المصريّين، فقد كان لرمسيس عدة أسماء. أهم اثنين منهم: اسمه الملكي واسمه الأصلي يظهران بالهيروغليفية أعلى إلى اليسار. وتلك الأسماء تُكتب بالعربية كالتالي: وسر معت رع – ستب ان رع، والاسم الثاني : رع مسو – مري أمون، ومعناهما: "قوي رع وماعت، المختار من رع ،ويعني الاسم الثاني بالعربية: روح رع، محبوب أمون". في النّسخة الحيثية من معاهدة السلام المذكورة آنفًا مع حاتّوسيليس الثالث، بإن اسم الملك يظهر كالتّالي: وَشْمُوَارع شَتِبْنَرع رعمَشِشَ مَيْأمَنَ. لان طبعا هذا هو رمسيس. قاد رمسيس الثّاني عدة حملات شمالاً إلى بلاد الشام، وفي معركة قادش الثانية في العام الرابع من حكمه (1274 ق.م.)، قامت القوّات المصرية تحت قيادته بالاشتراك مع قوات مُواتالّيس ملك الحيثيين استمرت لمدة خمسة عشر عاما ولكن لم يتمكن أي من الطرفين هزيمة الطرف الآخر. وبالتالي ففي العام الحادي والعشرين من حكمه (1258 ق.م.)، أبرم رمسيس الثاني معاهدة مع حاتّوسيليس الثالث، وهي أقدم معاهدة سلام في التّاريخ. قاد رمسيس الثاني أيضًا عدة حملات جنوب الشلال الأول إلى بلاد النوبة، وقد أنشأ رمسيس مدينة (بر رعميس) في شرق الدلتا ومنها أدار معاركه مع الحيثيين وقد أدّى البعض أنّه قد اتّخذها عاصمة جديدة للبلاد وهذا بالطبع غير صحيح فلقد كانت عاصمة البلاد في مكانها في طيبة وأعظم ما ترك من معابد وآثار تركها هناك. دفن الملك رمسيس الثاني في وادي الملوك، في المقبرة kv7، إلا أن مومياؤه نُقلت إلى خزانة المومياوات في الدير البحري، حيث اكتُشفت عام 1881م بواسطة جاستون ماسبيرو ونقلت إلى المتحف المصري بالقاهرة بعد خمس سنوات، كان رمسيس يبلغ ارتفاع قامته 170 سم، والفحوص الطبية على موميائه تظهر آثار شعر أحمر أو مخضب، ويعتقد أنه عانى من روماتيزم حاد في المفاصل في سنين عمره الأخيرة، وكذلك عانى من أمراض في اللثة.

[2] سورة الشّعراء (26)، الآية 27.

لَسَحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُمْ من أرضكم بسحرِهِ﴾[1].

فكيْف يجوز أن يعني بقوْله: "مجْنونٌ" أنّه معْتوه، ثمّ يقول إنّه ﴿لَساحرٌ عليمٌ يريدُ أن يخْرجكم من أرْضكم بسحْرِهِ﴾[2]؟ فكيف يكون المجنُون ساحِرًا عليمًا؟!

وكيْف يخاف فرعون من مجْنون أن يخْرجه من أرْضه؟

ولكنّه أراد بقوله: "مجْنونٌ"، أي له رأيٌ من الجنّ؛ لأنّه كان يُخبرهم بأشياء تصحّ، فقالوا هذا من جهة الجنّ. ولما رأوا الآيات، قالوا: هذا سحرٌ. فلم يكن قولهم لمحمّد: مُعلِّمٌ مَجْنونٌ، وبه جِنّة، طعنًا عليه في عقْله، وكماله، وتمام فهْمه، وتمْييزه.

فكيف يجوز أن يظنّوا به الجنون مع الأمور العظيمة الجليلة التي كانت تُرى منه؟!

ألاَ ترَاه يقول -عزّ وجلّ-: ﴿أم لم يَعْرِفوا رَسُولَهُم فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُون﴾[3]، يعني: أم لم يعرفوه بالصّدق والأمانة، فهُم ينْكرون عقله ويتّهمونه بالكَذب؛ وقد عرفوه بالصّدق والأمانة؟!

وقال -عزّ وجلّ- أيضًا: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ ربِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[4]، قوله: ﴿بنعْمة ربّك﴾[5]، كما يقول: ما أنت بحمْد الله بمجْنون.

ثمّ قال على إثْر ذلك: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾[6]، قالوا في تفسيره: الخُلُق العظيم هو القرآن؛ يعني: أنّ الذي تورّده ليس هو من الجنّ، بل هو القرآن العظيم الذي هو وحْيٌ من الله -عزّ وجلّ-.

---

[1] سورة الشّعراء (26)، الآية 35.

[2] سورة الشّعراء (26)، الآيتان 34-35.

[3] سورة المؤمنون (23)، الآية 69.

[4] سورة القلم (68)، الآية 2.

[5] سورة القلم (68)، الآية 2.

[6] سورة ( )، الآية.

فإذا كان الإمام في مثل حال محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- من كماله، وجَمعه للخصال الحميدة كلّها التي تكون في النّاس من الصّدق، والأمانة، والعقل، والحلم، والرّزانة، والوقار، وحسن الخُلُق، والتّواضع، والسّخاء، والوفاء، والشّجاعة، ورقّة القلْب، والتّعطُّف على مَن آمن به وتبعه، والعفْو عمَّن كفَر به وخالَفه عند ظفره به، وغير ذلك من كلّ خصْلة محمودة تكون في النّاس؛ فلا يجوز أن يُتَّهم مَن يكون في مثْل هذه الحال بأنّه يتكلّم بما يعرف غيره فيه التّناقُضُ والاختلاف، ويجْهل هو ما يتكلّم به؛ فإنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- قد كان يجْمع هذه الخصال كلّها.

ونحن نذْكر منها[1] ما هي مشْهورة عنه، ليُعرَف صدْق ما ذكرْناه -إن شاء الله تعالى-.

[1] في الأصل: **منه**.

الفصل الثاني
في حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- المكية

وأمّا الصّدق والأمانة، فقد ذكرنا طرفًا منه: وأنّ قريشًا كانت تسمّيه بـ"الصّادق الأمين"، لثقتهم به، ومعرفتهم إيّاه بالصّدْق قبل ظهوره بالنّبوّة.

وقد ذكرْنا تراضيهم به في باب بناء البيت، وأنّهم اخْتاروه من بينهم أجْمعين، ورضوا بحكمه؛ وهم المعْرفون بأصَالة الرّأي والعُقول الرّصينة من بين جميع العرب.

وأمّا السّخاء، فإنّه كان لا يدَّخر[1] شيئًا، وكان يأخذ من أغنياء أصحابه صَدَقات أموالهم ويفرّقها على فقرائهم، ولا يدّخرها[2]، ولا يقْتني عقارًا؛ والذي كان يصير إليه في سهْمه من الغنائم، وغير ذلك ما يفضل من قوته، كان يشتري به عقارًا يجعله صدقة؛ فقد كان اشترى بساتين، وتصدّق بها؛ وهي معْروفة إلى يومنا هذا.

وكان لا يمْسك يده عن بذْل ما يمْلكه، حتّى رُويَ أنّ سائلاً سأله، ولم يكن يمْلك ما يعطيه، فأعطاه ثوْبه الذي كان عليه. فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةٌ إلى عُنقك ولاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدْ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[3].

وأمّا الحِلْم والعفوُ، فكان أحْلم النّاس.

ولما فتح مكّة، وفيها أعداؤه الذين عادوه، وأخرجوه من داره، وأجْلُوه عن أهله ووَطنه، ولم يدعوا المكْر به، والاحتيال في قتْله، وطلب الغوائل عليه؛ فنادَى في أصحابه، وأمرَهم أن لا يقتلوا أحدًا بعد فتح مكّة إلاّ أربعة نفر، أمَر أن يُقتلوا، ولو وُجدوا تحت

---

[1] في الأصل: **يذخر**.

[2] في الأصل: **يذخر**ها.

[3] سورة الإسراء (17)، الآية 29.

أستار الكعْبة؛ لأنّهم استوْجبوا ذلك بعظائم كانت منهم، وبقتلهم قومًا من المسلمين[1] غيلة، وارتدادهم عن الإسلام.

ثمّ أتاه بعضهم بعدُ تائبًا، فعَفا عنه، وقبل توْبته.

وأخْبارهم مشهورة، تركْنا إطالة القوْل بها.

---

[1] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40-ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله تعالى: (قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله تعالى، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنا حقّا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطًا والإحسان كمالاً، وعلى هذا شمل لفظ المسلمين: النّاجي والهالك".

ونادَى في النّاس، قبل أن تضع الحرب أوْزارها، أنّ: "مَن دخَل دار أبي سفيان[1]،

---

[1] هو: أبو سفيان واسمه صخر بن حرب بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وكنيته: أبو سفيان، وكذلك أبو حنظلة. أمّه: صفية بنت حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهي عمّة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. وكان أبو سفيان في شبابه سيد بني عبد شمس بن عبد مناف، ثم نال سيادة جميع بطون قريش بعد معركة بدر بعد مقتل عتبة بن ربيعة العبشمي وأبو الحكم عمرو بن هشام المخزومي، ثمّ نال سيادة جميع فروع قبيلة كنانة في معركة أحد وبقي على هذا حتى فتح مكّة. وكان أبوه حرب بن أمية قائد جيوش بني كنانة في حرب الفجار ضد قبائل قيس عيلان. وهو أوّل مَن كتب باللغة العربية، وأخته هي أم جميل أروى بنت حرب التي ذكرت في القرآن الكريم بوصف حمالة الحطب، وابنته هي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان وزوجة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وابنه معاوية بن أبي سفيان هو أوّل ملوك الدولة الأموية. صفية بنت أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان أنجبت له حنظلة وهو بكره وكذلك أمّ المؤمنين أمّ حبيبة وأميمة: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له معاوية وعتبة وجويرية وأم الحكم. زينب بنت نوفل بن خلف بن قوالة بن جذيمة بن علقمة بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له يزيد. عاتكة بنت أبي أزيهر بن أنيس بن الخيسق بن مالك بن سعد بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن عامر بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد وأنجبت له محمد وعنبسة. صفية بنت أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له عمرو وعمر وصخرة وهند. أمامة بنت سفيان بن وهب بن الأشيم من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن

فهو آمنٌ؛ ومَن أغلق بابه على نفسه، فهو آمنٌ".

وعفَا عن أبي سفيان، وكان أكْبر أعدائه، ومن المحرّضين على قتْله قبل هجرته، وعلى قتاله بعد هجرته، وصاحب العير يوم بدْر، وصاحب الجمع يوم أُحُد، وفي غيرهما من الغزوات قبل فتح مكّة؛ ومن المنافقين الخاذلين المخذلين عنه يوم حُنين، ومن المنافقين الباذلين أموالهم لمن حاربه، فعَفَا –صلّى الله عليه وسلّم– عنه وقَبل إسْلامه ابْتغاءَ مرضاة الله وإيثارًا لطاعته فيما أمر به في شأن المنافقين.

مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له رملة الصغرى. لبابة بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنجبت له ميمونة. كان قائدًا للقافلة التي حاول المسلمون قطع الطريق عليها والتي أدت لموقعة بدر ولما استطاع أبو سفيان بخبرته سلوك طريق آخر وصل منه سالما لمكة بالقافلة فرأى أنه لا داعي للحرب طالما أن القافلة عادت سليمة إلاّ أن أبا جهل عمرو بن هشام أصر على محاربة المسلمين فوقعت موقعة بدر وكان عدد المسلمين بها 314. كان أبو سفيان سيد قريش وكنانة بعد أحد فكان رسول الله حريصًا على هدايته. فلمّا جاء الفتح، أخذ العبّاس– عمّ رسول الله– أبا سفيان إلى النّبيّ، فقال الرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "من دخل بيت أبا سفيان فهو آمن"، فأسلم يوم فتح مكة. شهد أبو سفيان معركة حنين، وكان يقاتل بجوار نبي الله، وعمره 70 سنة، فلم يفر مع من فر من المسلمين. ثمّ في حصار الطائف، رماه سعيد بن عبيد الثقفي وكان مشركا بسهم فأصاب عينه، فجاء إلى النبي قائلا: "هذه عيني أُصيبت في سبيل الله، فقال له رسول الله: "إن شئت دعوت فردت عليك، وإن شئت فالجنة"، فقال: "الجنّة". ثم شارك في معركة اليرموك ضد الروم وكان من أكبر المسلمين عمرًا وقتها، إذ كان عمره وهو يقاتل في اليرموك 76 سنة. توفّي في المدينة المنورة، واختلف سنة موته والمتفق عليه أنه مات بين سنة 30 هـ وسنة 34 هـ، وصلى عليه خليفة المسلمين وقتها عثمان (ع)، ودفن في البقيع، وعمره بين 92 و 96 سنة.

انظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ الإصابة في تمييز الصحابة؛ الطبقات الكبير؛ أسد الغابة في معرفة الصّحابة.

وعَفَا عن امرأته هند بنت عتبة[1]، وقد بقرت بطْن حمزة[2] حين استُشهِد يوم أُحِد، وأكلت كبده، وقالت فيه:

شَفَيْتُ مِنْ حَمْزَةَ نَفْسي بِأُحُد حينَ بَقَرَتُ بَطْنَهُ عَنِ الكَبد

فأتتْه مُظهرة للإسلام بعد فتح مكّة، وبعد [أن] كانت تحرّض[3] النّاس على القتال يوم فتح مكّة، وتشْتم أبا سفيان وتوبّخه –حين اسْتأمن–، وتُقَبِّحُ فعْله؛ فعفَا عنها بعد أن أظْفره الله بها، وقبْل إسْلامها، وحلم عنها؛ وحمزة عمّهُ، وأعزُّ النّاس عليه، وأسد الله وأسد رسوله.

---

[1] هند بنت عتبة العبمشية القرشية الكنانية، أبوها عتبة بن ربيعة سيد من سادات قريش وبني كنانة، عرف بحكمته وسداد رأيه. وهي إحدى نساء العرب اللاتي كان لهم شهرة عالية قبل الإسلام وبعده. زوجة أبي سفيان بن حرب، وأمّ الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. وكانت امرأةً لها نَفسٌ وأنفة، ورأي وعقل. شهدت أحدًا كافرة مع المشركين، ومثّلت بحمزة بن عبد المطّلب –عمّ رسول الله محمّد–. وكانت من النّسوة الأربع اللّواتي أهْدر الرّسول دماءهنّ يوم فتح مكّة، ولكنه عفا وصفح عنها حينما جاءته مسلمة تائبة حيث أسلمت يوم فتح مكة بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة.

[2] حمزة بن عبد المطلب (55ق هـ- 3هـ، 567 م - 624 م) هو عم النبي محمّد –صلّى الله علية وسلّم–، وأخوه من الرّضاعة أرضعتهما ثوية مولاة أبي لهب، وهو شقيق صفية بنت عبد المطلب أمّ الزّبير. كان موصوف بالشّجاعة والقوّة والبأس حتّي عرف أنّه أعزّ فتى في قريش وأشدهم شكيمة، وكان يُلقّب بـ أسد الله وأسد رسوله. وكان يوم قتل ابن تسع وخمسين سنة، ودُفن هو وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد. تزوّج من أروى بنت عميس وأنجبت له فاطمة. وأروى بنت عميس هي أخت أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب.

[3] في الأصل: **تتحرض**.

وقبل إسلام وحشيّ غلام جبير بن مطعم[1]؛ وهو الذي زرق حمزة بالحربة، وقتَله؛ فحلم عنه، وآثر رضاءَ نفْسه.

ولما فُتحت مكّة، هرب صفوان بن أمّية، وهو سيّد قومه، وكان شديد العَداوة لرسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–؛ فمضَى يريد جدّ، فقال عُمير بن وهب[2]: "يا نبيّ

---

[1] جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي النوفلي، يكنى أبا محمد، وقيل: أبا عدي، أمه أم حبيب، وقيل: أم جميل بنت سعيد، من بني عامر بن لؤي، وقيل: أم جميل بنت شعبة بن عبد الله بن قيس من بني عامر بن لؤي، وأمّها: أم حبيب بنت العاص بن أمية بن عبد شمس؛ قاله الزّبير. وكان من حلماء قريش وسادتهم، وكان يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة، وكان يقول: أخذت النّسب عن أبي بكر الصديق ، وجاء إلى النّبيّ فكلمه في أسارى بدر، فقال: "لو كان الشيخ أبوك حيًّا فأتانا فيهم لشفعناه". وكان لأبيه المطعم بن عدي عند رسول الله يد، وهو أنه كان أجار رسول الله لما قدم من الطائف، حين دعا ثقيفًا إلى الإسلام، وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب، وإياه عنى أبو طالب بقوله: "الطويل"

أمطعم إن القوم ساموك خطة ** وإني متى أوكل فلست بوائل

وكانت وفاة المطعم قبل بدر بنحو سبعة أشهر، وكان إسلام ابنه جبير بعد الحديبية وقبل الفتح، وقيل: أسلم في الفتح. وروي عن ابن عباس أن النبي قال ليلة قربه من مكة في غزوة الفتح: "إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو". روى عنه سليمان بن صرد، وعبد الرحمن بن أزهر، وابناه: نافع ومحمّد ابنا جبير. أخبرنا أبو محمد أرسلان بن بغان الصوفي، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن طاهر بن سعيد بن أبي سعيد الميهني الصّوفي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي، أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا عمر بن حفص السّدوسي، أخبرنا عاصم بن عليّ، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن محمّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: "أتت النبي امرأة فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، أرأيت إن رجعت فلم أجدك؟ كأنها تعني الموت، قال: "إن لم تجديني فأتي أبا بكر". وتوفّي جبير سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة تسع وخمسين. أخرجه الثّلاثة.

[2] هو عمير بن وهب بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كانت قصة إسلامه: أنه جلس مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب

أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وممّن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان أبنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فقال صفوان: والله ما إن في العيش بعدهم خير قال له عمير : دقت، أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم عليه، ابني أسير في أيديهم، فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: علي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم علي شأني وشأنك. قال: سأفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطّاب في نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم في عدوهم، إذا نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشّحا السّيف فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلاّ لشر، وهو الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثمّ دخل عمر على رسول الله فقال: يا نبيّ الله هذا عدوّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشّحًا سيفه، قال: فأدخله علي، قال: فأقبل عمر حتّى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنّه غير مأمون. ثمّ دخل به على رسول الله، فلما رآه رسول الله وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا ثم قال: أنعم صباحا، وكانت تحيه أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة قال: أما والله يا محمّد إن كنت بها لحديث عهد، قال: فما جاء بك يا عمير، قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك، قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئا، قال: اصدقني ما الذي جئت له، قال: ما جئت إلاّ لذلك، قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتّى أقتل محمّدا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدين وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلاّ أنا وصفوان، فوالله إنّي لأعلم ما أتاك به إلاّ الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق. ثمّ شهد شهادة الحقّ، فقال رسول الله: فقّهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره، ففعلوا. ثمّ قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحبّ أن تأذن لي، فأقدم مكّة فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام لعلّ الله يهديهم، وإلاّ آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله

الله، إنّ صفوان بن أمّيّة قد خرج هاربًا ليُغْرق نفسه في البحر، فأمّنه". قال -صلّى الله عليه وسلّم-: "هو آمن"، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكّة. فخرج عُمير ولحقه، فرجع وقال: "يا محمّد ألَيْس قد أمّنتني؟". قال: "نعم". قال: "فخيّرني في نفسي شهريْن". قال: "قد خيّرتك أرْبعة أشهر".

وعَفَا عن كثير من أعدائه الذين ارْتكبوا العظائم؛ حتّى قال أبو سفيان: "ما رأيْنا أحْلم منك يا رسول الله!".

وجاءه بعد ذلك قومٌ من الشّعراء، قد كانت ضاقتْ عليهم الأرض بما رحبت، بعد أن كانوا قد هجوه أقبح هجاء، وحرّضوا عليه بشِعرهم، مثل: عبد الله بن الزّبعري، مع كثرة أشعاره في هجائه، وشدّة عداوته، وتحريضه عليه. فأتاه مُعتذِرًا وهو يقول:

يَا رَسُولَ المليكِ إنّ لسـاني   راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بـورُ
إذا أجاري الشّيطان في سنن   الغيّ ومَن مال ميْله مثْبـورُ
آمنَ اللّحمُ والعظامُ بما قـلـ   ـتَ فنفْسي الفِدى وأنت النّذيرُ

فقال: -صلّى الله عليه وسلّم- له: "قد أمّنك الله"، وقبل إسْلامه، وعَفَا عنه.

فلحق بمكة، وكان صفوان بن أميّة حين خرج عمير بن وهب يقول: ابشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتّى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألاّ يكلّمه أبدًا ولا ينفعه بنفع أبدا، قال ابن إسحاق: فلمّا قدم عمير مكّة أقام بها يدعو إلى الإسلام يؤذي من خالفه أذى شديدًا، فأسْلم على يديْه ناس كثير.

ومثل كعب بن زهير[1] الذي كان يهْجوه ويؤذيه بهجائه، فأتاه تائبًا مسلمًا،

---

[1] هو كعب بن زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح بن العوام بن قُرط بن الحارث بن مازن بن خلاوة بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة، ؟ – 13 ق. هـ / ؟ – 609 م. أم كعب امرأة من بني عبد الله بن غطفان يقال لها كبشة بنت عمار بن عدي بن سحيم، وهي أم كل ولد زهير. تاريخ مولد شاعر الإسلام كعب بن زهير مجهول تقريبًا. إلاّ أن كثيرًا من مراجع التاريخ والأدب أكّدت أنّ كعب بن زهير بن أبي سلمى توفّي نحو سنة 662 م / 24هـ. كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد الفحول المخضرمين ومادح النّبيّ الأمين، كان كعب قد بلغ من الشّعر والشهرة حظًّا مرموقًا حين دعا نبيَّ الله إلى الإسلام، وإذا اسلم أخوه بجير وبجّه واستحثه على الرجوع عن دينٍ لم يكن عليه أحد من أبائه، فهجاه كعب ثم هجا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فسمع النبي شعره فتوعده وأهدر دمه، فهام كعب يترامى على القبائل أن تجيره فلم يجيره أحد، فنصحه أخوه بالمجيء إلى النبي مسلمًا تائبًا، فرجع بعد أن ضاقت الأرض في وجهه، وأتى المدينة وبدأ بأبي بكر ودخل المسجد وتوسل به إلى الرسول فأقبل به عليه وآمن وأنشد قصيدته المشهورة بانت سعاد، فعفا عنه النّبيّ، وخلع عليه بردته فسميت قصيدته بالبردة . ثمّ حسن إسلامه وأخذ يصدر شعره عن مواعظ وحكم باهتداء من القرآن الكريم وظهرت المعاني الإسلامية في شعره من أن الله هو رازق لعباده وغير ذلك. وإلى جانب هذه القصيدة الشهيرة التي حققت له شهرة كبيرة فإن لكعب بن زهير إنتاجًا شعريًّا متنوّعًا جمع بعضه أو معظمه في ديوان يحمل اسمه. أمّا موضوعات شعره، فهي كغيرها من موضوعات الشّعر الجاهلي، تتراوح بين الفخر والمدح والهجاء والرّثاء والغزل والوصف وبعض الحكم، لكن النقّاد يفرقون في شعره بين اتجاهين متباينين لأن إسلام كعب قد غير في نهج شعره وأمده بكثير من الصور، ورقق ألفاظه ومعانيه حيث كان كعب في الجاهلية يميل إلى الشدة والتقعر وخاصة في وصف الصحراء وحيوانها، بينما بعد الإسلام نراه كما يقول النقاد يميل إلى إرسال الحكمة والى الابتعاد عن الموضوعات الجاهلية. لكعب ديوان غير مطبوع، ليس فيه، إذا استثنينا قصيدة (بانت سعاد) إلاّ المقطوعات القصيرة التي نُظمت في الأغراض المعروفة من مديح وغزل وهجاء ورثاء وما إلى ذلك. أمّا أجود شعر له بالاتفاق فهو قصيدته (بانت سعاد) التي تدعى أيضًا (البردة) والتي تعدّ من المشوبات، وهي لاميّة من البحر البسيط لا تتجاوز 58 بيتًا، وقد صار لتلك القصيدة شهرة واسعة، وتناولها العلماء بالشرح والتفسير، كما تناولها الشعراء فشطّروها وخمّسوها وعارضوها. أمّا أقسام القصيدة، فهي تقسم إلى ثلاثة أقسام: توطئه غزلية على عادة الشّعراء الأقدمين (من البيت 1 إلى 12). وصف النّاقة التي تبلغ بالشّاعر إلى المحبوبة (من البيت 13 إلى 33). اعتذار ومدح للنّبيّ

وقال في شعْر له يمْدحه، ويسأله العفْو:

نُبّئتُ أنّ رسولَ الله أوْعدني والعفْوُ عِند رسولِ الله مأمولُ

فقال –صلّى الله عليه وسلّم–: "قد عفوتُ عنك"، وقَبل إسْلامه.

وكذلك عَفَا عن شعراء كثيرين كانوا يهْجونه[1] ويؤذونه بهجائهم، لما[2] كان الملوك وذوُو القدْرة يقْتلون بأصْغر من ذلك.

وأمّا الشّجاعة، فإنّه –صلّى الله عليه وسلّم– غزَا بنفْسه ثلاث عشْرة غزوة، ما ولّى الدّبرَ في شيء منها.

ولما اشتدّ القتال يوم أحُد، واشتغل كلّ امرئ بنفْسه واستحرّ القتْل في النّاس، صمَد له فرسان قريش، وتعاقدوا، وتحالفوا على قتْله، واحتوشوه، وحاربوه بكلّ سلاح، حتّى رموه بالحجارة. فصبر لهم، حتّى شُجّ في وجهه، وسالت الدّماء على لحْيته، وغاب من حلْق المغفر في جبْهته، وأصيبت رباعيّته، وجرح في شفّته؛ وأقبل أُبَيُّ بن خلف[3]،

محمّد والمهاجرين (من البيت 34 إلى 58). أمّا الذين شرحوها فكثيرون منهم ابن دريد، والتبريزي، وابن هشام، والباجوري، والسيوطي، وقد طبعت مرارًا في الشّرق وفي أوربة، تارة على حدة وتارة في مجامع أدبيّة. فطبعت في لندن سنة 1748 م، ثمّ في ليبسيك سنة 1871 م، ثمّ في برلين سنة 1890 م، ثمّ في باريس وقسطنطينة سنة 1904 م؛ وطبعت في بيروت سنة 1931 م، وتُرجِمت إلى لغات كثيرة منها اللاّتينية، والفرنسيّة، والألمانيّة، والانجليزيّة، والإيطاليّة, والفارسيّة.

[1] في الأصل: **يهجرونه**.

[2] في الأصل: **بما**.

[3] هو أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب القرشي، الجمحي، المعروف بالغطريف. من شخصيّات ورؤساء قريش في الجاهلية، وأحد كفّار ومشركي العرب في بدء الدّعوة المحمدية. كان من ألدّ خصوم النّبيّ وأكثرهم إيذاء له، وأشدّهم استهزاءً به وإحجاجًا عليه. لم يقف إيذاء كفار مكّة للنّبيّ والصّحابة عند حدّ، فكان تارة بالتعذيب والتنكيل وتارة بالطرد واغتصاب الحقوق.. وتارة ثالثة بالحرب النفسية. ومن ذلك ما أقسم به عدو الله أبيّ بن خلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله .. فلمّا بلغ قسمه الرسول قال: "أنا أقتله إن شاء الله". وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله، فيقول: يا محمد إن عندي فرسا أعلفه كلّ يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه. فيقول الرّسول: "بل أنا قاتلك إن شاء الله". وتحقّقت النبوءة في يوم أحد، عندما أسند النّبيّ في الشّعب بعد

وهو يقول: "لا نجوْتُ إن نجا محمّد!"؛ وكان يقول بمكّة: "إنّ لي عُودًا أعلّقه وأضعه، لأقتل عليه محمّدًا". فبلغ ذلك النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، فقال:" أنا أقْتله –إن شاء الله–".

فلمّا أقبل ذلك اليوم، عارضه عليّ[1] (ع) مع قوم من المسلمين، يريدون منعه من رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–؛ فقال–صلّى الله عليه وسلّم– لهم: "خلُّوا سبيله"؛ فبرز إليه وتناول حربة، فطعنه بها في فرجة بين البيضة والمغفر في عنقه، فصرعه.

ثمّ نهض أُبيٌّ، وانهزم عنه، وأتى أصحابه، وهو يخور كما يخور الثّور؛ فقالوا له: "لا بأس عليك، إنّما هو خدشٌ"! فقال: "أليس قد قال إنّه يقتلني؟ والله لو كانت هذه الخدشة بأهل ذي المجاز، لماتوا كلّهم منها".

ويوم حنين، لما انهزم أصحابه –صلّى الله عليه وسلّم–، وذهبوا في كلّ وجه، وقف في حومة الحرب ومعه عليّ (ع) مع نفر يسير من أصحابه، والنّبال والسّهام عليه

أن شاع مقتله في المشركين والمسلمين، ولكنّه شقّ الصّفوف وكذّب الشائعة، فأدرك أبيّ بن خلف وهو يقول: أين محمّد؟ لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منّا؟ فقال رسول الله : دعوه فلمّا دنا منه تناول النّبيّ الحربة من حارث بن الصمة، ثمّ استقبله وأبصر ترقوته، فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه مرارا، فلمّا رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمّد، قالوا له: والله ذهب فؤادك، والله إن بك من بأس، قال أبيّ: إنّه قد كان قال لي بمكّة: ‘‘أنا أقتلك’’، فوالله لو بصق عليّ لقتلني". فمات عدوّ الله وهم راجعون به إلى مكّة، وكان يخور خوار الثور ويقول: "والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعًا". وكان أبيّ بن خلف الكافر الوحيد الذي قتله رسول الله، وما سُمع أنّه قتل بعدها أحدًا.

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لما قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.
حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

-صلّى الله عليه وسلّم- مثل قطر المطر؛ وهو ينادي:" هلمّوا إليَّ! أنا محمّد ابن عبد الله، أنا محمّد رسول الله!"؛ وما ولّى حتّى أتاه النّصر من الله -عزّ وجلّ-.

ومقاماته في غزواته، وما ظهر من شجاعته، يطول الشّرح به.

وأمّا الوَقار والرّزانة، فإنّه كان أوْقر[1] النّاس مجلسًا، وأعْظمهم هيْبة في صدور النّاس.

وكان إذا قعد بين أصحابه، قعدوا حوله كأنّما على رؤوسهم الطّير هيْبة له؛ يهابونه هيْبة الملوك مع بشاشته بهم وبجميع النّاس، وحسْن خُلُقه؛ فإنّه كان أحْسن النّاس خُلُقًا وخَلقًا.

وكان يأمر أصحابه بمحاسن الأخلاق، ويحثّهم على ذلك، ويقول:" أَقْرَبُكُمْ إِلَى الله أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا"، وقال: "إِنَّ العَبْد لَيبلغ بحسْن الخُلُق درجة الصّائم القائمِ"، وقال: "ليسَ عَمَلٌ في الميزان أثقل من حسْن الخُلُقِ".

وما رُوِي عنه نحْو هذا كثير ممّا كان يأمر[2] به، ويحثّ عليه.

وكان لا يطرب ولا يمزح، ولا يطيش ولا يبطش في فرَح ولا غضَب. وترد عليه الأمور العظيمة البشارة، فلا يسْتخفّ لها.

وكان جلّ غضبه أن تحمرّ وجنتاه، فيمْلك نفسه، ويدرّ العرق من عرق بين عينيْه، فلا يتزعزع، ولا يبطش بيد ولا لسان؛ وما رُئي قطّ قهقه، واسْتغْرب لضحك، وكان جلّ ضحكه التّبسّم.

وكانت ترد عليه الأمور العظيمة التي يُمْتَحن بها، فلا يتزعْزع لها؛ بل كان يظهر الوقار الشّديد، والرّكانة، ويحْتسب، ويحمل الصّبر؛ حتّى أمَر الله -عزّ وجلّ- أمّته أن يتأسّوا به في الذي ينوبه من محَن الدّنيا، وأن يتأبّدوا بأدبه، فقال -جلّ ذكره-: ﴿لقدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يرجُو الله واليوم الآخر﴾[3].

---

[1] في الأصل: **أقر**.

[2] في الأصل: **يأمروا**.

[3] سورة الأحزاب (33)، الآية 21.

وأمّا الوفاء، فإنّه كان أوْفى النّاس بعهْد وذمّة، وأوْكدهم حرمة.

قد كان بعث خالدًا بن وليد[1] إلى بني جثيمة، ولم يبْعثه مقاتلاً، بل بعثه داعيًا؛ فأجابوه إلى الإسلام. وكانت بين خالد وبين القوم ترة في الجاهليّة، فقال لهم: "ضعوا سلاحكم".

فلمّا وضعوا السّلاح، كتّفهم وعرضهم على السّيف.

فلمّا انْتهى خبرهم إلى النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– رفع يديْه إلى السّماء، وقال: "اللّهمَّ إنِّي أبرأُ إليك ممّا صنع". وزعم خالد أنّه لم يقتلهم، حتّى امتنعوا من الإسلام.

فبَعث رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– عليًّا (ع)، وبعث معه مالاً، وقال: "اجْعل أمْر الجّاهلية تحت قدميْك"؛ فخرج إليهم، وودَ الدّماء والأموال، حتّى وداهم ميلغة الكلب، وبقيت معه بقيّة من المال، فقال: "هل بقي لكم دم أو مال؟". قالوا: "لا".

---

[1] خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي. توفي سنة 21 هـ/642 م صحابي وقائد عسكري مسلم، لقّبه الرسول بسيف الله المسلول. اشتهر بحسن تخطيطه العسكري وبراعته في قيادة جيوش المسلمين في حروب الردّة وفتح العراق والشام، في عهد خليفتي الرّسول أبي بكر وعمر في غضون عدّة سنوات من عام 632 حتى عام 636. يعدّ أحد قادة الجيوش القلائل في التّاريخ الذين لم يهزموا في معركة طوال حياتهم، فهو لم يهزم في أكثر من مائة معركة أمام قوات متفوّقة عدديًّا من الإمبراطورية الرّوميّة البيزنطية والإمبراطورية السّاسانية الفارسيّة وحلفائهم، بالإضافة إلى العديد من القبائل العربيّة الأخرى. اشتهر خالد بانتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة وأُلّيس والفراض، وتكتيكاته التي استخدمها في معركتي الولجة واليرموك. قبل إسلامه، لعب خالد بن الوليد دورًا حيويًا في انتصار قريش على قوات المسلمين في غزوة أحد، كما شارك ضمن صفوف الأحزاب في غزوة الخندق. ومع ذلك، اعتنق خالد الدين الإسلامي بعد صلح الحديبيّة، شارك في حملات مختلفة في عهد الرسول، أهمها غزوة مؤتة وفتح مكّة. وفي عام 638، وهو في أوج انتصاراته العسكرية، عزله الخليفة عمر بن الخطّاب من قيادة الجيوش، ثمّ انتقل إلى حمص حيث عاش لأقلّ من أربع سنوات حتّى وفاته ودفنه بها.

قال: "فهذه البقيّة لكم احتياطًا لرسول الله–صلّى الله عليه وسلّم– ممّا لا أعْلم وممّا لا تعلمون".

فلمّا رجع، قال له النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–: "أحسنْتَ وأصبْتَ".

وكانت بيْنه وبيْن العرب هدْنة بعد فتح مكّة أن لا يُمنعوا عن البيت، وأن لا يُخافوا. فنزلت سورة "براءة"، وأمَره الله أن يردَّ إليهم عهْدهم؛ فدفع الآيات من أوّل سورة "براءة" إلى أبي بكر[1]، وبعثه إلى الموسم، وأمَره أن يقرأها على النّاس.

فنزل جبرائيل (ع) وقال له: "إنّه لا يبلّغها إلاّ أنت أو رجل منك". فبعث عليًّا (ع)، فأخذ الصحيفة من أبي بكر بعد أن لحقه في طريقه، ومضى.

فلمّا وافى "مِنى" يوم النّحر، أذّن في النّاس حتّى اجتمعوا، فقرأها، وردّ إليهم عهْدهم: أن لا يحجّ بعد هذا العام مُشرِكٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ؛ ومَن كان له عند رسول الله عهْد أو ذمّة، فهو إلى مدّة أربعة أشهر، ليرجع كلّ قوم إلى مأْمنهم من بلادهم؛ ثمّ لا عهْد بعد ذلك لمشرِك، إلاّ مَن كان له عهد عند رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– إلى أَجَل معلوم، فعلى رسول الله الوفاء بذلك.

فلو شاء أن يكابرهم قبل أن يرجعوا إلى ديارهم، ويُوْقِع بهم، لَفعل؛ ولكنّه أراد أن يفي بذِمّتهم، ولم يغزهم في ديارهم ولم يرعبهم؛ حتّى أخذوا حذرهم وفاءً بعهدهم، واجتنابًا للخديعة، والمكْر بهم.

---

[1] هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة –واسمه عثمان– بن عامر، من ولد تيم ابن مرّة –تيم قريش–. كان اسمه في الجاهليّة عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– عبد الله، ولقبه عتيق، لُقّب به لجمال وجهه –رضي الله عنه–، وسمّي صدّيقًا لتصديقه خبر المسرى. وأمّه سلمى وتكنى أمّ الخير بنت صخر، وهي بنت عمّ أبيه. بويع له يوم الاثنين الذي توفّي فيه رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وتوفّي بالسلّ ليلة الثّلاثاء، وقيل يوم الجمعة، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وسنّه ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيّام، وصلّى عليه عمر –رضي الله عنه–. ودُفن في حجرة عائشة ورأسه بين كتفي رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–.
حول ترجمته راجع: ابن خلّكان، *وفيّات الأعيان*، ج3/ص64 إلى ص71؛ *الرّياض النّضرة*؛ الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*؛ *غاية النّهاية*.

وأمّا التّواضع، فإنّه –صلّى الله عليه وسلّم– مع رفيع منزلته، وهيبته في صدور النّاس، كان يبادر مَن لقي بالسّلام؛ وكان لا يتقدّم أصحابه إذا مشى؛ ويقف للصّغير والكبير، والغنيّ والفقير، والنّساء والرّجال؛ ولا ينْصرف عمَّن يقف له، حتّى ينْصرف عنه صاحبه؛ ولا يقوم في مجْلسه عن جليسه، حتّى يقوم عنه؛ ويقعد حيث ينْتهي به صاحبه؛ وكان الفقير والضّعيف أقرب إليه من الغنيّ والقويّ، حتّى إنّه رُئي واقفًا على عجوز حتّى أعيَا. فقيل له: "يا رسول الله، أطلتَ الوقوف على هذه المرأة!"، فقال: "إنّها عجوز كانت تأتينا أيّام خديجة[1]، وإنّ حسن العهْد من الإيمان".

---

[1] أبوها: خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وخويلد هذا جد الزبير بن العوامؓ. وأمّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وفاطمة هذه هي عمّة ابن أمّ مكتوم. ولدت سنة 68 قبل الهجرة556 م في مكّة، لكن هذا يتعارض مع سنها حين وفاتها وهذا ما أثبته البيهقي أن خديجة عنها توفيت وعمرها خمسين سنة، وهو أصحّ. وقال الحاكم: "أنّها لم تبلغ الستّين سنة". وقد مات والدها يوم حرب الفِجَار. يُروَى أنّها تزوّجت مرّتين قبل زواجها بمحمّد بن عبد الله ﷺ من سيدين من سادات قريش هما: عتيق بن عائذ المخزومى وقد انجبت منه ابنة (هند)، وأبو هالة بن زرارة التميمي وأنجبت منه جاريه وغلاما (هالة، هند). وقد كانت خديجة تاجرة ذات مال، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة، فبلغها أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ يدعى بالصادق الأمين وأنه كريم الأخلاق، فبعثت إليه وطلبت منه أن يخرج في تجارة لها إلى الشّام مع غلام يدعى "ميسرة"، وقد وافق. لم تمض إلا فترة قصيرة حتى سارع لطلب الزواج من خديجة وفي صحبته عمّاه "أبو طالب وحمزة، ابنا عبد المطّلب". وتزوّج محمّد ﷺ من خديجة. كان عمر الرّسول محمّد ﷺ عندها 25 عامًا وعمر أم المؤمنين السيدة خديجة 40 عامًا. كان قد مضى على زواجها من محمّد 15 عامًا، وقد بلغ محمّد الأربعين من العمر، وكان قد اعتاد على الخلوة في غار "حراء" ليتأمّل ويتدبّر في الكون. وفي ليلة القدر، عندما نزل الوحى على محمد وانطلق إلى منزله خائفًا يرتجف، حتى بلغ حجرة زوجتة خديجة فقال: "زملوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: "مالي يا خديجة؟، وحدثها بصوت مرتجف، وحكى لها ما حدث... وقال "لقد خشيت على نفسي". فطمئنته قائلة: "والله لا

وفي حديث آخر: أنّه بسط لها رداءه، وقال: "إنّ هذه من صدائق خديجة، وإنّ حسْن العهد من الإيمان".

وفي حديث آخر: أنّ خالته من الرّضاعة أتتْه، فبسط لها رداءه.

وكان يأْكل على الأرض ويقول: "إنّما أنا عبد آكل كما يأْكل العبْد".

وكان لا يذمُّ ذواقًا، ولا يمْدحه.

فهذه أخلاقه، ذكرنا منها على الاختصار، ولو شرحنا محاسنها لَطال الوصْف بها.

وأمّا خَلْقه في اعتداله، وحُسْن صورته، وجماله التي يحْكم بها أصحاب الفراسة، ويستدلّون بها على تمام عقل الإنسان؛ فإنّه كان مُشتهِرًا بالجمال، واعتدال الصّورة.

وكان مُعتدِل القامة، أطْول من المربوع، وأقْصر من المشذّب، عظيم الهامة، رجل الشّعر، واسع الجبين، أزجّ الحواجب سوابغ في غير قرن، أقْنى العينيْن، له نور يعْلوه، يحسبه مَن لم يتأمله أشمّ، كثّ اللّحية، سهل الخدَّين، ضليع الفم، أشنب، مفلّج الأسنان، كان

يخزيك الله أبدا... إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق"" فكانت أوّل من آمن برسالته وصدّقه.... فكانت بهذا أوّل مَن أسْلم من المسلمين جميعا، وأوّل مَن أسْلم من النّساء. وتوفّيت "خديجة" قبل هجرة محمد إلى يثرب بثلاث أعوام، وكان عمرها 65 عاما. وذكر البيهقي أنّ خديجة توفّيت وعمرها خمسين سنة، وهو أصحّ. وقال الحاكم: "أنّها لم تبلغ الستين سنة". أنزلها محمّد بنفسه في حفرتها وأدخلها القبر بيده، ودفنها بالحجون (مقابر المعلاة بمكّة المكرّمة).

انظر ترجمته في: دلائل النبوّة للبيهقي ج 2 ص 71؛ المستدرك على الصّحيحين للحاكم ج 11 ص 158؛ أنساب الأشراف ج 2 ص 35؛ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي للعصامي ص 185؛ دلائل النبوة ج 1 ص 178؛ مقتل الخوارزمي ج 1 ص 36، والمستدرك على الصحيحين للحاكم ج 11 ص 157؛ كشف الغمّة للإربلي ج 2 ص 135؛ البداية والنّهاية لابن كثير ج 2 ص 360، السيرة النبوية لابن كثير ج 1 ص 265؛ دلائل النّبوّة للبيهقي ج 2 ص 71؛ المستدرك على الصّحيحين للحاكم ج 11 ص 158.

يفترُّ عن مثل حبّ الغمام، واسِع الصّدر، بعيد ما بين المنكبيْن، طويل الزّنديْن، رحب الرّاحة، سبط القصب، سائل الأطراف، خمصان الأخمصيْن، مسيح القدميْن، خافض الطّرف؛ نظره إلى الأرْض أكثر من نظره إلى السّماء، لا يسارق النّظر ولا يلاحظ، بل كان يلتفتُ جمعًا، ولا ينظر شزرًا نظر المسارق ونظر التّعادي؛ لأنّ الذي ينظر شزرًا، يكون متجسّسًا أو مُضْمرًا حقدًا؛ فتنزّه عن هذه الخليقة المذمومة، وصان نفسه عنها؛ فكان إذا الْتفتَ، يلتفت جمعًا.

وإن ذكرْنا صفة خلْقته المستحسَنة الجامعة لكلّ جمال، طال شرْحها.

وذكرْنا هذا المقدار، مُختصَرًا من الذي رُوي عن ربيبه هند بن أبي هالة التّميمي[1]، وكان أوْصف النّاس له ممّا قاله، لأنّهم شاهدوه –صلّى الله عليه وسلّم–، ووجَدوه –صلّى الله عليه وسلّم– بهذه الصّفة.

هذا، دون ما وصفتْه به أمُّ معبد لزوجها، لما نزل عندها وحلب شاة حائلاً حتّى درّت باللّبن؛ ودون ما وصفَه به غيرها من الخِلَق الجميلة.

وذكرْنا ذلك، لأنّ الفلاسفة يحْكمون بالفراسة، ويسْتدلّون بمثل هذه الصّفة على عقْل الإنسان وكماله.

فمَن الذي وُجد في العالم وذُكر أجْمع منه لهذه الخصال؟ لأنّ مَن ذُكر بالأمانة والصّدق، كان مُنفرِدًا بتلك دون غيرها من الخصال؛ وكذلك مَن ذُكر بالسّخَاء أو بالحِلْم أو بالشّجاعة أو بالوفاء أو بغير ذلك، كان ينْفرد بتلك الخصلة دون غيرها.

فكان –صلّى الله عليه وسلّم– قد برَع النّاس وفاقَهم أجمعين، في جميع هذه الخصال؛ حتّى لا يقاوِمه أحدٌ، ولا يُذكَر له في العالم نظيرٌ قد جمع هذه الأخلاق والخِلْق.

ثمّ كان أنْضر النّاس عُودًا، وأعلاهم شرفًا، وأفْخرهم منْصبًا.

شعْبه أفضل الشّعوب، وقبيلته أفضل القبائل، وعشيرته أفضل العشائر.

قد ولده الأنبياء والرّسل: آدم، وشيث، ونوح، وسام، وإبراهيم، وإسماعيل (ع).

---

[1] وهند هذا هو ربيب رسول الله أمه خديجة بنت خويلد، وأبوه أبو هالة.

ثمّ ولده كِرام النّاس وكِرام العرب، ثمّ كِرام مضر، ثمّ كِرام كنانة، ثمّ كِرام قريش، ثمّ كِرام بني هاشم. ومناقب أجداده ظاهرة، وكرائم أخلاقهم مذكورة في الزّمن الأوّل:

كان مضر أفضل عدْنان، وكان يفكّ العاني، ويطْعم الطّعام.

وكان كنانة أفْضل مضر، وكان يأنف أن يأكل وحْده. فإذا لم يجد مَن يأكل معه، أكَل لقمة ورمى بلقمة إلى صخْرة قد نصبها بين يديْه، أنفَة من أن يأكل وحْده.

وكان قريش قد فاق العرب بأصالة رأيه وتدْبيره.

وكان قُصَيّ أفضل قريش، واسْمه "زيد" وسُمّي "مجمعًا"، لأنّه جَمع قبائل قريش، وأنزلها مكّة؛ وفيه يقول القائل:

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعًــا به جَمْعَ اللهُ القَبَائِلَ مِنْ فَهْــرِ

وكان هاشم أفْضل قريش واسمه "عمرو" فسُمّي هاشمًا، لأنّه كان يهشم الثّريد ويطْعم الحاجّ والنّاسك. وكان يقْعد على كرسيّ من ساسم، ويخْتصر بقضيب من خيزران، وجزور تُنحر، وأخرى تُطبخ، وأخرى تُساق لتُنْحَرْ، ومناديه ينادي: "يا وفْد الله! هلمّوا إلى الغداء!"، وآخر ينادي: "ألا مَن تغدّى، فليرح العشاء!".

وأمّا عبد المطّلب، فكان حكمهم، ومفزعهم في النّوائب، وموئلهم في الأمور.

وكان يرْفع من مائدته في رؤوس الجبال للطّير، ويطْعم الحجيج ويسقيهم، وسوْطه للسّفيه قائم.

وكان يُقال له: "شَيْبَةُ الحمد"؛ وأجْدبت قريش، فاسْتسقت به؛ فوضَع عبد المطّلب رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– على عاتقه، وهو يومئذ طفل، وارْتقى أبا قبيس؛ وأقْبلت قريش تدفُّ حوله، وطافوا به وهو يدعو؛ فما راحوا حتّى انفجرت السّماء بمائها وسالت الأوْدية، وقريش تقول: "هنيئا لك يا أبا البطحاء، بك عاش النّاس!".

وقال فيهم شاعرهم:

بِشَيْبَةِ الحَمْدِ أَسْقَى اللهُ بَلْدَتَنَــا وَقَدْ فَقَدْنَا الحَيَا واجْلَوّذَ المِطَرُ

مُبَارَكُ الوجهِ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِهِ مَا فِي الأَنَامِ لَهُ عِدْلٌ وَلاَ خَطَرُ

وأمّا عبد الله، فكانت غُرّة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– ظاهرة بين عيْنيْه؛ ورأتْه امرأة، فعرفت أنّ لتلك الغرّة شأنًا، فراودته عن نفسه؛ فعصمه الله، ودخل على آمنة بنت وهب[1] امرأته، فواقعها؛ فحملت برسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، وتحوّلت تلك الغرّة إلى وَجْهها.

ثمّ لقيته المرأة بعد ذلك، فقال كالمجرّب لها: "هل لك فيما قلتِ لي؟"، فقالت: "قد كان ذلك مرّة، فاليوم لا". فصار ذلك مثلاً.

---

[1] هي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأمّها: برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وتندرج "آمنة بنت وهب" من بني زهرة بن كلاب وهم أحد بطون قريش ذات المكانة العظيمة، فقد كان أبوها وهب بن عبد مناف سيّد بني زهرة شرفا وحسبا، ولم يكن نسب "آمنة" من جهة أمها، دون ذلك عراقة وأصالة فهي ابنة "برة بنت عبد العزى" من بني عبد الدّار بن قصي أحد بطون قريش .ويؤكد هذه العراقة والأصالة بالنّسب اعتزاز الرسول بنسبه حيث قال: "لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا، لا تتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما "ويقول أيضا" :أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا". حان الوقت التي كانت "آمنة" تترقبه حيث بلغ محمدٌ السّادسة من عمره بعد العناية الفائقة له من والدته. وظهرت عليه بوادر النضج. فاصطحبته إلى أخوال أبيه المقيمين في يثرب لمشاهدة قبر فقيدهما الغالي، ومكثت بجوار قبر زوجها ما يقارب شهرا كاملا، وهي تبكي وتتذكر الأيّام الخوالي التي جمعتها مع زوجها بينما محمّد يلهو ويلعب مع أخواله. وإثر عاصفة حارة وقوية هبت عليهم تعبت "آمنة" في طريقها بين البلدتين. فشعرت "آمنة" بأنّ أجلها قد حان، وكانت تهمس بأنّها ستموت، ثمّ أخذها الموت من بين ذراعي ولدها الصغير وفارقت هذه الدنيا. فأخذته "أم أيمن" فضمت المسكين إلى صدرها وأخذت تحاول أن تفهمه معنى الموت حتّى يفهمه.

انظر ترجمته في: سيرة ابن هشام المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج بن الجوزي.

وكانت له من الله عصمة، وكان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: "نقلتُ مِنْ طُهْرٍ إِلَى طُهْرٍ مَا مَسَّنِي سِفاح الجاهليّة".

فهذه صفته -صلّى الله عليه وسلّم- وأخلاقه المشهورة، وخلقته الطّاهرة، وفخره الباذخ؛ ولا يدفع ذلك إلاّ مباهات؛ لأنّ قريشًا، والعرب، وسائر الأمم الذين شاهدوه، عرفوه بذلك، واعْترفوا به.

فهو -صلّى الله عليه وسلّم- جمَع هذه الخصال كلّها، وفاق النّاس أجْمعين فيها؛ وحقّ له أن يكون كذلك.

وقد اخْتاره الله -عزّ وجلّ- من جميع ولد آدم من أوّل الدّهر إلى آخره، وفضّله عليهم أجمعين؛ وأعطاه من القوّة الشّديدة، والنّصرة الظّاهرة، والغلَبة القاهرة، والملك العالي على جميع الممالك في الدّنيا، ما لم يعْطه أحدًا من عباده؛ ومضى -صلّى الله عليه وسلّم- من الدّنيا، وقوّته باقية في العالم، تزداد على مرِّ الأيّام؛ وما أعدّ الله في آخرته، فأكْبر درجات وأكبر تفضيلاً.

فإن قال قائلٌ: إنّه قد كان في الدّنيا مَن كان أشدّ قوّة في مُلكه وسلْطانه، وأظهَرَ غَلَبَةٍ، مثل الإسكندر وغيره من ملوك الأرض.

قلنا: هؤلاء ملكوا في عصْرهم وغلبوا في دهْرهم، فلمّا ماتوا، زال ذلك عنهم؛ ورسْم محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- باقٍ إلى الأبد، وعزّه وشرفه متّصلان بالقيامة.

وكذلك كان سبيل موسى وعيسى (ع)، وإن لم يبلغَا منزلة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، فإنّهما جمعَا الخصال الجميلة؛ وكان كلّ واحد منهما أكْمل أهْل زمانه، وأجْمعهم لكلّ أمر يحتاج إليه الإمام في سياسة النّاس دينًا ودنيًا، كما ظهر في موسى من الأفعال العظيمة والآيات العَجيبة.

وإن كان الملحِدون ينْكرونها، فإنّهم لا يقدرون على أن يطعنوا في عقْله، واستحْكام فمه، وحسْن تمييزه، وكمال تدبيره، لأنّ أفعاله العظيمة، التي كانت منه، لا تتمّ إلاّ لكمال عقل مؤيّد حازم.

فإنّه خرج من مصر وأنقذ بني إسرائيل من عبوديّة فرعون، وهم ستّمائة ألْف رجل بالغ سوى النّساء والذّراري، بما أعطاه الله من القوّة ولطْف له من التّدْبير؛ وعبر بهم البحر، فأتبعهم فرعون بجنوده، حتّى كان من أمْره ما كان.

ثمّ ساسهم أربعين عامًا في المهامة والقفار تلك السّياسة العجيبةَ، مع تلوّنهم والْتيائهم عليه، ومع ما امْتُحِن به من أمور عظيمة كانت منهم.

فقدّموه، مع ذلك كلّه، على أنْفسهم؛ وملك ذلك الجمْع العظيم، وأقام فيهم الأمْر والنّهْي؛ وأقرّوا له بالنّبوّة لِمَا رأوا منه من الآيات.

وكان هارون أخوه أكبر سنًّا منه، وكان وجيهًا فيهم مُبجَّلاً عندهم عظيمًا في صدورهم، فقدّموا موسى (ع) عليه، بتقديم الله –عزّ وجلّ– إيّاه بالنّبوّة.

فإن أنْكر الملحِدون نبوّته، فهل تنكرون عقله؟

وهل يجوز أنّ ذلك الجمْع العظيم من بني إسرائيل قدّموه، وانْقادوا له إلاّ بفضل كان فيه، وقوّة عظيمة، وكمال رأي، ووفور عقْل؟

وأنّ مَن يجوز حمْله على ذلك الخلْق الكثير، حتّى يملك رقابهم، ويجعلهم تحت طاعته، ويقرّوا له بالنّبوّة، لا يجوز أن يكون مطعونًا عليه في عقله، وكماله، وفضْله.

ولا يجوز أن يقدّموا على أنفسهم معتوهًا ناقصًا مجنونًا، من غير جدْوى ينالونها منه من أغْراض الدّنيا.

ولا يوجب المعْقول أنّهم قدّموه إلاّ لِمَا ذكرنا من الآيات التي ظهرت منه، والأمور العظيمة التي شاهدوها منه وعاينوها.

وإن جحَد الملحِدون تلك الآيات التي دلّت على نبوّته، فلِكماله، وحسْن تدبيره، ولطْفه في السّياسة.

وهكذا كان أمْر المسيح (ع) حين ظهر بالنّبوّة، وأظْهر تلك الجرائح، وجال في كور فلسطين والأرْدن والشّام، وظهرت منه تلك الأسباب العظيمة من إحياء المؤتى، وإبراء ذوي العاهات والمؤوفين، والدّلائل الكثيرة.

فإن أنْكر الملحِدون وقالوا: "إنّ ذلك لم يكن"، فلا يقدرون أن يدفعوا ما شرّعه لحواريّيه الذين عُرفوا أيضًا بالكمال، والفضْل، والقوّة التي جمعوا بها النّاس على قبول شرائعه وآثاره؛ فهل قدروا، مع تفرّقهم في بلدان شتّى وكور متباينة، على إقامة دعوته، وبسط شرائعه، وترسيم آثاره، إلاّ بآيات كاملة؟

وهل تبعوا المسيح، مع كمالهم، إلاّ لمعْرفتهم بفضْله؟

فإن كانوا ينْكرون أنّهم اتّبعوه لِمَا رأوا منه الآيات، فلا يقْدرون أن ينْكروا عقولهم، وأفْهامهم، وحُسن تمييزهم؛ فإنّه لا يقدر على إقامة مثل تلك الدّعوة إلاّ المجانين، ومَن لا عقول لهم، ولا أفهام.

فمَن أنْكر ما ذكرنا في شأن محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وموسى، وعيسى من الكمال في عقولهم وأفْهامهم، وجمْعهم الخصال الحميدة التي تكون في الأئمّة والرّؤساء؛ وما كانوا عليه من حُسن التّدبير والسّياسة، وإن كان مُنكِرًا لنبوّتهم، فهو معانِدٌ، مكابِرٌ، دافِعٌ للعيان؛ فإنّ هذه الأسباب لا تعزب عن أفْهام النّاس من المخالِفين والمؤالِفين؛ وهم يشاهدونها بعقولهم، وإن كانت أمورًا قد انْقضت.

وإذا كان الإمام بالصّفة التي وصف بها هؤلاء الرّسل (ع) من البراعة والعقول التّامّة، فلا يجوز أن لا يعقل أحدهم ما يتكلّم به، وأن يخفى عليه من تناقض كلامه واستحالته، ما يعرفه غيره مثل الملحِد وأشباهه.

فهلاّ تدبّر الملحِد هذا الشّأن؟!

وهلاّ علم أنّ أمثال هؤلاء (ع) لم يخْف عليهم ما ادّعاه الملحِد من التّناقض في كلامهم، والاختلاف في رسومهم، ومخالفة بعضهم لبعض في شرائعهم وفي كتبهم والأخبار التي رُويت عنهم؟!

أفَتراهم كانوا لا يميّزون ما يقولون، ولا يعرفون منه مقدار ما عرفه الملحِد حين قال: "الآن ننْظر في كلام القوْم وتناقضه"؟!

فهلاّ تدبّر هذه الحال، وتأمّل ما كانوا عليه من الكمال، وجمْعهم لكلّ محمود من الخصال؟!

وهلاّ حكم في كلامهم حسْب ما ادّعوه من ضرْب الأمْثال؟!

وإنّما ذكرْنا هذه الصّفات التي كانت فيهم، ليعرف العاقل المميِّز المنصف أنَّ أمثالهم في العقول التّامّة والأفهام الكاملة.

ومع هذه الأسباب العظيمة التي كانت منهم الخصال الجميلة التي كانت فيهم، لا يجوز لأحد أن يحكم عليهم أنّهم تكلّموا بكلام متناقض، ورسموا رسومًا متناقضة، وهم لا يعقلون ما يقولون ويفعلون؛ بل يجب أن يتدبّر أمْرهم، ويقلّب العلّة الموجبة لعذْرهم، فيعرف الهدى من الضّلال؛ فليس من الدّين عوضٌ، ولا عن الله مَهربٌ؛ ولا بعد الموت مُستعقَب[1]، ولا مأْوى، بعد هذه إلاّ الجنّة أو النّار.

[1] في الأصل: **مستعب**.

الفصل الثالث
في كلام الأنبياء ورسومهم

الآن، نذكر صدرًا من كلام الأنبياء (ع) ورسومهم، وما نطقت به كتبهم وادّعوه فيها، أنّهم يضربون الأمثال التي تختلف ألْفاظها، وتتّفق معانيها[1]؛ وما دلّوا عليه، وأمروا به من البحث عن معاني كلامهم المرموز، ليتّضح عدلُهُمْ، ويظهر صدقُهم؛ فيزول ما يدّعيه الملحِدون عليهم من اختلافهم وتناقض كلامهم -إن شاء الله تعالى-.

رُوي عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال: "ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتيْ الصّراط سور، وفي السّور أبواب مُفتَّحة، وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصّراط داعٍ يقول: "ادخلوا الصّراط، ولا تعرجوا!".

قال: "فالصّراط هو الإسلام، والأبواب المفتَّحة: محارم الله، والستّور: حدود الله، والدّاعي: القرآن".

فهكذا سبيل المثل والمعنى.

وما جاء في القرآن العظيم أبْلغ وأوْجز:

قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بقَدَرِهَ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا وممّا يُوقِدونَ عَلَيْهِ في النّارِ ابتغاءَ حِلْيَةٍ أَو مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كذلِك يضرِبُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ كَذَلِكَ يضربُ الله الأمثال﴾[2].

قال أهْل التّفسير: شبّه علوم الأنبياء، وما أنْزل الله من الوحْي، بماء ينْزل من السّماء؛ شبّهه بالإيمان وأهْله؛ والزّبد الذي يذهب جفاء، شبّهه بالكفْر وأهْله؛ يعني: أنّ أعمال المؤمنين تبْقى وتحْصل يوم القيامة، وأعْمال الكّفار تبْطل ولا تنْفع.

---

[1] في الأصل: **معانيه**.

[2] سورة الرّعد (13)، الآية 17.

وذكرْنا من معنى هذا المثل مقْدار ما ذكروه في تفسيره.

وقال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا في هذا القرآنِ للنّاسِ مِنْ كُلِّ مثلٍ وَكَانَ الإِنْسَان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

وقال الله –عزّ وجلّ–: ﴿إِنَّ الله لا يستَحيي أن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فما فوقها فَأَمَّا الذين آمَنُوا فيعلمون أَنّهُ الحقُّ مِنْ ربّهم وأَمَّا الذّين كَفَروا فَيَقُولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضِلُّ بِهِ كثيرًا ويَهْدِي بِه كثيرًا وما يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقِين﴾[2].

وإنّما أنْزل الله –عزّ وجلّ– هذه الآية لما قال المشرِكون: "ما هذه الأمثال التي يذْكرها محمّد، ويضْربها بالذّباب، والعنكبوت، وغير ذلك؟!"؛ فعنْدها أنزل الله –عزّ وجلّ– هذه الآية؛ وأعْلمنا أنّ الذين آمنوا يعْلمون ما في الأمثال من الحقّ، والذين كفروا يجْهلون ذلك؛ فيهْتدي بها كثيرٌ من النّاس الذين يعرفون حقائقها، ويضلّ بها الفاسقون.

وقال –عزّ وجلّ– في صفة النّار: ﴿علَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وما جَعَلْنَا أصحابَ النّار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة لِلّذين كفَروا ليستقين الذين أُوتُوا الكِتَابَ ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتاب الذين أوتوا الكِتاب والمؤمِنُونَ وَلِيَقُلَ الذينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكَافِرُونَ ماذا أرَاد الله بهذا مثلا كَذَلِكَ يضلُّ الله مَنْ يَشَاءُ ويهْدي مَن يشاء﴾[3].

وقال –عزّ وجلّ–: ﴿وتلك الأمثال نَضْربها للنَّاسِ ومَا يَعقلُها إلاّ العَالِمون﴾[4].

ورويْنا عن بعض أئمّتنا الصّادقين (ع) أنّه[5] قال لبعض أصحابه: "انْظر أن لا تمرّ بك آية من كتاب الله إلاّ وأنت تعرف معناها أو تحبّ أن تعْلمه، لتكون عالمًا أو متعلّمًا؛ فإنّ الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلاّ العالِمون﴾[6].

---

[1] سورة الكهف (18)، الآية 54.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 26.

[3] سورة المدّثر (74)، الآيتان 30–31.

[4] سورة العنكبوت (29)، الآية 43.

[5] في الأصل: **أن**.

[6] سورة العنكبوت (29)، الآية 43.

وقال –عزّ وجلّ–: ﴿قُلْ هُوَ للّذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ والّذين لا يُؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عَلَيْهِمْ عَمَىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَان بعيد، لأنّهم لا يعرفون معانيه﴾[1].

وأخْبرَنا –عزّ وجلّ–: أنّ الأنبياء الذين مضوا ضربوا لِقوْمهم المثال؛ فهلك مَن هلك، لأنّهم جهلوا معانيها، فكذّبوا الرُّسُلَ؛ وكان سبيلهم في جهْلهم بتلك المعاني سبيل الملحِد حين جهْل هذا الباب، وظنّ بالأنبياء الكذبَ والاختلاف، فقدّر في كلامهم الاخْتلاف والتّناقض.

قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَعَدًا وَثَمُودَ وأصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بينَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاً تَبَرَّنَا تَتبيرًا﴾[2].

فدلّ ذلك على أنّهم هلكوا حين ضُربت لهم الأمثال، فجهلوا معانيها وضلّوا.

فهذا ما في القرآن، وفيه أمثال كثيرة يطول الشّرح بها.

ومثل ذلك في سائر كتب الأنبياء (ع):

في الإنجيل، في بُشْرى متّى: هذا كلام تكلّم به يسوع بالأمثال، ولم يكن يكلّمهم بغير الأمثال، ليتمّ ما قيل على لسان النّبيّ الذي قال: "أفْتح فمي بالأمثال، وأعْلم السّرائر التي كانت من قبْل أن وُضع أساسُ الدُّنْيا".

وفيه أيضًا مثَلٌ ضربَهُ عيسى (ع)، وقال بعد ذلك: "فدَنَا منه تلاميذه، وقالوا له: "ما بلك تكلّمهم بالأمثال؟"، فقال لهم: "أنتم أعْطيتم سرَّ ملكوت السّماء، فأمّا أولئك فلم يعطوا. مَن كان له، فإنّه يُعطَى ويُزَاد؛ ومَن لم يكن له، فإنّه مهما كان له، يؤخذ منه أيضًا. لذلك أكلّمهم بالأمثال، لأنّهم يُبْصِرُون الحقّ، فيعمون أبصارهم، ويسْمعون، ثمّ لا يعْقلون ولا يفْقهون. فأمّا أنتم، فطوبى لأعينكم التي ترى وآذانكم التي تسْمع!".

ومثل هذا في القرآن، قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿لاَ يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعينٌ لا يُبْصِرُون بِها وَلَهُمُ آذانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضلُّ أُولئِكَ هُمْ

---

[1] سورة فصّلت (41)، الآية 44.

[2] سورة الفرقان (25)، الآيتان 38–39.

الغَافِلُونَ﴾[1]؛ يعني بهذا: أنّ مَن سمع القرآن، ولم يعقل الأمثال التي ضُربت فيه، فهو بهذه المنْزلة.

وفي بُشْرى مارقوس: أنّ المسيح ضرب للحواريّين مثلاً، ثمّ قال لهم: "أنتم أُعطيتم أن تعلموا سرّ ملكوت السّماء. فأمّا الغرباء، فإنّهم يُكلَّمون بالأمثال، لكيما إذا رأوا لم يروا؛ وإذا سمعوا، لم يسمعوا ولم يفْهموا، لعلّهم يرْجعون، فتُغفَر لهم خطاياهم[2] لما[3] يحْسنون هذا المثل، فكيف إذا تعلّموا جميع الأمثال؟!

ويقول فيه أيضًا بعد مثل ضرَبه لهم، ثمّ قال: "بمثْل هذه الأمثال جعل يكلّمهم يسوع، ولم يكن يكلّمهم بغير أمثال، وكان يفسّر لتلاميذه جميع الأشياء بينه وبينهم".

ومن الأمثال التي ضرَبها وفسَّرها لهم، قال: إنّ الزّرّاع خرج ليزرع. فلمّا زرَع، منه ما سقط في جادّة الطّريق، فجاءه الطّير، فلقطه؛ ومنه ما سقط على الصّخر، حيث لم يكن طين كثير، فنبت من ساعته؛ لأنّه لم يكن له أصْل في الأرض؛ فلمّا طلعت عليه الشّمس ذوى، لأنّه لم يكن له أصْل في الأرض، فيبس؛ ومنه ما سقط بين الشّوك، فارْتفع الشّوك فخنَقه؛ ومنه ما سقط في الأرض الصّالحة ورَبَا، فمنه ما خرج مائة ضعْف، ومنه ستّون، ومنه ثلاثون. مَن كان له أذنان سامعتان، فلْيسمع!".

ثمّ فسّر لهم هذا المثل، فقال: "الزّرع، مثل مَن سمع كلام الملكوت، فلم يفْهمه، يأتيه الشّيطان، فيختطف الكلمة التي زُرعت في قلْبه، وهو الزّرع على جادّة الطّريق.

والزّرْع على الصّفا هو الذي يسْمع الكلمة، فيقبلها من ساعته فرحًا، وليس له فيها أصل؛ بل إنّما هي إلى حين قليل. فإذا كان ضَرٌّ أو مشقّةٌ من أجل تلك الكلمة، كفر وشيكًا.

والذي زرع بين الشّوك، فهو الذي يسْمع الكلمة، فتأتي هُموم الدّنيا وفتْنة الغنى، فتخْنق الكلمة، فتصير لا ثمْرة لها.

---

[1] سورة الأعراف (7)، الآية 179.

[2] في الأصل: **خطياهم**.

[3] في الأصل: **أمّا**.

وأمّا الزّرع الذي في الأرض الصّالحة، فهو الذي يسْمع الكلمة فيعيها، ويثمّرها، منه مائة ضعْف، ومنه ستون، ومنه ثلاثون.

وتمثّل مثلاً آخر، فقال: "يشْبه ملكوت السّماء رجلاً زرع في قريته زرعًا صالحًا. فلمّا رقد النّاس، جاء عدوٌّ له، فزرع زوانًا بين الحنطة وذهب.

فلمّا نشأ الزّرع وأثْمر، طلع الزّوان بين الزّرع.

ثمّ إنّ عبيد صاحب القرية قالوا: "يا سيّدنا، أليس إنّما زرعتَ زرعًا صالحًا، فمن أين صار فيه هذا الزّوان؟". هو الحقّ قال لهم: "دخل عدوٌّ، وفعل هذا". قالوا له: "أيسرّك أن نْطلق نلْقطه؟". هو بحقّ قال لهم: "لعلّكم مع لقطكم الزّوان، تقلّعون معه الحنطة، ولكن دعوهما حتّى ينبتَا جميعًا، حتّى يبلغ الحصاد. فإذا كان الحصاد، قلتُ للحصّادة: "الْقطوا الزّوان، واحزموه حومًا ليرقّ بالنّار. وأمّا الحنطة، فاجْمعوها إلى أهرائي".

قالوا له: "فسّر لنا المثل"، فأجابهم: "إنّ الذي زرع الزّرع الصّالح هو ابن البشر، والقرية هي العالم، والزّرع الصّالح بنو الملكوت، والزّوان هم بنو طاعة الشّيْطان، والعدوّ الذي زرع الزّوان هو الشّيطان، والحصاد هو فناء العالم، والحصّادة[1] هم الملائكة.

وكما أنّ الزّوان يُلقَط ويُحرَق بالنّار، كذلك يكون في مُنتَهى العالم، يرْسل الله ملائكته، فيلْقطون من ملكوته جميع الفتّانين والأثَمَة، فيلقونهم في أتون النّار؛ ثمّ يكون البكاء وصرير الأسنان".

فعلى هذا الأمثال التي هي في الإنجيل؛ وهي كثيرة.

ونحْو هذا في سائر كتب الأنبياء:

في كتاب هوشع، ما هو مُفسَّرٌ من الأمثال: "اسْمعوا قول الربّ يا بني إسرائيل، إنّ للرّبّ حكومة مع سكّان الأرض لعدم البرّ والقسْط، وعدم المعرفة بالله في الأرض؛ ولِمَا كثر من اللّعن، والكذب، والقتل، والسّرق، والسّفاح في الأرض؛ ولأنّهم خلطوا الدّم بالدّم؛ لذلك تئنُّ الأرض وترثي، وينوح جميع سكّانها، وحيوان القفار، وطيْر السّماء، ويهْلك سمك البحر".

---

[1] في الأصل: **الحصدة**.

وقال في تفسير هذا المثل: يعني بالحيوان: الملوكَ، والطّير: الكَهَنة، وبالسّمك: سائرَ الشّعب.

وظاهر هذا المثل لا يوجب أن يُهلِك الله –عزّ وجلّ–، بذنوب بني آدم التي ذكرها: الحيوانَ، والطّير، والسّمك.

ولو أنّ ناظرًا في هذا الكلام عمد إلى ظاهر ألْفاظه لَعَابَهُ[1]، وقال: "كيف يهْلك الله –عزّ وجلّ– الحيوانَ، والطّيرَ، والسّمكَ بذنوب البشر؟ أو كيف ذكر السّمك والطّير مع ذكره الحيوان، وهما من الحيوان؟"؛ ولَكان له في ذلك مقالٌ، لو كان ظاهرًا لا معنى تحته.

فلمّا فسّره وردّه إلى المعنى، زال عنه عيْب الجهّال.

وفي كتاب يوئيل النّبيّ (ع) يقول: "ما أبْقى الجندب، أكلَهُ الجراد الطّائر؛ وما أبْقى الجراد الطّائر، أكلَه الدُّبى؛ [وما أبْقى الدُّبى]، أكلَه الصّرْصر".

وقال في تفسيره: يعني بالجندب: تغلث فلاسر –ملك المؤصل–؛ وبالجراد: شلمنأصرّ –ملك المؤصل–؛ وبالدّبى: سنحارب –ابن الملك المؤصل–، والصّرصر: نبوخد نصّر.

وفي كتاب أشعياء: أنّ الرّبَّ يتعزّز على صنوبر لبنان المستعلِية الشّامخة، وعلى جميع شجر البلّوط الذي بأرض باشان، وعلى جميع الجبال الرّواسي، وعلى كلّ هضبة منيعة، وعلى كلّ سور منيع، وعلى جميع سفن تارشيش، وعلى كلّ منظرة رائعة.

وقال في تفسيره: يعني بالصّنوبر وشجر البلّوط: الأكابر والأصاغر من الملوك؛ وكذلك بالجبال الرّواسي والهضبات المنيعة، يعني بها: ملوكًا ثبت ملكهم وامتنعوا.

أطْلق الرّسل السّراع إلى شعب مخوف ومستأصل الذي أخربت الأنهار ويقطع الزلُّ بالمنجل ويجور القضيب فيها وينقضي؛ لأنّ الشّعب لم يقبل حتّى عوقب، وأهْلك الربّ من بني إسرائيل الرّأس والذّنب في يوم واحد.

---

[1] في الأصل: **لعابه**.

وقال في تفسيره: عني بالشّعب: المنْتجبة، وبالبحر: فرعون، وبالأنهار: قوّاده، وبالرُّل: أغنياء الحبشة، وبالقضيب: ملك بابل، وبالرّأس: الشّيخ البهيّ الوجْه، وبالذّنب[1]: النّبيّ الذي يعلم الزّور.

وفي كتاب حبقّوق[2]: "إنّما أضرب الأمثال وأقول الأوابد، والذي يعقل يعرف هذه المقالات، ويعْلم أنّ طرق الربّ مُعتدِلة، يسير الأبرار فيها سيرًا صالحًا، والأثمة يعثرون فيها".

يعني: أنَّ مَن عَلِمَ معاني الأمثال من كلام الأنبياء هو من الأبرار، فعرف مرادهم، وجرى على سننهم بالعدْل والصّدْق، وكان صالحًا.

ومَن جهل ذلك عثر، فلم يصدّق الأنبياء ونسبَهم إلى الكذب، فكان بمنْزلة مَن يعْثر في طريقه، كفعْل الملحِدين الضّالّين.

وفي كتاب ناحوم النّبيّ: "يكون أثر عقاب الله كالغبار، ويبس البحر، وتخْرب الأنهار كلّها.

---

[1] في الأصل: **ذنب**.

[2] ظهر حبقوق في أثناء السنوات الأخيرة قبل سقوط أُورشليم في سنة 586 ق.م.، وقد رأى بعين النبوءة، في أواخر القرن السابع، الدينونة الماحقة التي ستحل بيهوذا، وتساءل بانزعاج: لماذا سمح الله بشُيُوع الشر في أوساط يهوذا وكيف يرضى الله أن يستخدم أمة وثنية كالبابليين لمعاقبة يهوذا على شرها. وقد أجاب الله عن حيرة حبقوق وكشف له عن أكثر مما طلب، إذ أعطاه رؤْيا عن ذاته المقدّسة. هذه البصيرة الجديدة لإدراك ذات الله، وتبيّن النّبيّ عجْزه ونقصه أمام كمال الله، منحاه الشّجاعة على تحمل نكبات تلك الأيام السود بقوة وتصميم. إن سيادة الله وافتقار الإنسان إلى الاتّكال عليه هما محور رسالة هذا الكتاب الرّائع. إنّ الله يتحكّم بجميع الأُمم، ويجري ما يراه حقًّا، لهذا فإنّ الموقف السّليم الذي يجب على الإنسان أن يتّخذه هو الثّقة به، وليس التشكّك في عدله (2: 4). عندما يتّخذ الإنسان هذا الموقف يمكنه آنئذ أن ينظر إلى ما هو أبعد من المظاهر الأليمة للأشياء ويتأمّل في المعنى الحقيقي الأعمق لذات الله فيجد القوّة على تحمّل الظّروف مهما كانت قاسية. نحن لا نعرف ما يضمره لنا الغد، ولكنّ الله مطّلع على المستقبل، فعلينا أن نتّكل عليه كلّ الاتّكال.

وقال في تفسيره: يعني بالبحر: ملك المؤصل، وبالأنهار: قوّاده.

وفي كتاب بولس، المقدَّم عند النّصارى الذي يسمّونه الرّسول الصّالح، في رسالته إلى تيموثاوس[1]، أنّ البيت العظيم ليس تكون فيه أوَاني الخشب والفخّار أيضًا، منها

---

[1] تيموثاوس ومعنى اسمه باليونانية تكريم الله أو تقي الله Τιμόθεος/Τιμοθέος بالإنكليزية (Timothy)، هو أحد الأساقفة المسيحيين من القرن الأول الميلادي الذي توفي عام 80 م، اعتنق المسيحية أثناء تبشير بولس في لسترة الكائنة في مقاطعة لكاؤنية حوالي عام 46 م بينما تروي بعض القصص عن أنّه كان أحد رسل المسيح السّبعين، معظم ما نعرفه عنه قادم ممّا دوّن في العهد الجديد في سفر أعمال الرّسل وفي بعض الرّسائل المنسوبة لبولس. وكان تيموثاوس قد تربى على يد أمه أفنيكي وجدته لوئيس وهما يهوديتان صالحتان لقناه الكتب المقدسة. أمّا والده فلا يوجد لدينا معلومات عنه أكثر من أنّه كان يونانيًّا. لم يكن تيموثاوس مختونا عندما دخل المسيحية ولكنه اختتن فيما بعد بطلب من بولس لكي يستطيع اصطحابه معه إلى أماكن تجمع اليهود لأنهم كانوا يعلمون أن أباه يوناني الجنس، وكان بولس يرغب بأن يرافقه تيموثاوس في أسفاره التبشيرية لِما رأه فيه من إيمان وغيرة روحية. وكان معروفا في الجماعة المسيحية بتقواه، فسافرا معا إلى غلاطية وتراوس وفيلبي ثم إلى تسالونيكي ومكث بعدها تيموثاوس في بيريَّة بينما رحل بولس عنها صوب أثينا بطلب من المسيحيين هناك. ولكن بولس أرسل إليه فلحق به إلى مكدونية وكورنثوس، وقبل أن يبدأ بولس رحلته التبشيرية الثالثة قام بإرساله إلى مكدونية. ورد اسم تيموثاوس في عدد من الرسائل المنسوبة لبولس الرسول، فكانت الرسالة توجه لكنيسة معينة باسم بولس وباسمه، كما مر ذكره وهو يبعث بسلامه إلى كنيسة روما في ختام الرّسالة الموجهة إليها. وبحسب الرّسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، فإنّ بولس قام بإرسال تيموثاوس إليهم قبل أن يكتب الرسالة لكي يذكرهم "بطرقه في المسيح"، ثمّ أرسله أيضًا بعد أن كتبها، وفي الرّسالة الموجهة إلى أهل فيلبي عبر كاتبها عن رغبته بإرسال تيموثاوس إلى تلك الكنيسة لكي يطمئن على أحوالها، وكان قد أرسل أيضًا إلى تسالونيكي وأخبر بولس عن ثبات التسالونيكيين على الإيمان والمحبّة. وفي الرّسالة إلى العبرانيين يشير كاتبها إلى أن تيموثاوس كان معتقّلاً، ولكنّه قد تم إطلاق سراحه. ومن سياق رسائل بولس نجد بأنّه كان يجمعه مع تيموثاوس علاقة أبويّة وطيدة حيث كان يدعوه " ابني" والابن الصّريح في الإيمان "والابن الحبيب" و"الأمين". وهناك رسالتين من الرسائل البولسية (سفرين في العهد الجديد) موجهة لتيموثاوس. وبحسب التّقليد الكنسي فأن بولس الرسول عين تيموثاوس أسقفا وراعيا على كنيسة أفسس وذلك بين عامي63 و65 م، حيث خدم هناك 15 سنة وبسبب تبشيره بالمسيحية ومقاومته لعبادة الأوثان هجم عليه

للكرامة ومنها الهَوان.

وقال في تفسيره: يعني: الدّنيا، وما فيها من سعيد وشقيّ.

الوثنيون وضربوه وسحلوه في الشّوارع، ثمّ رجموه حتى الموت عام 80 م، وكان يناهز الثمانين من العمر. وفي القرن الرّابع نُقل جثمانه إلى كنيسة الرسل القديسين في القسطنطينية، وتعترف به كقديس كلّ من الكنائس الكاثوليكية وتعيد له في 26 يناير/ كانون الثاني، والأرثوذكسية وتعيد له في 22 يناير/كانون الثاني وعدد من الكنائس البروتستانتية.

الفصل الرابع
في باب المثل والمعنى

قد ذكرْنا صدرًا من هذه الأمثال التي هي في القرآن -العظيم- وفي سائر كتب الأنبياء (ع) الذين سلفوا، وهي كثيرة جدًّا؛ ولو تتبّعناها، لَطال بها الكتاب.

قد ذكرْنا منها رسمًا ليُستدلّ به على مذاهب الأنبياء وسُننهم في شرائعهم، ويُعلَم أنّ الأمْر فيه كما قلنا: إنّ أكثر كلامهم ورسومهم هي أمثال تختلف ظواهرها، والمراد بها: المعاني.

ومَن جهل مُرادهم، ولم يعرف معاني كلامهم، حَكَم عليهم بالاخْتلاف والتّناقض، كما فعله الملحِد حين قضى في ذلك بالكذب، وأنزل الأنبياء الطّاهرين منزلةَ الكذّابين الفُجّار، جهلاً منه بمعاني كلامهم، وجُرأة على الله -عزّ وجلّ-، وكفرًا وطغيانًا.

ولو نظر في دعاوي الأنبياء (ع)، وحكم في ذلك حسْب ما نطقت به كتبهم، ثمّ أنْصف نفسه، لَمَا ضلّ عن طريق الهُدى، لأنّهم ادّعوا أنّهم يضْربون الأمثال؛ وأنّ لِكلامهم معاني لطيفة، وحثّوا على طلبها وتعليمها، وأنْذروا ترْك ذلك، واحْتجّوا على النّاس.

كما رُوي عن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال: "مَا نَزَلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ إلاّ وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ، وَلِكُلِّ حَدٌّ مَطْلَعٌ".

كما رُوِي عن أمير المؤمنين عليّ[1] -كرّم الله وجهه-، حين وصَف القرآن، فقال: "ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عمِيقٌ؛ لاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلاَ تَفْنَى غَرَائِبُهُ".

وأذْكر لك في باب المثل والمعْنى مثالاً تَستدلُّ به على رسوم الأنبياء (ع) في ذلك، وتَعْرف مذاهبهم فيه، وتَتصوّر ذلك؛ وتَعْلم كيف كان خطابُهم لأُمَمهم بالأمثال، وكيف اختلفت ألْفاظهم واتّفقت معانيها؛ وتَعتبر به، وتَسْتدلّ بالقليل على الكثير؛ وتَعلم أنّ الملحِد لما لم يعرف هذا الباب، طعَن على الأنبياء الصّادقين (ع)، وقضى عليهم بالكذب، وحكَم في كلامهم بالتّناقض؛ ولم يتأمّل دعاويهم، أنّهم يضربون الأمثال، فضلّ وهلك.

اعلمْ أنّ مثل مَن يسمع الأمثال من كلام الأنبياء (ع)، ولا يعْرف المعاني، مثل مَن يشاهد قومًا يُعرَفون بالصّدق، والورَع، والعقل، والتّمييز اطّلعوا في بيت، فسُئلوا، فقيل لهم: "ما رأيتم في هذا البيت؟"، فقال أحدهم: "ما رأيتُ فيه إلاّ بيضة". فقيل لهم: "لِمَ اختلفتم، وأنتم تُعرفون بالصّدق، ولا تُنكَر عقولكم؟"، فقالوا: "ضربْنا أمثالاً". ثمّ شهد كلُّ واحدٍ منهم لصاحبه أنّه قد صدق.

فإذا حكم مَن يسمع كلامهم بظاهر اللّفظ، ولم يلْتفت إلى دعْواهم حين قالوا: "ضربْنا أمثالاً"، ولم يسْأل عن معنى الأمثال التي ادّعوها، وبحث عن ذلك، وَجَدهم صادقين، وكان مُصيبًا، مُنصِفًا، عادلاً، هاديًا؛ لأنّهم رأوا في البيت امْرأة، فكَنوا عن ذكْرها.

---

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لما قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.
حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

وضرب أحدهم المثل بالنّعجة، والآخر بالقارورة: لأنّ المرأة يُكنّى عن ذكْرها بالنّعجة، كما قال الله –عزّ وجلّ– في قصّة داود[1] (ع) والملكيْن حين ضرب المثل، فقال أحدهما: ﴿هَذَا أخي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَة، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[2]، وأشار إلى المعنى. فعرف داود (ع) معنى المثل، وأنّهما نبّهاه لخطئه في أمْر أوريا.

ويُقال للمرأة: قارورة إذا كني عنها، كما رُوي عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، "اتّقِ القوارير"، يعني به النّساء؛ وكنى عن ذكرهنّ؛ وأراد أن ينْهاه أن يتكلّم في حُداه بكلام رقيق تسْمعه النّساء، فتصبو قلوبهنّ، لأنّهنّ ضعاف العقول؛ وإذا لم يُصَنّ، صبون، وفسدت قلوبهنّ، مثل القوارير إذا لَمْ تُصنَّ، انْكسرت.

ويُقال للمرأة أيضًا: بيْضة، على التّشبيه، كما قال الشّاعر:

وَبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤُهَـــــا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلِ

فكُنِي عن المرأة بالبيْضة.

---

[1] داوُد أو داود أو داؤود (بالعبري :דָּוִד *داويد*، وتلفظ بالعبرية الحديثة :*دافيد* (معناه "محبوب"، هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل الموحدة (1011 ق.م. – 971 ق.م.) وأحد أنبياء بني إسرائيل بحسب المعتقد الإسلامي جاء بعد إش–بوشيت (أو إشباعل)، الابن الرابع للملك شاول. يتمّ وصفه على أنه أحق وأنزه ملك من بين ملوك إسرائيل التاريخيين –ولكن ليس بلا خطأ–. وأيضًا هو محارب ممتاز، موسيقي وشاعر (وتعتبره التراث اليهودي والمسيحي مؤلف العديد من المزامير). إجابة على رغبة داوُد لبناء معبدًا أو بيتًا لله، وعد الله داوُد أنّ عائلته الملكيّة سوف تعيش للأبد. ولذلك، يؤمن اليهود أنّ المسيح اليهودي سوف يكون من نسل داوُد المباشر، ويؤمن المسيحيون أنّ نسل يسوع المسيح يعود إلى داوُد لأنّ كلاً من مريم ويوسف يعود نسلهما إلى داوُد. طبيعة مُلكه كانت تحت خلاف ونقاش، رفض ودافع عنها العديد من باحثي التوراة الحديثين، ولكن حياة داوُد المكتوبة في التّوراة العبري لا تزال مقبولة بصورة كبيرة بين اليهود والمسيحيّين، وقصّته أصبح له تمييز مركزي من قبل المجتمع الغربي. تمّ تدوين حياته وقصة ملكه في التوراة العبري في صموئيل 1 (إصحاح 16 فما بعد) وصموئيل 2، ملوك 1، ملوك 2. أخبار الأيّام 1 تعطي قصص أخرى لداوُد متعلّقة بقوائم ورائيّة وعائلية أخرى.

[2] سورة ص (38)، الآية 23.

فعلى هذا المِثال سبيل كلام الأنبياء والرّسل في ضرب الأمثال، واخْتلاف ألْفاظهم بها، واتّفاق معانيها، وتقدير الجاهِلين فيها إذا حكموا بظاهر الألفاظ؛ فنسبوهم إلى الاختلاف والكذب؛ وهم البَرَرَة الصّادقون.

ومثل هذا موجودٌ في رسوم الفلاسفة الحكماء القدماء. فإنّهم ضربوا الأمثال في كثير من كلامهم، وذهبوا في ذلك مذهب الأنبياء (ع) وسلكوا سبيلهم.

كما هو مكتوبٌ في كتاب برقلس أنّه كان يتكلّم بالطّباع، وكان لطيف المذاهب، غامض المعاني، وكان يكلّم النّاس بالعويص من الكلام.

وكما ذكرت الفلاسفة أنّ أفلاطون[1] كان أكثر كلامه رمزًا.

وفي كتاب "بلينس" أنّه كان يضْرب الأمثال، وقال: "أنا بلياس صاحب الطّلمسات والعجائب؛ أنا الذي أُوتيتُ الحكْمة من مُدبِّر العالم".

ثمّ ضرب لهم الأمثال، وقال: "الآن أُخبركم أنّي كنتُ يتيمًا من أهل طوانة، لا مال لي".

---

[1] في الأصل: **أفلاطن**.

يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، و يسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميدس* في العفّة، قولان سمّاهما *القبيادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245–ص246. بيروت. د. ت.

ثمّ ذكر المثل الذي في صدْر كتابه من حديث السّرب المظلِم، والتّمثال من الحجر الذي أُقيم على عمود من خشب، ودخوله السّرب بالسّراج تحت الإناء الصّافي، ونظره إلى هرمس على السّرير في السّرب، وأخْذه الكتاب من بين يديْه الذي فيه سرّ الخليقة.

والأمثال الكثيرة التي ضربَها، والرّؤيا التي ذكرَها، يطول بشرْحها الكتاب.

فهلاّ تدبَّر الملحِد الجاهل كلام الأنبياء (ع) حين ادّعوا أنّهم يضْربون الأمثال، فكان يحْكم فيهم حسب دعاويهم؟!

وهلاّ طلب معانيها، ثمّ حكم فيها بالصّدق، والكذب، والائتلاف، والاختلاف، فيكون مُصيبًا مُنصِفًا؟! أم هلاّ حكَم برسوم الفلاسفة حين جحَد النّبوّة؟!

ولكن حمَله على ترْك الإنصاف: جهلُه بمراد الأنبياء، وإعْجابه بوساوسه التي غرَق فيها، وادّعى أنّها حكمة وفلسفة، وغرّته الأماني؛ فضلّ وأضلّ، وأُهلك وأَهلك، حبًّا منه للرّياسة الخسيسة التي كان يدّعيها ويتشبّه بالفلاسفة القُدماء، كما تشبّه به أمثاله من الموسْوَسين الكذّابين، وكذّبوا الأنبياء الطّاهرين؛ وسيعلمون غدًا مَن الكذّاب الأشرّ.

فشرائع الأنبياء، كلّها، أُسّست على العلم والحكمة، وكتبهم ورسومهم هي، على ما ذكرْنا، متّفقة المعاني، وإن اخْتلفت ظواهرها؛ لأنّها أمثال مضروبة، رمزوا لأُممهم بِما رسَموه من ذلك، وأمَروهم[1] بإقامة ظاهرها، ليقوم العباد في العالم، وتتّصل السّياسة، ويثْبت الأمْر والنّهْي، وينْتظم أمْر العالم، ويكون فيه قوام أمْرهم في دنياهم، وتكون هذه الرّسوم دالّة على ما تحتها من المعاني التي بها نجاتهم في أُخراهم.

فكلّ مَن نسخ ظاهر ألْفاظ مَن تقدّمه وظاهر رسومه، أتى برسوم تدلُّ على المعاني التي تدلّ عليها صاحبه، وإن خالفه في ظاهر ألْفاظه.

كان أصْحاب الشّرائع من الأنبياء نفرًا معدودين. وأمّا سائر الأنبياء (ع)، فإنّهم كانوا يدعون إلى شرائعهم وأحكامهم؛ وكان قَصد أصحاب الشّرائع أجمعين: إقامة الدّين الحقيقيّ الذي [لا] تفرُّق فيه ولا اخْتلاف؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ

---

[1] في الأصل: **أمورهم**.

الدّينْ مَا وَصَّى به نوحًا والّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيمَ ومُوسى وعيسى أن أُقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1].

فهذه الآية تدلُّ على أنّ شرائعهم كلّها[2] كانت تدعو إلى دينٍ [واحد، لا] أنّ لكلّ واحدِ منهم شريعة غير شريعة صاحبه، ومنهاجًا غير منهاجه.

فهذا في ظاهر الأمْر مختلفٌ، كما نرى.

فمَن قدّر أنّ هذا تناقضٌ، وأنّ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-، مع [ما] وصفْناه من الكمال والجمْع للأخْلاق الجميلة التي ذكرناها، كان لا يعْقل ما يقول، حين تلاَ على النّاس هذه الآية، وعرّفهم أنّ الله -عزّ وجلّ- شرّع لهم من الدّين ما وصّى به نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وشهد لهم بالنّبوّة؛ ثمّ أمَرهم بإقامة سُنن غير سننهم وشرائع غير شرائعهم؛ وأنّه كانت به من الغفْلة ما لم يعْرف معْنى الآيتيْن، أنّهما مختلفتان في ظاهر اللّفظ؛ وأنّ مَن حضره من أصحابه، وأخذوا عنه الدّين، جهلوا ذلك.

فمَن ظَنّ هذا أو قدَّره، فقد جهَل وعاند؛ ونعوذ بالله أن نظنّ به ذلك؛ بل كان أعْلم بما يقول، ويشرّع من الملحِدين الظّانّين به ظَنّ السّوء -﴿علَيْهُم دَائِرةُ السّوء﴾[3]-.

وإنّما عنى أنّ لكلّ واحد منهم شريعة ومنهاجًا في الظّاهر غير شريعة صاحبه ومنهاجه؛ ولكنّهم كلّهم أشاروا إلى معانٍ متّفقة لا تناقض فيها ولا اخْتلاف.

ألاَ تراه -عزّ وجلّ- يقول: ﴿أن أَقِيمُوا الدّينَ وَلاَ تَتَفَرّقُوا فِيه﴾[4]، ثمّ قال: ﴿الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه مَن ينيب﴾[5]، أي أنّ الله -عزّ وجلّ- يهْدي إلى معانيها، التي تدلّ على الدّين الحقيقيّ الذي يدعو إلى وحدانيّته، وإلى معْرفته ومعرفة

---

[1] سورة الشّورى (42)، الآية 13.

[2] في الأصل: **كله**.

[3] سورة الفتح (48)، الآية 6.

[4] سورة الشورى (42)، الآية 13.

[5] سورة الشورى (42)، الآية 13.

أوليائه الذين لا تفرّق[1] فيهم، ولا اخْتلاف بينهم، مَن ينيب إليه، ويرْجع إلى أوْليائه في طلَب معاني كلام الله، وهدايته، وخروجه من الاختلاف والضّلال.

فالاختلاف الذي بيْنهم كان في ظاهر شرائعهم.

هكذا كان سبيلهم[2]، لأنّهم لم يقصدوا ظاهر الشّرائع دون المعاني التي تحْتها، بل كان قصْدهم لها جميعًا؛ ثمّ حثّوا الأنام على طلب معانيها المؤتلفة التي بها نجاتهم.

فلذلك جاز لهم نسْخ ظاهر الشّرائع، ومُخالَفة بعضهم لبعض فيها؛ لأنّها كانت أمثالاً مضروبة في كتُبهم وسنَنهم.

فألْزموا النّاس إقامتها، وجعلوها أصْل العبادة، وافْترضوا عليهم القيام بها، وأكْرَهوهم على قبول ظاهر ما أتوا به، وأجْبروهم على إقامة ما شرّعوه؛ لتثْبت آثارهم ورسومهم في العالم، وتظْهر الطّاعة والمعصية، وتقوم الطّاعة بالعبادة؛ ويُساس بهذه الشّرائع الخاصُّ والعامُّ، ويسْتقيم أمْر العالم؛ لأنّ صلاح أمْر العالم في هذه الدّنيا لا يتمّ إلاّ بالإجبار، والقهْر، والغلَبة؛ لاختلاف طبائع النّاس وهمَمهم في أدْيانهم وأمور دنياهم.

فلذلك أجْبروا النّاس على قبول الظّاهر والباطن؛ ليكون في قبولهم ظاهر شرائعهم، وقبولهم الحدود التي سنّوا فيها قوام أمورهم في دنياهم، وحقْن دمائهم، وتحْصين أموالهم وذراريهم، ومنعهم الفتنة من التّعدّي والفساد في الأرض، والبغْي والهرج، ويكون فيه صلاح أحوالهم.

وإذ كان فيهم العالِم والجاهِل، والصّالِح والطّالِح، والوَرِع والمنتهِكُ، والعاقل والغبيُّ، على اختلاف طبائعهم وتفاوت طبقاتهم؛ فلذلك، أمَرهم الله -عزّ وجلّ- أن يُلزِموا النّاس قبول ظاهر رسومهم وحدودهم بالقهْر والإجْبار؛ كما قال الله -عزّ وجلّ- لنبيّه محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُنَ الدّينُ كُلُّهُ للهِ﴾[3]. فأمَره بقتالهم، حتّى قبلوا ما جاء به.

---

[1] في الأصل: **تتفرق**.

[2] في الأصل: **سبيله**.

[3] سورة الأنفال (8)، الآية 39.

فلمّا أقام فيهم السّنن والأحكام الظّاهرة، أمَره أن يفوّض إليهم أمْر دينهم، فقال: ﴿لاَ إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعِرْوَةِ الوُثْقَى﴾[1].

وقال –تعالى–: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَولِياؤُهُمْ الطّاغوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[2].

فأمَره في آية أن يقاتلهم ويُكرههم على قبول ما أتى به، وأمَره في آية أن لا يُكرههم، وأن يخيّرهم في أمْر دينهم، ولا يُجْبرهم عليه ليختاروا لأنفسهم، وأمَرهم بطلب ما فيه نجاتهم من المعاني التي تحت شرائعهم الظّاهرة، وحثّهم على ذلك على أحْسن الوجوه بالأعْذار، والإنْذار، والموْعظة الحسنة، كقوله: "اطْلُبُوا العِلْمَ وَلو بالصّين"، وقوله: "طَلَبُ العلمِ فَرِيضةٌ عَلى كلّ مُسلم".

فهذا ما دلَّ عليه القرآن، وكذلك هو في سنّة النّبيّ.

قال –صلّى الله عليه وسلّم–: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَه إلاَّ الله، فَإِذا قالوها عَصِموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُمْ إلاّ بحَقِّهَا، وحِسابُهُم عَلَى الله".

ألاَ تراه يقول: "أُمِرَتْ أن أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاّ الله"؛ فقاتلهم حتّى قالوها وقبلوا شرائعه، ثمّ خيّرهم بعد ذلك.

كما رُوِي أنّه سُئل، فقيل له: "يا رسول الله، مَن قال: "لا إله إلاّ الله" دخَل الجنّة؟"، فقال: "نعم، مَن عرف حدودها وأدّى حقوقها".

فدَلّ أن بعد هذه الشّهادة وقبول شرائعها، الأمْر هو مُفوَّض إليهم في معرفة حدودها هي معرفة ما تحتها من المعاني، وتحت الشّرائع المنُوطَة بها، وأداءُ حقوقها هو القيام بظاهر شرائعها.

فهكذا سبيل شرائع الأنبياء (ع)، وبهذا نطَق القرآن وسائر الكتب، على حسب ما ذكرْنا.

---

[1] سورة البقرة (2)، الآية 256.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 257.

ويجب أن يُحكم في ذلك بما ادَّعوه (ع) لأنْفسهم ونطَقت به كُتُبهم، ولا يحْكم في ظاهر ألْفاظهم دون معانيها.

فإنّ مَن خالف ذلك جرى مجرى الملحِدين الذين قضوا على الأنبياء البَرَرَة بالكذب، والاختلاف، والتّناقض.

فكلام الأنبياء مبنيٌّ على الحكمة؛ والحكمة هي العمل بالعلم. فإذا اجْتمع العلْم والعمل، سُمِّي ذلك: حكمة. ومَن عمل عملاً بمعرفة وعلم سُمِّيَ: حكيمًا. والذي يعْمل عملاً بلا علم، فهو جاهلٌ؛ والجهل يدعو[1] إلى العدْوان والبغْي.

والأنبياء (ع) خُصُّوا بعلْم ما في شرائعهم المستحقّين الخاضعين، ولم يبخلوا به عليهم؛ وصانوه عن الباغين المعتَدين الذين ليسوا له بأهْل؛ كما رُوِي أنّهم قالوا: "لا تضعْ الحكمةَ في غير أهْلها فتُضيّعها، فتكون كمَن ينثر الدرّ بين أيْدي الخنازير؛ ولا تمْنعها عن أهْلها، فتكون قد ظلمتها".

فتدبّرْ –رحمك الله– ما قد شرحْته لك بعيْن النّصفة، واجتنبْ العناد والبغْي؛ وانْظر في سُنن الأنبياء، ورسومهم، وشرائعهم لِتعرف مرادهم، ولِتعلم لماذا قصدوا، وإلى ماذا دعوا؛ وليزول الشّكُّ والشُّبهة عن قلْبك؛ وتعْلم أنّ الملْحدين، حين عابوهم بالاختلاف في ظاهر شرائعهم، قد ضلُّوا عن سبيل الهُدى، لما جهلوا هذا الباب، ولم يعلموا أنّ تحت شرائعهم الظّاهرة المختلِفة ألْفاظها معاني تؤلّف بينها.

فعند ذلك ادّعوا عليهم التّناقض، كما ادّعى الملحِد في كتابه أنّ محمّدًا –صلّى الله عليه وسلّم– خالف موسى وعيسى (ع)؛ وأنّ بعضهم خالفوا بعضًا، وقال: "إنّ كتاب محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– مملوءٌ من التّناقض، وذكَر ما في التّوراة من ظاهر ما رسَمه موسى (ع) في ذكْر البساط والخوان، ووضع الشّحم والتّرب على النّار لسُرور الربّ".

وأنّ عتيق الأيّام في صورة شيْخ أبْيض الرّأس واللّحية، وما ذكر عن روّاة الحديث وأعلام الأمّة، ونسبهم إلى الجهْل، وذكرهم بالقبيح لروايتهم الأخبار التي ادّعى عليها

---

[1] في الأصل: **يدعوا**.

التّناقض، والتي تدلُّ على التّشبيه؛ مثل ما رُوِي عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: "رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَنْدُوَتِي"؛ وما في القرآن من الآيات التي ظاهر ألْفاظها يدلُّ على التّشبيه، مثل قوله –عزّ وجلّ–: ﴿الرّحمن عَلَى العَرْشِ اسْتوى﴾[1]، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَومئِذٍ ثمانِية﴾[2]، وقوله: ﴿الذين يَحْمِلُونَ العَرشَ وَمَنْ حَوْلَه﴾[3]؛ وقول رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–: "جَانِبُ العَرش على مَنْكِبِ إِسْرافيل، وإنّه ليَغطُّ أطيط الرّحلِ الجَدِيدِ".

هذا إلى غير ذلك، ممّا أورده الملحِد في كتابه، وشنّع به، وذكر أنّه تناقضٌ وخرافات.

ولَعمري، لو كان ما رسَمَه الأنبياء (ع) في شرائعهم، وما نطقَت به كتبهم، من عند غير الله، وكان ظاهرًا لا معاني له ولا تأْويل؛ لَكان الأمر على ما ادّعاه الملحِد.

فقد قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿أَفلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيه اختلافًا كَثيراً﴾[4]، يعني: أنّ مَن تدبّره، وَجَد فيه الأمثال المختلِفة الألْفاظ.

ولو كان من عند غير الله، ولم يكن مبنِيًّا على الحكمة، كما قلنا: إنّ من تحتها معاني غامضة تؤلّف بينها، لَوجدوا في ظاهره اختلافًا كثيرًا.

فلمّا كان من عند الله، وكان سبيله ما قلنا، زال عنه طعْن الملحِدين ودعاويهم أنّه متناقضٌ، وبطلت ظنون الظّالّين، وظهر صدْق النّبيّين الطّاهرين –صلوات الله عليهم أجمعين–.

ومَن سلك سبيل الملحِدين، وقضى في رسوم الأنبياء (ع) بالظّاهر دون المعاني والتّأويل، وقَع في الشّكّ والشّبهة، وأدّاه ذلك إلى العمى والحيْرة، وخرج إلى التّعْطيل

---

[1] سورة طه (20)، الآية 5.

[2] سورة الحاقة (69)، الآية 17.

[3] سورة غافر (40)، الآية 7.

[4] سورة النّساء (4)، الآية 82.

والإلْحاد، كما ظنّ المُلْحِدون. إلاّ الضُّعفاء المقلِّدون الذين لا يُحْسنون النّظر، ولا يسْتطيعون أن يميّزوا، وليس ذلك في وسْعهم؛ فأولئك قد وعَدهم الله العفْو والرّحمة.

وقد أمَر الله –عزّ وجلّ– بردّ ما اخْتلف لفْظه والْتبس معْناه من آيات القرآن والأخبار التي رُويت، ممّا ظاهرها يدلُّ على التّشْبيه؛ وأنّ فيها تناقضًا واخْتلافًا إلى العلماء.

فقال –جلّ ذكره–: ﴿وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وإلى أُولِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذّينَ يَسْتَنْبِطُنَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لاتَّبَعْتُمْ الشّيطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1]، أي: لولاَ تفضُّلَه علينا ورحْمته بنا، حين أقام فينا مَن نَرُدّ إليه ما نختلف فيه، ليسْتنْبطه بما أوتي من العلْم، لكي لا نضلّ ولا نشكّ؛ لَشكّ أكثر النّاس، وصاروا أتباعًا للشّياطين الذين يطْعنون على الأنبياء البرَرَة، وينسبونهم إلى ما هم منه براء.

وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونْ بِاللهِ واليَوْمِ الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[2].

قالوا في تفسير ذلك: "رُدّوا إلى الله"، أي إلى الكتاب؛ و"إلى الرّسول"، أي إلى السّنّة.

وفي كلّ زمان وأوان مَن يقوم بالكتاب والسّنّة، ويستنبط تأويل ما يخْتلف لفْظه.

فسبيل ما في الكتب المنزَّلة وفي أخبار الأنبياء (ع)، كما ذكرْنا: أنّ منها ما يقع فيه النّسخ، فيختلف الحكْم فيه؛ ومنها[3] ما يستغْلق معْناه؛ ومنها ما معْناه واضحٌ.

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 83.

[2] سورة النّساء (4)، الآية 59.

[3] في الأصل: **منه**.

الفصل الخامس
في ما ذكره الملحد مما في التوراة

والذي ذكره الملحِد ممّا في التّوراة، قوله: "ما لكم تقرّبون إليَّ كلّ عرْجاء وعوْراء؟". فإنّ الله امْتحن عباده بالأعمال التي سنّها الأنبياء (ع) في كتبهم وسُننهم، مثل الصّلوات، والصّيام، والزّكاة، والقرابين، وغير ذلك.

ولما امتُحِنوا بالقرابين، كان [منهم] صادق النّيّة، ومَن كان فاسِد النّيّة، والأُمم كلّها لا تخلو من ذلك.

فمَن صدَقتْ نيّته، قرّب خيْر ما يملكه؛ ومَن ضعفتْ[1] نيّته، قرّب أردأ ما يمْلكه؛ فكان أصحاب النّيّة الفاسدة يقرّبون إلى الله كلّ عرْجاء وعوْراء، لو أهدوها إلى أمثالهم من النّاس، لاسْتحقروها ولم يقْبلوها. فوبّخهم الله على ذلك، ليرتعدوا ويُخلصوا نيّاتهم.

ومثل هذا في القرآن؛ فإنّه لما افترض الله الزّكاة في هذه الأمّة في أموالهم، فمَن ضعفت نيّتهم كانوا يخرجون من زكوة تمورهم: التّعضوض والمعافر، وهما جنسان من رديء التّمر، فأنزل الله –عزّ وجلّ–: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا أنفِقُوا مِنْ طَيِّبَات مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِن الأَرْض وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخذِيهِ إلاَّ أن تُغْمِضُوا فيه﴾[2]، أي: لا تقْصدوا إلى أخْبث التّمور وأردئها، فتخرجوه في زكاة أموالكم. وإن احتجْتم أن يأخذه بعضكم من بعض لا تأخذوه حتّى تغمضوا فيه، أي ترخّصوا فيه.

﴿واعْلَمُوا أَنَّ الله غنيٌّ حَمِيدٌ﴾[3]، أي: غنيٌّ عن أموالكم يحْمدكم على حسْن أعمالكم.

---

[1] في الأصل: **عرف**.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 267.

[3] سورة البقرة (2)، الآية 267.

ثمّ قال: ﴿الشَّيْطان يَعِدُكُمْ الفَقْرَ وَيأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ﴾[1]، أي: يعدكم أنّكم إذا أخرجْتم زكاة أموالكم افتقرْتم.

﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ﴾[2]، قالوا: الفحشاء هي البخل.

﴿واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[3]، أي: يخلف عليكم أفْضل ممّا تنفقون وأكثر منه؛ وعرّفهم أنّه يمْتحنهم، ويمْتحن نيّاتهم.

فهذا مثل ما في التّوراة سواء؛ حين قال: "ما لكم تقرّبون إليّ كلّ عرجاء وعوراء"، أي: إنّ الله امْتحنكم بالقرابين، ليظْهر مَن هو صادقُ النّيّة ممَّن هو فاسدُ النّية؛ ووبّخَ مَن فسدت نيّته وأساء اختياره لنفْسه في إيثار الدّنيا على الدّين لشحّه، وقرّب أرْدأ ما يمْلكه مثل العوراء والعرجاء، وبكّتهم على ما ظهر من سوء نيّاتهم، ليرجعوا عن ذلك ويصْلحوا سرائرهم.

فسبيل ما في التّوراة من ذكر العوراء والعرجاء، وما في القرآن من قوله –عزّ وجلّ–: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾[4] واحدًا.

وهكذا السّنّة في الإسلام، في الهدَى والبُدْن التي تُنحر بمنى للقربان، وفي سائر الأمصار من الضّحايا؛ ولا يجوز فيها العوراء والعرجاء، ولا ذات عيْب، ولا يصْلح إلاّ صحيحة غير معيوبة.

والله –عزّ وجلّ– لا يصل إليه نفْع ما يهديه النّاس ويقرّبونه إليه –تعالى الله عن ذلك–، بل تصل إليه أعمال العباد، وما يظهر من نيّاتهم؛ كما قال –جلّ ذكره–: ﴿لَن ينالَ اللهَ لُحُومُها ولا دماؤُها وَلَكِنْ يَنَالَهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا الله عَلَى مَا هداكُمْ وَبَشِّر المحْسِنِينَ﴾[5].

---

[1] سورة البقرة (2)، الآية 268.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 268.

[3] سورة البقرة (2)، الآية 268.

[4] سورة البقرة (2)، الآية 267.

[5] سورة الحجّ (22)، الآية 37.

فقد بيّن –عزّ وجلَّ– أنّه يمتحنهم بذلك، ليُظهر تقْواهم وشكْرهم لله على ما هداهم، ويُظهر صدْقَ نيّاتهم.

وكذلك سبيل الشّحم والتّرب الذي أُمِروا أن يضعوه على النّار لسرور الرّبّ. أتراه –عزّ وجلّ– أراد أن يصل إليه قتار ذلك الشّحم والتّرب؟! عزّ الله عن ذلك وتعالى عمّا يظنُّ به الملحِدون علوًّا كبيرًا.

وأمّا ما ذُكر من أمْر البساط الرّقيق من أبريسم، والخوان من الشّمشار، وغير ذلك ممّا استفظعه الملحِد وعابه؛ فإنّ ذلك كلّه صحيحٌ، وسبيله ما قلنا: إنّها أمثال، وتحتها معان غامضة.

وما لم يذْكره الملحِد، ممّا هو في التّوراة من هذا الباب، هو كثير جدًّا؛ ممّا أمَر به موسى (ع) بني إسرائيل في اتّخاذ قبّة الزّمان وآلاتها.

يقول في التّوراة: "كلّم الرّبُّ موسى وقال الله: "قُل لبني إسرائيل ليجمعوا الذّهب، والفضّة، والنّحاس، والرّقم، والأرجوان، والقرمز، ومسوك الكباش، ومسوك الأدم، وخشب السّنط، وحجارة البلّور، والأحجار الجيّدة لقواعد البيت، ليصْنعوا لي مقدسًا، لأحلّ بينهم".

ثمّ وصَف لهم كيف يتّخذون قبّة الزّمان، وكم ذراعًا يكون طولها، وعرْضها، وسمْكها، وأساطينها؛ وكمْ أسْطوانة تكون من فضّة، وكم اسطوانة تكون من نُحاس.

وأمَرهم باتّخاذ المذْبح، واتّخاذ تابوت الشّهادة من خشب الشّمشار، طوله ذراعان ونُصْف، وعرْضه ذراع ونصف، وارْتفاعه ذراع ونصف؛ ويجْعل له أربع حلقات ذهب في أربع زواياه فوق أربع قوامه، وعمدًا من خشب الشّمشار، ليحمل بها التّابوت، وتغشّى بالذّهب. واتّخاذ حشًا من ذهب خالص طوله ذراعان ونصْف، وعرْضه ذراع ونصْف، وارْتفاعه ذراع ونصْف؛ ويجعل له كروبيْن من ذهب يجعلهما من كلاَ جانبيْ الحشا: كروب من جانبه من هاهنا، وكروب من جانبه من هاهنا.

ويجْعل على أعْلى الحشا، ووجْههما متقابلان على الحشا. واتّخاذ مائدة من خشب الشّمشار، وتغشّى بالذّهب الخالص ويجْعل لها إكليل من ذهب، وصحاف،

ومشارب، وبراطيل، ومحاسٍ يغرف بها من ذهب خالص، وسلاسل، وخمسون كلبة من نحاس، ورفوف البيت من ذهب، وستوره رقم، وشقاق من قياطين، وبساط من أبريسم رقيق، وبخور، ودخنة، ولبان، وطيب، ودهْن البنفْسج المقدَّس، وقميص كتّان لهارون، وهميان مضفور يشدّ به ظهْره؛ وأن يذْبح الثّور بين يديْ الرّبّ ويرشَّ الدّم على المذْبح، ويجعل الثّرب، وزيادة الكبد، والكليتيْن وشحْمهما على المذبح قدّام الرّبّ؛ ويُذْبَحُ كبش، ويُنضَح دمه على طرف أذن هارون وولده، وعلى أباهيم أرْجلهم، ويُغسَل الكبش وبطْنه وأكارعه وأعضاؤه؛ ويُقطَّع على أعضائه ورأسه، ويُصعَد به على المذبح لقربان الرّبّ.

فقد ذُكِرَ في التّوراة نحْو هذه الصّفات في باب اتّخاذ قبّة الزّمان، وآلاتها، والتّابوت، والمنارة، وآلاتها، وغير ذلك.

وذكرْنا هذه على الاختصار، فإنّ لكلّ شيء ممّا ذكرنا صفات طويلة؛ ولعلّ هذه الصّفات في التّوراة تكون في طول سورة البقرة.

فذكرْنا هذا المقْدار، لأنّ الملحِد ذكر البساط من أبريسم، والشّحم، والثّرب، واستفْظعه.

وعاب فعْل موسى جهلاً منه، ولم يعْلم أنّ موسى حين اتّخذ هذه الأسباب، ضرَب به الأمثال كما قلنا.

فزعم أنّها خرافات، واتّخذها هزؤًا[1] ولعبًا؛ واسْتظْهر بدعوى المنّانيّة[2]: أنّ موسى كان من رُسُل الشّياطين، وقال: "مَن عُني بذلك، فلْيقرأ "سفر الأسْفار" الذي للمنّانيّة؛ فإنّه يطّلع على عجائب من قوْلهم في اليهوديّة[3]، من لدن إبراهيم إلى زمن عيسى".

وهل قالت المنّانيّة بجهْلهم في ذلك إلاّ مثْل ما قال الملحِد بقلّة معرفته، حين عاب هذه الأسباب التي في التّوراة، وزعَم أنّها خرافات، جهلاً منه بمُراد موسى في ذلك،

---

[1] في الأصل: **هزوا**.

[2] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك – أو فتّق –، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.
انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250– ص251.

[3] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى –عليه السّلام–: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى –عليه السّلام– وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى –عليه السّلام– وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

وبما ضُرب فيها من الأمثال؛ فعدّ الملحِد ذلك سخفًا وخرافات؛ وإنّما هي أمثال تحْتها معانٍ غامضة، يعْلمها حكماء الدّيانة الذين يعْرفون معاني كلام الأنبياء (ع).

ولم يكنْ موسى وسائر الأنبياء، مع براعتهم وكمالهم، على حسب ما تقدّم وصْفهم، يجهلون من هذا ما عرفه الملحِد.

وموسى (ع)، مع كمَاله، وما ظهَر منه[1] للأنام من اسْتحكام رأيه، ووُفور عقله، وأفعاله العظيمة التي كانت منه، ولا يكون مثلها إلاّ من أكْمل النّاس، وممَّن يكون مؤيّدًا؛ كان يعلم أنّ الله –عزّ وجلّ– لا يحْتاج إلى بساط من أبريسم يقْعد عليه، أو خوان من خشب الشّمشار يأكل عليه، أو قبّة يجلس فيها، مثل القبّة التي أمر موسى باتّخاذها على تلك الصّفات المكْتوبة في التّوراة، والتي سمّاها: قبّة الزّمان، وإلى هذه الأسْباب والآلات التي ذكرناها؛ وأنّ الله –عزّ وجلّ– هو مُقدَّس عن هذه الأمور.

وهذه، إن لم تكن أمثالاً كما قلْنا، فهي من فعْل المجانين، ومَن لا يعْقل قوله.

ونعوذ بالله من قول مَن يظنّ بموسى (ع) هذا الظنّ؛ بل كان أطْهر، وأزْكى، وأكْمل من ذلك. ولكنّه، لما اصْطفاه الله –عزّ وجلّ–، وبعثه بالرّسالة، ضرب للنّاس هذه الأمثال العجيبة، وأشار إلى معانيها الجليلة، ليعتبر بها النّاس.

ومثال تلك القبّة في التّيه الذي كانوا فيه، مثال الكعبة التي وضعَها الله للنّاس، وحجّها النّبيّون (ع) في الأمم السّالفة؛ ثمّ جدّد رُسومها إبراهيم (ع) وحجّها؛ وجعلها محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– قبلة لأمّته، وأمر بحجّها.

وسمّوها: بيتَ الله، وقد علموا أنّ الله –عزّ وجلّ– لا يحْتاج إلى بيت يسكن فيه، وأنّ البيوت كلّها لله. ومثْل تعظيمهم لبيت المقْدس، واتّخاذهم إيّاه قبْلة.

وهكذا كان سبيل قبّة الزّمان التي اتّخذها موسى (ع)، وكذلك سبيل البساط، والخوان، والشّحم، والتّرب الذي أمر أن يجعل على النّار لسرور الرّبّ؛ وسبيل سائر الفرائض والسُّنن استعْبد الله بها عباده على ألْسِنَةِ الأنبياء (ع) الذين شرّعوا الشّرائع، وأمروا النّاس بإقامتها.

---

[1] في الأصل: **من**.

ولو أنّ الأمْر هكذا، لَكانت هذه الأفعال التي عاب بها الملحِد الأنبياءَ (ع) عبثًا وجنونًا، ولَكانت من أمْحل المحال؛ كما يقدّره الجُهّال والملحِدون والضُّلاّل الذين اتّخذوها هزؤًا[1]، ودعاهم الجهْل إلى الخروج عن الشّرائع، وإيثار التّعطيل والإلْحاد.

أفَتَرى الأنبياء الطّاهرين حين شرّعوا هذه الشّرائع التي قد خلدت على الدّهْر، ورسموا هذه الرّسوم الباقية إلى الأبد، لم يعرفوا معْنى ما يعرفه الملحِدون، وهم أكْمل البشر، وكلّ واحد منهم كان قطبًا للأنام في دهْره؟!

أوَتَرى المسيح (ع) حين قال في الإنجيل: "لا تظنّوا أنّي جئتُ لأُبطل التّوراة والأنبياء؛ لم آتِ لأُبطلها، بل جئتُ لأُكملها. والحقّ أقول لكم: إنّ زوال السّموات والأرض أيْسر من زوال حرف واحد من التّوراة. فمَن نقّص وصّية واحدة من هذه الوصايا الصّغار، وعلّمها النّاس منقوصة، يُدعَى في ملكوت السّماء عظيمًا".

وقد قيل في التّوراة: "إن مَن طلّق امرأته، فليعطيها كتاب الطّلاق"، فأمّا أنا أقول لكم: "كُلّ مَن طلّق امْرأته من غير زنى وتزوّج أخرى، فقد زنى وألْجأَها إلى الزّنى؛ ومَن تزوّج مطلّقة في الزّنى، فقد زنى".

فتَلى عليهم هذا الحكْم الذي هو في التّوراة، ثمّ عطّله؛ وعطّل أكثر أحْكام التّوراة، وغيّر ظواهر رسومها؛ وعطّل السّبت، وأقام بدَله الأحد؛ وقد عُلِم أنّ موسى أمر أمّته بإقامته، وكتب ذلك لهم في التّوراة ثمّ عطّله؛ وعطّل أكثر أحْكام التّوراة، وشدّد الأمْر فيه، وأخبرهم أنّ ذلك عن أمْر الله –عزّ وجلّ–، فقال في التّوراة: قال الله لموسى: "قُل لبني إسرائيل: أحفظوا السّبوت، لأنّها آية بيني وبينكم، ولتعلموا أنّي أنا الرّبُ إلهكم، فاحْفظوا السّبت، فإنّه قدس لكم. ومَن عمل فيه عملاً، فلينبذوا ذلك الإنسان من شعبه.

اعملوا الأعمال ستّة أيّام، وفي اليوم السّابع سبت الرّاحة قدسًا هو للرّب. كلّ مَن عمل يوم السّبْت، فلا يُقبَل. وليحفظ بنو إسرائيل في اتّخاذ السّبت لأعقابهم عهدًا إلى الدّهْر ما بيني وبين إسرائيل أبدًا إلى الدّهر، لأنّه في ستّة أيّام خلق الله السّماء والأرض وما فيهما، وفرغ في يوم السّابع".

---

[1] في الأصل: **هزوا**.

وفي موْضع آخر في التّوراة: "اعملوا الأعمال في ستّة أيّام، واصْنعوا ما أردْتم أن تصنعوا فيها. فأمّا يوم السّبت، فسبوت لله ربّكم، لا تعملوا فيه عملاً أنتم، وبنوكم، وعبيدكم، وإمائكم، ونسوانكم، وحرمكم، وكلّ بهائمكم، والسُّكّان الذين في قراكم، ليسْتريح عبيدكم وإماؤكم معكم".

وهو أشدُّ ما أُلزِموا من الفرائض في دينهم، فنسخه عيسى (ع) بالأحد، مع شهادته بصحّة التّوراة، ثمّ ينْسخها وينسخ أحكامها؟

ولو لمْ يكن هذا بحكْمة، ولم يكن الأمْر كما ذكرنا: أنّ قوْلهم وفعْلهم، وما أُمِروا به كلّه، كان أمثالاً يختلف ظاهرها وتتّفق معانيها؛ لَكان الأمر أفْضع ممّا ادّعاه الملحِد؛ ولَكان يجب أن يُحكَم على مَن يفعل هذه الأفْعال بالجهْل وعدم العقْل –ونعوذ بالله من ذلك–؛ بل كان أطْهر، وأزْكى، وأكْمل من ذلك.

وهكذا كانت سبيل محمّدٍ –صلّى الله عليه وسلّم– في شهادته لموسى وعيسى (ع) بالصّدق والنّبوّة، وفي نسْخه[1] السّبت والأحد، وإقامته الجمعة بَدَل ذلك، وفي نسْخه شرائعهم على ما تقدّم القوْل به.

ولكنّ الملحِد لم يعْرف رسوم الأنبياء، وسُنَنهم، ومُرادهم فيما فعلوا، وأسكرتْه وساوسه؛ فحكم عليهم بالتّناقض والاختلاف؛ وترك أيضًا رسْم الفلاسفة الحُكماء المحِقّين؛ فإنّهم رسموا أيضًا في كلامهم كان عويصًا غامضًا، إلاّ ما هو من كلام المبتدِعين الذين نظروا في رسوم الفلاسفة الحكماء وابْتدعوا الوسَاوس[2] المتناقِضة، مثل الملحِد وأشْباهه.

فلو تدبَّر الملحِد هذه الحال واستيْقظ من سكْره، وعرف مذاهب الأنبياء، لَعَلم أنّ كلامهم وشرائعهم ليس فيها تناقضٌ ولا اختلافٌ؛ أو لو تدبَّر تناقض كلام أئمّته المبتدِعين، إذ لم يعْرف رسوم الأنبياء، وغفَل أيضًا عن رسوم الفلاسفة المحِقّين، ثمّ كان يشْتغل بما جاء عن أئمّته من الاخْتلاف الكثير، والتّناقض القبيح، وتكْذيب بعْضهم

---

[1] في الأصل: **نسخة**.

[2] في الأصل: **الوسواس**.

لبعْض؛ لَكان ذلك أوْلى به، وأوْجب عليه، وأقْرب من الإنْصاف؛ فإنّ ذلك واضحٌ في كتبهم.

وكلام هؤلاء الذين تشبَّهوا بالفلاسفة الحكماء كان مُجرَّدًا بلا قُشُور، وليس هو على رسم كلام الأنبياء الذين ضربوا الأمثال، ولا على رسْم كلام الفلاسفة الحُكماء الذين تكلّموا بالعَويص، على نحو ما حكيْنا أنّه في كتاب برقلس الفيلسوف، وفي كتاب ديمقراط، وغيرهما.

فأمّا المبتدِعون الذين تشبّهوا بالفلاسفة، فإنّهم أوْردوا في وساوسهم، وفيما ابتدعوه بآرائهم المدخولة من القول في الباري، وفي كوْن العالم، وفي أوائل الأشياء، من الاخْتلاف والتّناقض ما فيه للمُلحِدين خزْيٌ عظيمٌ، وشناعة قبيحة، وشغل شاغلٌ لهم عن الطّعْن على الأنبياء الطّاهِرين.

فإنّهم لم يدعوا شيئًا تكلّموا فيه من هذه الأسباب إلاّ اختلفوا فيه، ونقَض بعضهم على بعض، ونسَبوا كثيرًا من دعاويهم إلى الفلاسفة القُدماء الحُكماء، وقبّحوا أمْرهم عند النّاس، حتّى أجروهم[1] مجْرى الضّلال؛ ونفرت قلوب النّاس من النّظر في أصولهم.

فكيْف لم يَعْجب الملحِد من اخْتلاف أئمّته، وكلامهم المتناقِض، وبِدَعِهم التي ابْتدعوها؛ كما ابْتدع هو مقالته السّخيفة التي تدلّ على ضعْف عقله، من القوْل بِقَدَمِ الخمسة؛ وخالَف مَن تقدّمه، وادّعى أنّه نظير سقراط[2] وأرسطاطاليس[3]، وتشبَّه بالفلاسفة

---

[1] في الأصل: **أجورهم**.

[2] هو سقراط بن سقراطيس، من أهل مدينة أثينا. وقد تكلّم سقراط على الفلسفة بكلام لم يدْروا منه كثير شيء. والذي خرج من كتبه: *مقالة في السّياسة*، وقيل إنّ رسالته في السّيرة الجميلة له صحيح. وسقراطيس معناه ماسك الصحّة. وكان زاهدًا خطيبًا حكيمًا، وقتله اليونانيّون لأنّه خالفهم. وكان الملك الذي تولّى قتله: أرطاخشت. ومن أصحاب سقراط: أفلاطون. وقال إسحاق بن حنين: عاش سقراط قريبًا ممّا عاش أفلاطون، وقد عاش أفلاطون ثمانين سنة.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص 245.

الحُكماء، كما تشبَّه بهم مَن كان على مثل مذْهبه من الضّلال، وابْتدَعوا الوسْواس؟!

وكيْف لم يكْشف مستور أكاذيب هؤلاء ودفينها، ولم يهْتك سُتور عيوبهم؟! فكان يسْقط رياسته وتكبُّره!!

ولكن طعَن على أهْل الشّرائع، وزعَم أنّهم ينهون عن النّظر، مخافة أن ينْكشف دفين أكاذيبهم، ويهتك النّظر ستورَهم؛ فتسْقط رياستهم وتكبّرهم.

فإنّه لو تأمّل حال نفسه من مخالفته لهم، وأحوالهم في اخْتلافهم، لَوجد في أصولهم من تكْذيب بعْضهم بعضًا، ونقْض بعْضهم على بعض، ما كان يشْغله عن عيْب الأنبياء والطّعن عليهم؛ ولكن نظر بعيْن العمى، وحكَم بالهوى، وضلَّ عن طريق الهُدى في الأُولى، حتّى لحق بأمّه الهاوية في الأخرى، يعضُّ على يديْه، ويقول: "يا ليتني اتّخذتُ مع الرّسول سبيلاً!".

---

[3] يقول ابن النّديم في *الفهرست*: "من كتاب فلوطرخس: أفلاطون بن أرسطن، ومعناه: الفسيح. وذكر ثاون أنّ أباه يُقال له أسطرن، وأنّه كان من أشراف اليونانيّين. وكان في قديم أمره يميل إلى الشّعر، فأخذ منه بحظّ عظيم، ثمّ حضر مجلس سقراط فرآه يثلب الشّعر فتركه، ثمّ انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة. وعاش فيما يُقال إحدى وثمانين سنة. وعنه أخذ أرسطوطاليس وخلفه بعد موته. وقال إسحاق أنّه أخذ عن بقراط. وتوفّي أفلاطون في السّنة التي وُلد فيها الإسكندر، وهي السّنة الثّالثة عشر من ملك لاوخوس وخلفه أرسطوطاليس، وكان الملك في ذلك الوقت بمقدونية فيلبس أبو الإسكندر. من خطّ إسحاق: عاش أفلاطون ثمانين سنة. ما ألّفه من الكتب، على ما ألّفه ثاون ورتّبه، كتاب *السّياسة*، كتاب *النّواميس*. قال ثاون: وأفلاطون يجعل كتبه أقوالا يحكيها عن قوم، ويسمّي ذلك الكتاب باسم المصنّف له. فمن ذلك قول سمّاه *تالجيس* في الفلسفة، قول سمّاه *لاخس* في الشّجاعة، قول سمّاه *خرميدس* في العفّة، قولان سمّاهما *القيبادس* في الجميل...

حول ترجمته راجع: *المرجع المذكور*، ص245-ص246. بيروت. د. ت.

الباب الرّابع

الفصل الأوّل
ذكر شيء من اختلاف الفلاسفة
وتناقض كلامهم

ونحن نذْكر شيئًا من اخْتلافهم، وتناقض كلامهم، وأقاويلهم الشّنيعة القبيحة؛ وأكشف عن المحالات والخرافات التي ابْتدعوها في أُصولهم دون الفروع، وأخْتصر القول فيه؛ فإن اسْتقصيْنا في ذلك، طال القول به جدًّا.

مع ذلك، فإنّ هؤلاء المبتدِعين قد خلطوا بِدَعَهم بكلام الفلاسفة المحِقّين، ونسبوا كثيرًا من ذلك إلى الحُكماء القدماء: كما نسبت المجوس[1] قولهم بالاثنيْن، وكما نَسبَت النّصارى[2] قولهم إلى المسيح أنّه ابن الله، إلى الأنبياء.

---

[1] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين: أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني محدث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[2] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معربّة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون –كالزّمخشري– إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة

ويصعب عليْنا أن نميّز المحِقّ منْهم من المبطِل، وأن نميّز كلام المبتدِعين منْهم من كلام الحُكماء القُدماء المحِقّين.

ولكنّا نذْكر مقالة كلّ امرئٍ منهم، ونسْبها إلى مَن نسبوها إليه، ونذْكر رسمًا من اختلافاتهم وتناقض كلامهم، لِتسْتدلّ به على ما وراءه من ضلالهم وعمى قلوبهم، ولِتعلَم أنّ الملحِد لم يبْصر السّرية في عيْنه ورأى في عيْن غيره قذاة، وما بها من قذيّ، حين غفل عن اختلاف أئمّته الذين هم قُدْوَته وقُدْوَة أشباهه من الملحِدين الذين زعموا أنّهم اسْتدْركوا بفطنهم وعقولهم معرفة كيفيّة الخالق الباري –جلّ وتعالى–، وأنّهم عرفوا المبادئ، وأحاطوا بالفلك وما وراءه، وأدْركوا معْرفة طبائع الأشياء كلّها، ونُشوء جميع الخلائق من الابْتداء إلى الانْتهاء، من غير توقيف من رسول مبْعوث من الله –عزّ وجلّ– خالق الخلْق الذي لا يعْزب عنه مثْقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، ولا أصْغر من ذلك ولا أكْبر.

فزعموا أنّهم بلغوا بآرائهم المدخولة، وعقولهم التّائهة، وقلوبهم الموسْوسة، اللّطائف من لدن تحت الأرض السّابعة إلى أعْلى علّيين، افتراءً على الله وكفرًا به؛ فضلُّوا ضلالاً بعيدًا، وخسروا خسرانًا مبينًا، وقالوا على الله غير الحقّ، وما كانوا مُهتدين؛ ﴿وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُنَ﴾[1].

على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

[1] سورة الشّعراء (26)، الآية 227.

الفصل الثّاني
في اختلاف الفلسفة في المبادئ

قال سقراط وأفلاطون[1]: إنّ المبادئ ثلاثة، وهي الله، والعنْصر، والصّورة.

والله هو العقل -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-، وهو واحدٌ بسيطٌ، وهو غير مختلط بالعُنصِر، ولا مُشارِكًا شيئًا ممّا يقبل التّأثير.

والعُنْصر هو الموْضع الأوّل للكوْن والفساد.

والصّورة: جوْهر لا جسْم في التّخييلات والأفكار المنسوبة إلى الله.

وقالاَ: الله عقْل هذا العالم -عزّ الله عن ذلك-.

وقال أفلاطون[2]: إنّ الله خلَق هذا العالم على مثال صورته؛ ولو لم يكن كذلك، لَمَا تهيّأ أن يكون كوْن على هذه الصّورة التي هو عليها.

---

1 في الأصل: **أفلاطن**.

2 في الأصل: **أفلاطن**.

وقال ثالس[1]، وهو أحد السّبعة الذين يُدعَون أساطين الحكمة: إنّ الله هو العقل للعالم –عزّ وتعالى–. قال: إنّ المبدِع إنّما هو فقط؛ ومؤيّس الأشياء لا يحْتاج إلى أن تكون عنده صورة الشّيء بأيسيّته؛ وإلاّ، فقد لزمه، إن كانت الصّورة عنده، أن لا يكون مقدار الصّورة التي عنده. وإذا كان كذلك، فليس هو مبدعًا.

وخالفه كسنوفانس وفلوطرخس في قِدَمِ الصّورة، وقالا[2] في مبادئ الأشياء ما نذْكره في موضعه –إن شاء الله تعالى–.

---

[1] أوّل فيلسوف بحث في أصل الكون وطبيعته هو طاليس الملطي المتوفّى حوالي سنة 547 ق. م. الذي قال إنّ الماء هو أصل كلّ شيء. وليس المهمّ في ذلك ردّه الأشياء إلى الماء، إنّما المهمّ أنّه:

1– كان أوّل مَن عبّر عن أفكاره بعبارات منطقيّة معقولة، فهو لم يفسّر الكون بالخرافات والأساطير، ولا بالقوى الخفيّة وقوى الآلهة، بل على أساس عقليّ علميّ معلّل يرتبط فيه المعلول بالعلّة ارتباطًا وثيقًا.

2– كان أوّل مَن أرجع الكون كلّه إلى عنصر واحد. فلقد رأى من تعدّد صور الأشياء وتباينها وحدة شاملة تكمن وراءها، إليها ترتدّ جميع الأشياء، وعنها صدرت. فتعدّد الأشياء الظّاهر للحسّ أمر سطحيّ لا قيمة له، إنّما المهمّ ما يكمن وراءه. إنّ طاليس لا يهمّه تنوّع الكائنات والأشياء، إنّما يعنيه الغوص على الحقيقة البسيطة الواحدة التي تضرب في الأعماق، دون نظر إلى ما يبدو للحسّ الظّاهر. وسواء فشلت محاولته هذه أم لم تفشل، فهي المحاولة الفلسفيّة الأولى التي تنظر إلى الكون نظرة كلّيّة شاملة وتضع له تفسيرًا واحدًا يستوعب جميع جزئيّاته.

حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص86 – ص87.

[2] في الأصل: **قال**.

وقال إبيقورس[1]: إنّ الإله في صورة النّاس، وإنّه متصوّر بالعقل للطّاقة طبيعة جوْهره.

وقال بأربع طبائع أُخَر غير قابلة للفساد في جنْسها، وهي: الأجزاء التي لا تتجزّأ، والخلاءُ، وما لا نهاية له –ويسمّيها المتشبّهات–، والأسْطقسّات.

وقال أنكساغورس[2]: إنّ العقْل هو الإله –عزّ وجلّ عن ذلك–، وإنّ الأجسام كانت أوّلاً في المبدأ واقفة، وإنّ العقل الذي هو الإله رتَّبها وجعل لها تولُّدًا على مناسبات.

وقال بيروس: ليست أوائلُ بتّة، إنّما الأشياء تخرج من ذاتها؛ ولا فعلٌ.

فلا تزال تخْرج إلى الفعْل؛ فإذا خرج ما كان بالقوّة إلى الفعْل، فحينئذ تكون الأشياء من ذاتها، لا من شيء آخر. فلا تزال تخْرج، حتّى تتمّ؛ فإذا تمّت، صارت كالتي

---

[1] أو إبيقور (270–341 ق.م) هو فيلسوف يوناني قديم، وصاحب مدرسة فلسفية سميت باسمه (الإبيقوريّة). قام بكتابة حوالي ثلاثمائة منجز لم يصلنا منهم إلا بعض الأجزاء والرسائل ومعظم ما وصلنا من الفلسفة الإبيقورية مستمد من التابعين لها وبعض المؤرخين ومنها النصوص التي حفظها ديوجينس اللايرسي Diogéne، فهي رسالة موجهة إلى هيرودوت في الطبيعيات، ورسالة موجهة إلى فيتوكليس في الآثار العلوية، ورسالة موجهة إلى ميناقايوس في الأخلاق؛ ومئة وإحدى وعشرون فكرة هي ملخص المذهب. غاية الفلسفة بالنسبة لإبيقور كانت الوصول للحياة السعيدة والمطمئنة ولها خاصتين "Ataraxia"، وتعني الطّمأنينة، والسّلام، والتخلّص من الخوف و"Aponia"، وتعني غياب الألم، والاكتفاء الذاتي محاطًا بالأصدقاء. قال إبيقور إنّ السّعادة والألم هما مقياس الخير والشرّ، وأنّ الموت هو نهاية الجسد والرّوح، ولهذا لا ينبغي أن نرهبه، وأنّ الآلهة لا تكافئ أو تعاقب البشر، وأنّ الكوْن لا نهائي وأبدي، وأنّ أحداث الكوْن تعتمد بالأساس على حركات وتفاعلات الذرّات في الفراغ.

[2] (أو أنكساغوراس) وهو يرى أنّ أصل الكوْن هو عدد لا نهاية له من العناصر أو البذور يحرّكها عقل رشيد حكيم بصير. توفّي سنة 428 ق. م.

حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص87.

تراها، وتحسّ بها، وتدْركها بالحواسّ الخمس؛ وليس معقول بتّة إلاّ ما كان من الحواسّ، وما أدْركته الحواسُّ.

وقال: إنّ العالم دائمٌ لا يزول، ولا يفْتر، ولا يضمحلّ؛ ولا يجوز أن يكون أوّل مُبدِع يفعل فعلاً يدثر، إلاّ وهو يدثر مع فعله. وهذا العالم، وهو الكلُّ المِمسِك لهذه الأجزاء التي فيها.

وهذا هو القوْل بالدّهر الدّاهر.

وقال برقلس أيضًا بدهْر هذا العالم، وأنّه باقٍ لا يدثر؛ ووضَع في ذلك كتابًا، وقال: إنّما اتّصلت العوالم وصارت عالمًا واحدًا؛ فهو باقٍ لا يدثر، وهو مُتّصِلٌ بالعالم الأعْلى، والعالم الأعْلى صافٍ، وهذا مُصفًّى؛ فآخر هذا العالم هو بدءُ ذلك العالم؛ وليس هذا العالم بداثر، لأنّه مُتّصِلٌ بما ليس بداثر، بل تدثر قشوره، لأنّ ما كان من الباري بلا متوسّط لا يضمحلّ ولا يدثر؛ والدّثور يدْخل على الشّيء من نحْو المتوسّطات.

وقال إبيقورس مقالة خالف فيها جميع الفلاسفة وتفرَّد بها، وكان يقول: إنّ الأوائل اثْنان: الخلاءُ والصُّورة؛ يعني بالخلاء، نفْي المكان؛ وأمّا الصّورة، فكالهيولي التي منها أُبدِع الخلْق، وكُوّن كلّ ما في العالم.

وزعَم أنّها ليست مُكوَّنة، بل كان منها كوْنٌ؛ لأنّ المكان والخلاءَ المحْض منها كُوّنا. وهي فوق المكان، وفوق الخلاء؛ فكلّ ما خُلِق منها، أو كُوّنَ، أو أُبدِع بأنْواع الإبْداع والتّكوين والخَلْق كلُّه ينحلُّ ويفْسد ويدثر ويفْنى، حتّى يرْجع إلى الخلْق الأوّل الذي منه بُدئ.

وليْس بعد الدّثور والفناء قصاصٌ، ولا حسابٌ، ولا ثوابٌ، ولا عقابٌ؛ بل كلٌّ يضْمحلّ ويفْنى.

فهذا جملة قوله.

قال إبيقورس: إنّ المبادئ الموجودات هي أجسام مُدرَكة عقلاً، لا خلاء فيها، ولا كوْن لها؛ وهي سرْمديّة غير فاسِدة، لا تحْتمل أن تُكسَّر أو تُهشَّم، ولا يعْرض لها في

الشّيء من أجزائها اختلافٌ ولا اسْتحالة؛ وهي مُدرَكة عقلاً، فهي تتَحرّك في الخلاء بالخلاء، والخلاءُ لا نهاية له، وهذه الأجْسام لا نهاية لها.

وقال بثاغورس[1]، ويُقال هو أوّل مَن سمّى[2] الفلسفة بهذا الاسْم: إنّ أوّل المبادئ هو العلّة الفاعلة، وهي الله والعقْل؛ والآخر هو العنْصر القابل للانْفعال، وعنه كان العالم المدرَكُ بحسّ البَصر.

ثمّ قال: أوّل الأعداد: الواحدُ، وهو ذَكَرٌ؛ والعدد الثّاني أُنْثى، وهو اثنان، وهو ثاني الأوّل؛ والثّلاثة ذَكَر؛ والأربعة أنْثى، وهو غاية العدد.

والواحد الأوّل هو النّار، وهو ذَكَرٌ؛ والثّاني: الهواء، وهو أُنْثى؛ والثّالث: الماء، وهو ذَكَرٌ؛ والرّابع: الأرْض، وهو أُنْثى.

وقال في هذا قولاً كثيرًا على هذا التّخليط.

---

[1] (أو فيثاغورس) قال أبو الخير بن الخمّار بحضرة أبي القاسم عيسى بن عليّ، وقد سُئل عن أوّل مَن تكلّم في الفلسفة، فقال: "زعم فرفوريوس الصّوري في *كتاب التّاريخ*، وهو سريانيّ، أنّ أوّل الفلاسفة السّبعة: ثالس بن مالس الإمليسي. وقد نقل من هذا الكتاب مقالتين إلى العربي، فقال أبو القاسم: كذا هو وما أنْكره. وقال آخرون إنّ أوّل مَن تكلّم في الفلسفة بيثاغورس. وهو بيثاغورس بن ميسارخس من أهل سامنيا. وقال فلوطرخس إنّ بيثاغورس أوّل مَن سمّى الفلسفة بهذا الاسم، وله رسائل تُعرف *بالذّهبيّات*. وإنّما سمّيت بهذا الاسم، لأنّ جالينوس كان يكتبها بالذّهب إعظامًا لها وإجلالاً. والذي رأينا لبيثاغورس من الكتب: *رسالته في السّياسة العقليّة*، *رسالته إلى متمرّد سقلّية*، *رسالته إلى سيفانس في استخراج المعاني*. وقد تُصاب هذه الرّسائل بتفسير امليخس.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

[2] في الأصل: **سمي**.

وقال إيراقليطس[1] وأناسس: إنّ مبدأ الأشياء كلّها هو النّار. وذلك أنّ كوْن الأشياء كلّها من النّار، وانْتهاءَها إلى النّار؛ وأوّل الغلظ منها إذا اجْتَمعت وتكاثَفت بعْضها إلى بعْض، صارتْ أرضًا؛ وإذا تحلّلت الأرْض وتفرّقت أجزاؤها، صار منْها الماء طبعًا؛ ولأنّ كلّ الأجسام في العالم تتخلّلها النّار وتُثيرها، فالنّار هي المبدأ، لأنّ منْها يكون الكلّ، وإليها ينْحلّ ويفْسد.

---

[1] أو هرقليطس (بالأغريقية) (Ηράκλειτος ό Εφέσιος: بالإنجليزية: (Heraclitus) فيلسوف يوناني، قبل سقراط، قال بـ التغيّر الدائم. ويصْعب تحديد تاريخ حياته بدقّة، غير أنّه من الرّاجح أنّه ازْدهر (أي كان في الأربعين من عمره) حوالي سنة 500 ق. م، ولا يُعرف عن حياته غير أنّه كان من الأسرة المالكة في مدينة أفسس بآسيا الصغرى. كذلك اشتهر هرقليطس فالغموض، فقيل عنه "الفيلسوف الغامض". وشاع هذا القول في كل العصر اليوناني والروماني، والسبب في ذلك أنه كان يطيب له المفارقات والأقوال الشاذة، وكان يعبر عنها بلغة مجازيّة رمزيّة. ومن هنا لقبه تيمون الفليوسي 300 ق. م بلقب "صاحب الألغاز". ويقول عنه أفلوطين: كان يتكلّم بالتشبيهات، ولا يعنى بإيضاح مقصوده. كان هرقليطس أوّل مَن قال باللّوغوس. وإلى جانب القول باللّوغوس، الانْسجام هو دائمًا نتاج المتقابلات. ولهذا فإنّ الحقيقة الأساسيّة في العالم الطّبيعي هي الكفاح. كلّ شيء في حركة مستمرّة وتغيّر. العالم نار حيّة دائمة البقاء. والمبدأ الأوّل له ثلاثة أوجه: كلّ شيء مؤلَّف من المتقابلات. ولهذا، فإنّه خاضع للتوتّر الدّاخلي. المتقابلات في حالة هويّة بعضها مع بعض، أي أنّ المتقابلات واحدة. الحرب، هي القوّة المهيمنة والخلاّقة، وهي الحالة السّليمة للأمور. أمّا المبدأ الثّاني، فيعبِّر عنه بقوْله: "كل شيء في سيلان دائم παυτα ρξι : والقوْل المشهور الذي يعبّر به هرقليطس عن هذا المبدأ "لا تستطيع أن تنزل في نفس النهر مرّتين" ويضيف إليه فلوطرخس، التّفسير التالي: "لأن مياهًا جديدة تتدفّق فيه". أمّا المبدأ الثّالث، فيشْرحه بالقول: "إنّ نظام العالم واحدٌ للجميع، لم يصْنعه أحد الآلهة ولا النّاس، لكنّه هو دائمًا وسيكون كذلك أبدًا: نارًا حيّة دائمة البقاء، أُشعِلت بمقاييس وأُطفِئت بمقاييس". ويشْرح اللائرسي هذا القول بأنّه يعني أنّ "الكوْن وُلِد من نار وسينحل من جديد إلى نار، في عصور متوالية على التّبادل، وهكذا أبدًا".
انظر ترجمته في: موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1 1984، الجزء الثّاني.

وقال إنقْسمانس الملْطي: أوّل المبادئ هو الهواء، ومنه كان الكلُّ وإليه ينحلُّ، مثل النّفس التي فينا؛ فإنّ الهواء يُمْسكها ويحْفظها فينا. والهواءُ يمْسك العالم، وهو روحه وماسِكه.

ونقَض عليه هذا القول كثيرٌ منهم بحجج.

وقال كسنوفانس: إنّ أوّل الأشياء هو الأرض، وإنّه لا نهاية لها، وإنّها هي الأصْل، وهي تجْمع الأشياء كلّها.

وقال ثالس الملطي، وهو أحد السّبعة الذين يُدعون أساطين الحكْمة: أوّل المبادئ هو الماء، وهو العنْصر الأوّل القابل لكلّ[1] صورة، ومنه أُبدع سائر الجواهر من السّماء وما دونها، وهو غاية كلّ مُبدع.

وقال: مِنْ جَمْد الماء كُوِّنَت الأرض، ومن انْحلاله كُوّن الهواء، ومن جمع الهواء تكوّنت النّار.

وقال: هذا العنْصر هو أوّل وآخرُ، إنّما هو عنْصر له صفْو وكدورة؛ فما كان من صفْوه يكون جسْمًا؛ وما كان من ثقله يكون جرمًا؛ فالجرْم يدثر والجسْم لا يدثر.

وكلّ جرْم من هذه الأجْرام الظّاهر، فإنّه جسْم غير ملْموس، ويظهر في النّشأة الثّانية، ويكون كالجرْم الظّاهر يُدرَك بحسّ البصر وبالحواسّ الخمس الباطنة.

وقال أيضًا: إنّ فوْق السّماء عوالم مُبدعة لا يقدر المنطق والنّفْس والطّبيعة تحته، وهو المدهر المحقّ؛ وإليه تشتاق العقول والأنفس؛ وهو الذي يُقال له: الدّيمومة والبقاء في النّشأة الثّانية.

وقال الذين يُقال لهم الفلاسفة من أهل أقاديما: لا تخلو هذه الأشياء وهذا الخلْق أن يكون لها أوّل، والأوّل هو النّار؛ لأنّه ضياءٌ، ولأنّ النّار في كلّ عالَم من ذلك العالم؛ وفي كلّ عالم أوّل مُشاكِل لهذه، ولهذه كلّها أواخر هي أوّل لهذه تجْمعها كلّها؛ وليس تجْمع الأواخر الأوائلُ.

---

[1] في الأصل: **كلّ**.

وقال أرسطاطاليس: إنّ المبادئ هي: الصّورة، والعنْصر، والقِدَم، والأسطقسّات الأربعة، وجسْم خامس وهو الأثير، وهو العنصر الأعظم؛ وإنّ الإله الأعْلى مُفارِق للصّورة، وهو كرة[1] للكلّ –تعالى الله وجلّ–؛ وإنّ الصّور مُتّصِلة مُتّحِدة، وهي مقسومة بالأُكر؛ وكلّ واحد منها مُرَكَّب من نفْس، وجسْم. فالجسْم منها هو الأثير؛ والنّفس نطْقٌ عقليٌّ غير مُتحرِّك. والجسْم مُتحرِّكٌ حركة دوريّة، وهو علّة الحركة بالفعْل، وهو الأثير، وهو غير مسْتحيل.

وقال: إنّ مبدأ الموجودات هو الذي لا نهاية له، وإنّ منه الكلّ وإليه ينْتهي الكلُّ، ولا نهاية له.

وقال: إنّ العوالم بلا نهاية. ولم يفسّر المبدأ الذي لا نهاية له.

وقال أنبذقليس[2]: إنّ الباري لم يزل هُويّته فقط، وهو العلْم المحْض والإرادة المحْض؛ وهو الجود، والعزُّ، والقدْرة، والعدْل، والخيْر، والحقُّ؛ وهناك قوى[3] مسمّاة لهذه الأسامي، وهي الهويّة؛ وهذه كلّها مُبدِع فقط.

وقال: إنّ الصّورة إنّما أبْدعها المبدِع، لا بنوْع علم وإرادة، بل بنوْع علّة فقط.

وقال: إنّ العالم واحدٌ، إلاّ أنّ الكلّ ليس هو العالم وحْده فقط، لكنّ العالم جزءٌ يسيرٌ من الكلّ، وباقي الكلّ عنْصر مُعطَّل.

وقال: أوّل مُبدِع هو العنصر أوّل بسيط عقليّ، بل أوّل بسيط، على ما ذكرْنا نحو ذات العقل.

فأمّا نحْو ذات العُنصر، فهو مُرَكَّبٌ من المحبّة والغلبة أبدعت الجواهر البسيطة الرّوحانيّة، والبسيطة الجسمانيّة، والمرَكَّبة الجرمانيّة.

---

[1] في الأصل: **كره**.

[2] (أو أمبيذوقليس) وهو يعتبر أنّ أصل الكون هو العناصر الأربعة جميعا، أي الماء والهواء والتّراب والنّار. توفّي حوالي سنة 435 ق. م.

حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص87.

[3] في الأصل: **قوي**.

وقال: إنّ الأنفس الكليّة إلى العقل، والعقل إلى الباري، فيمسح الباري نوره على العقل، والعقل على النّفس، والنّفس على هذا العالم مرّة أخرى، حتّى تعاين الأنْفس الجزئيّة النّفس الكلّيّة وتلْحق بعالمها، وذلك بعد دهور كثيرة.

فأوْرد نحْو هذا من قوْل.

ومن قوْله وقول بثاغورس وديمقراط تشعبّت الأقاويل الكثيرة والآراء المخْتلفة في المبدِع والمبدَع.

وقال طولوس الفيّومي وتمستيوس: لا شيء مُبدَعًا إلاّ ما يُرى بالأعْين، ويُسْمع بالآذان من صوْت يصْدم أو جرم يحطّم؛ ودفعَا أنّ شيئًا وراء ذلك.

وقال أفلاطن الأقبطي بهذا القول.

وقال أفلاطون[1] أيضًا: لا أفعل، ولا حركة، ولا تغيير، ولا فناء، ولا زوال؛ ولكنّا نرى فاعلاً ومتحرّكًا، ولا نرى تغييرًا ولا متغيِّرًا، ولا فناءً ولا فانيًا، ولا زوالاً ولا زائلاً.

وقال هرْقل –فليسوف أهْل إفسوس–: إنّ الأوائل نورٌ عقليٌّ، وهو الله حقًّا –عزّ الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا–، وهو اسْم الله باليونانيّة؛ ويدلُّ على أنّه مُبْدِع الكلّ، وهو اسمٌ شريفٌ جدًّا.

فأوّل شيء أُبدِع، وأوّل هذه العوالم: المحبّة، والغلبة، والمنازعة.

ومن المحبَّة كانت العوالم العلويّة إلى أن ينتهي إلى السّماء، ومن السّماء إلى هذه الأرض.

ووَافَق أنبذقليس في أمْر المحبّة، والغلبة، وخالفه في غير ذلك. وقال: إنّ السّماء تصير في النّشأة الثّانية بغير كواكب؛ لأنّ الكواكب تهْبط سفلاً، حتّى تهْبط إلى الأرض، وتلْتهب، فتصير متّصلة بعضها ببعض، حتّى تكون كالدّائرة حول الأرض؛ وكلّ الأنفس الدّنِسة تبقى في الأرض، وتلك النّار محيطة بها؛ والأنفس الزّكيّة ترتفع إلى عالمها، وتكون سماؤهم سماءٌ نورانيّة أشْرف من هذه؛ ففيها آثار الباري بلا متوسّطات، وهناك الحُسْن المحْض، لأنّه مُبدِعه بلا توسّط ولا تعب؛ وإنّ الباري يمْسح الأنفس في كلّ دهْر مسحةً

---

[1] في الأصل: **أفلاطن**.

ويتجلّى، حتّى تنْظر إلى نوره المحْض الخارج من جوْهره الحقّ، فيشتدّ عشْقها وشوْقها؛ ولا يزال كذلك أبد الآباد دائمًا.

وقال: إنّ أوّل الأوائل من المبدَعات هو الهيولي؛ ومنها كان جميع ما في هذا العالم؛ ومنها كان الهواء، والنّار، والماء، والأرض؛ وإنّ كلّ ما كُوّن من الهواء المحْض، وإنّه لطيف روحانيّ لا يدثر، ولا يدْخل عليه الفساد، ولا يقْبل الدّنس.

وكلّ ما بقي في هذا العالم الدّنس الكثير الأوْساخ، يتشبّث به هذا العالم؛ لأنّ هذا العالم دنس، ويمْنعه أن يرتفع علوّا.

وكلّ ما لم يقْبل هذا الدّنس وهذه الأوساخ، وألْقاها عن نفسه واتّصل بكلّيته الطّاهرة النّقيّة، تخلّص ولحق بكليّته.

وهذا العالم يدثر ويدخله الفساد، من أجل أنّه ثقل تلك العوامل الرّوحانيّة الشّريفة، وهو قشرٌ؛ ولولا ما فيه من نوريّة تلك الأوائل، لَمَا ثبت طرفة عيْن.

وإنّما ثباته بقدْر ما يصفّي العقْل جزأه والنّفس جزأها. فإذا صفتْ هذه الأجزاء النّيّرة الشّريفة، دثر، وفسد، وبقي مظلمًا؛ وهو الدُّثور الذي ذكوره أجمعين. والأنْفس الدّنسة تبقى في هذه الظّلمة، لا تعاين النّورانيّة.

وقال ديمقراط وبرقونس وبرقلس: إنّ العقل أوّل مُبدَع، وقالوا برأي أنبذقليس في النّشأة الثّانية، وخالفوه في المحبّة والغلبة، وقالوا: إنّ المبدَع الأوّل ليس هو العنْصر فقط، بل الأخلاط الأربعة، وهي الأسْطقسّات، منها أُبدِعت الأشياء البسيطة كلّها دُفعة واحدة؛ فأمّا المركّبة، فإنّها دائمة داثرة، إلاّ أنّ ديْمومتها بنوْعٍ، ودثورها بنوْع؛ لأنّ منها ما أُبدع باقيًا دائمًا، لا يجوز عليه الدّثور؛ ومنها داثرٌ غير باقٍ، لا يجوز عليه البقاء.

وقال فلوطرخس: إنّ الباري لم يزل بالأزليّة، وهو مُبدِع فقط، وكلّ مُبدِع ظهرت صورته في حدّ الإبداع؛ وكانت صورته في علْمه الأوّل. والصّورة عنده بلا نهاية، ولو لم تكن الصّورة مع أزليّته، لم يكن لِيَبقى.

وأوْرد كلامًا خلط فيه تخليطًا كثيرًا، وخالف ثالس في قِدَم الصّورة؛ وقد ذكرنا قول ثالس في نفْي الصّورة مع ذكر مقالته.

وقال كسنوفانس: إنّ المبدع الأوّل هو أنيّة الأزليّة[1] التي هي بنوْع الدّيْمومة والقِدمة، لا يُدرَك بنوْع صفة منطقيّة ولا عقليّة.

ونفى[2] أزليّة الصّورة والهيولي، وقارب قوْل أهل التّوحيد؛ ولكنّه أوْرد بعد ذلك كلامًا خلط فيه.

---

[1] في الأصل: **الأزليّته**.

[2] في الأصل: **نفي**.

وقال زينون[1] الذي يُقال له الأكبر: إنّ المبادئ هي الله والعنْصر. والله هو العلّة الفاعلة –تعالى الله عن ذلك–، وإنّه المبدِع الأوّل، كان في علْمه صورة إبداع كلّ جوهر؛ وإنّ علْمه غير متناه، والصّورة التي فيه من حدّ الابتداع غير مُتناهِية، وكذلك صورة الدّثور غير مُتناهِية.

وقال: إنّ هذا العالم يبْقى بقاءً دائمًا، ولا يفنى فناءً داثرًا.

---

[1] ولد زينون في 334 قبل الميلاد، في قبرص. كل ما يعرف عن حياته يأتي من حكايات منقولة عن ديوجنيس لارتيوس في عمله حياة وأفكار فلاسفة بارزون .زينون هو ابن تاجر فينيقي وكان هو نفسه تاجرا، عندما أتى إلى أثينا ليتعلم الفلسفة في سن 22. القصة تعود إلى أحد رحلاته إلى أثينا حيث جذبته كتابات سقراط. فسأل صاحب المكتبة عن شخص مماثل، فأخبره صاحب المكتبة عن أحد فلاسفة الفضيلة في اليونان. وصف زينون بأنّه شخص جامح وصبور، ويعيش حياة زاهدة ووافرة. هذه الأمور أثّرت في تعاليمه وفي فلسفته الرّواقية. رفض زينون المواطنة الأثينيّة عندما عرضت عليه، حيث تخوّف من أن يظهر كشخص غير مخلص لأرضه الأمّ فينيقيا. وكذلك فضل زينون صداقة البعض على الكثير، أنّه كان مولعًا في دفن نفسه في الاكتشافات، أنّه لم يحب يسهب أو يفصل في خطاباته. توفي زينون في 262 قبل الميلاد، ذكر لارتيوس عن وفاته: عندما كان مغادرات للمدرسة تعثر ووقع، فكسر اصبع قدمه. ضاربًا للأرض بقبضته، اقتبس سطرًا من نيوبيه: "أتيت، أتيت، لماذا تناديني؟" ومات فورًا بعد أن توقفت أنفاسه. قسّم زينون الفلسفة إلى ثلاثة أجزاء: المنطق: وهو موضوع واسع يضمّ البلاغة، القواعد، والنّظريّات المتعلّقة بالإدراك والفكر. وقد قسّم زينون المفاهيم الصّحيحة إلى ما يمكن فهْمه وما لا يمكن. مؤكدا على الإرادة الحرة لقوّة الإثبات في التفرقة بين الانطباعات الحسية. وقال إنّ هناك أربعة مراحل في عمليّة الوصول للمعرفة هي الملاحظة، الإثبات، الإدراك، ثمّ المعرفة. الفيزياء: وهي لا تضمّ فقط العلوم بل الطّبيعة المقدّسة للكوْن. يرى زينون أنّ الكون هو الإله، كيان عاقل مقدّس، وتنتمي كلّ الأجزاء إلى الكلّ. في رؤيته هذه الموحِّدة للوجود يرى أنّ الطّبيعة رؤية فنّية تقدّم قواعد ثابتة للخلق. الأخلاق: حيث أن الهدف النهائي كما يرى زينون هو الوصول للسّعادة، فإنّه لا يكون إلاّ عبر الطّريقة الصّحيحة في العيش وفقًا للطّبيعة. أعماله: الجمهوريّة، الأخلاق، الحياة وفقًا للطّبيعة، عن الحافز أو عن طبيعة البشر، عن العواطف، عن الواجب، عن القانون، عن التّعليم اليوناني، فنّ الحبّ، عن الكوْن، عن الكائن، عن العلامات، عن البصيرة، عن الشّعارات.

وقال: إنّ صورة هذه العوالم، وما فيها من العلم الأزليّ، باقية داثرة. وهي باقية بنوْع تجديد، وداثرة بنوْع دثور الصّورة الأولى عند تجْديد الأخرى. والدّثور يلزم الصّورة والهيولي معًا.

وقال أيضًا مثل قول خرسبوس: إنّ الباري محْض هو أنّيّة[1] فقط، أبدع العقل والنّفس دفْعة واحدة، ثمّ أبْدع جميع ما تحتهما بتوسّطهما.

وقال: إنّ للنّفس جرميْن، جرمًا من النّار والهواء، وجرمًا من الماء والأرض؛ والنّفس مُتّحِدة بالجرم الذي من الماء والأرض.

والنّفس مسْتطيعة ما خلاّها الباري. فإذا ربَطها، فليست بمستطيعة؛ كالحيوان الذي إذا خلاّه مدبّره، الذي هو الإنسان المالك له، كان مسْتطيعًا؛ وإذا ربطه، كان غير مستطيع.

وقال أنكساغورس وكسناغورس بقول فلوطرخس في المبدِع، وخالفاه في المبدع الأوّل، وفي أشياء غير ذلك.

وقال فليوخرس: إنّ المبدع الأوّل كان مبدع الصّورة فقط. فأمّا الهيولي، فلم تزل معه.

وقال أنكسمانس[2]، الذي يُعدُّ أيضًا من السّبعة الذين كانوا يُدعَون أساطين الحكمة: إن الباري أزليٌّ، لا أوّل له، ولا آخر؛ وهو بدءُ الأشياءِ كلّها؛ وهو "أنّه" فقط، ولا هويّة تشْبهه، وكلُّ هويّة مُبدعة؛ وهو واحدٌ لا يتكثّر، أبْدَع صورة العنْصر وصورة العقْل.

وصورة العنْصر واحدة أيضًا إلاّ أنّها تتكثّر، ومنها انْبعثت صورة العقل؛ فترتّبت ألوان الصّور على قدْر ما فيها من طبقات الأنوار، فصارت تلك الطّبقات، العوالم؛ حتّى

---

[1] في الأصل: **أن**.

[2] (أو أنكسمينس) وهو يرى أنّ أصل الكون هو الهواء. توفّي حوالي سنة 580 ق. م.
حول ترجمته راجع: *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص87.

قَلّ نور الصّورة في الهيولى، وقلّت الهيولى، حتّى لم يبْق إلاّ ثقلها، فصار منها هذه الصّورة الرّديئة؛ وترتّبت هذه القوى بقدر سكون النّفس في هذه الأجرام.

فمُدبِّر هذا كلّه ساكنٌ، لا تجوز عليه الحركة، لأنّ الحركة مُحدَثة؛ إلاّ أن نقول إنّ تلك الحركة فوق هذه الحركة، كما أنّ ذلك السّكون فوق هذا السّكون.

فأوْرَد كلامًا يقْرب من قوْل أهْل التّوحيد، ثمّ خلط بعد ذلك.

وقال أنبذقليس أيضًا: هو يتحرّك بنوْع السّكون.

وبهذا القوْل قال أنكساغورس وكثير منهم. واخْتلفوا، وخلطوا، ونقَض بعْضهم على بعْض.

وقال أرسطاطاليس في هذا الباب: الإله لا يتحرّك، لأنّ الحركة لا تخلو من أن تكون، إمّا مكانيّة، وإمّا زمانيّة، وإمّا فكريّة؛ ثمّ قال: إنّ الإله حركته بنوْع سكون، وسكونه بنوْع حركة، إلاّ أنّ تلك الحركة وذلك السّكون ليسَا هما وَهْميّيْن ولا عقليّيْن.

وقال أنكْسمانْس في الحقّ والحكمة: إنّ الحقّ حقّانِ: حقٌّ نوريٌّ، وحقٌّ مظلمٌ، والحكْمة واحدة.

وقال في ذلك سقراطيس: الحقّ متعلّقٌ بالحكْمة من نحْو العقل.

وقال فلسنيوس: إنّ الحقّ مُتعلِّقٌ بالحكْمة، لا من نحو العقل.

واختلفوا في هذا الباب أيضًا اختلافًا كثيرًا؛ فمنْهم مَن قال: إنّ الحكْمة قبل الحقّ، وإنّ الحقّ لا يقوم إلاّ بالحكْمة؛ ومنْهم مَن قال: إنّ الحقّ قبل الحكمة، وإنّما صارت الحكْمةُ حكْمةٌ بالحقّ الذي أقامها.

وقال بثاغورس الأنطاكي: الباري –جلّ ذكره– واحدٌ لا يُدرَك من جهة العقل والنّفس؛ وإنّ هذا العالم أُلِّف وصُنِع من اللّحون البسيطة الرّوحانيّة وأعْداد الرّوحانيّة، وهي غير منقطعة، وهي مُتّحِدة تتجزّأُ من نحْو العقل، ولا تتجزّأُ من نحْو الحواسّ؛ وإنّ هذا العالم هو سرور فقط في أصْل الإبداع مثل العوالم الأوَل، إلاّ أنّ تلك أبْسط من هذا؛ ومنطق العوالم هو باللّحون الرّوحانيّة البسيطة، فمن أجل ذلك صار سرورًا دائمًا غير مُنقطِع.

وقال: إنّ أوّل ما أُبدعت السّماء، أظهرت النّفس النّجوم السّبعة التي هي دلالات اللّهْو، والسّرور، والحُسن، والعدْل، والعزّ، والعشْق، وما أشبه ذلك.

ولوْ عرَف أصحابُ القضاء كيْف حركاتُها وانتقالُها ومزاجُها ومقابلاتها، لَقدروا على معرفة تأليف العالم؛ ولكن لما لم يقْدروا عليها، لم ينالوا علمَ تأليف هذا العالم.

وقال موزنش، وكان تلميذًا لبثاغورس: إنّ ثبات العالم وقوامه من اثنيْن مُبدِعيْن، من ذكَر وأنْثى، من ضوْءٍ وظلمةٍ؛ والضّوْء ذَكَر، والظّلْمة أنْثى، ومنْهما تكوّنت الأشياء كلّها.

وأخذت عنه المجوس هذا القول، لأنّه كان دخل مملكة الفُرْس، فأخذ ذلك عنه وارطوس، الذي قام في المجوس بعد زرهشت[1]، وخلَطه بالرّسم الذي كان عليه المجوس من رسوم الأنبياء (ع)، وأفْسد عليهم دينهم، وأزالهم عن التّوحيد، ودعاهم إلى القول بالاثنيْن، وخلط الباطل بالحقّ، فضلّ وأضلّ.

---

[1] أو زردشت. وعاش زردشت في منتصف القرن السّابع قبل المسيح، وتوفّي على الأرجح سنة 582 ق. م. وُلد في أذربيجان، وولادته تشبه إلى حدّ بعيد ولادة المسيح. انْتقل إلى فلسطين، واسْتمع إلى بعض أنبياء بني إسرائيل من تلاميذ النّبيّ أرميا، ثمّ عاد إلى أذربيجان، ولم تطمئنّ نفسه إلى اليهوديّة، فبدأ يدرس الأديان الفارسيّة القديمة. وحين بلغ ثلاثين سنة زعموا أنّه بعثه الله نبيّا ورسولا إلى الخلق. ونُسبت إليه معجزات كإحياء الموتى وردّ البصر. وأهمّ كتاب نُسب إليه هو *الأبستا* (أو *الأفستا*) وشرحه *التّزند أفستا*. ويظهر أنّ مذهبه الثّنوي في إرجاع أصل العلم إلى النّور والظّلمة يعود إلى مبدإ خلقي الخير والشرّ. فمذهبه الوجودي متّصل بالمشكلة الخلقيّة الأنطولوجيّة. فمن امتزاج النّور بالظّلمة وُجدت الأشياء وحدثت الصّور من التّراكيب المختلفة. وصراع النّور والظّلمة ينتهي بتغلّب النّور، وتخلّص الخير إلى عالمه وانحطاط الشرّ إلى عالمه. وقد أورد الشّهرستاني محاورات بين زرادشت وأومرزد، وفيه نزعة تشبيهيّة وعضويّة صريحة.

حول ترجمته راجع: *الملل* للشّهرستاني (طبعة كيلاني) ج1/ص236 و(طبعة بدران)، ج1/ص216؛ *التّبصير*، ص105؛ *المنية*، ص64؛ *نشأة الفكر الفلسفي*، ج1/ص191–ص192؛ *قاموس الفلسفة*، ص343؛ *مروج الذّهب*، ج1/ص229–ص230.

وبنى مقالته على أنّ الضّوء والظّلمة مُبدَعان، وأنّ الضّوء سماويٌّ، والظّلمة أرْضيّة،؛ فلا يتمّ للسماويّ أمرٌ إلاّ بالأرضيّ، إلاّ أنّ الأرْض في سلطان الظّلمة.

ولما اتّفق النّور والظّلمة، وَلد النّور النّار، ووَلدت الظلمةُ الأرض، وهي أرضيّة؛ ثمّ تولّدت من النّار الحرارة واليبوسة، ومن الماء البرودة والرّطوبة؛ ثمّ ازدوجتْ، فتولّد منها هذا العالم كلّه.

فأصْل مقالة المجوس في اعتقادهم القول بالاثنيْن من هذه الجهة.

وقال ملّيسس وأصحابه: إنّ المبدِع واحدٌ، ولا يجوز أن يخْلق اثنيْن، لأنّ الاثنيْن يدلاّن على التّنازع والتّضاد.

فلمّا رأينا هذا العالم لا ضدّ له ولا موافق، استدلَلْنا أنّه واحدٌ لا يدْخله الفساد والفناء من غيره أو من خاصّته في الجزء والكلّ؛ وإنّما الحقّ واحدٌ، لا تغيير فيه، ولا تبديل، ولا زوال؛ وإنّما هو منتقلٌ كالمكان والزّمان؛ وكالرّجل يكون في الظّل حسَن اللّوْن، وفي الشّمس قبيح اللّون، والرّجل واحدٌ لم يتغيّر، ولم يتبدّل، ولم يفْنَ، ولم يزل؛ وكذلك سائر ما يُرى وما لا يرى من الألوان، والطّعوم، والأصوات، والحسّ، والشّم، لا تغيير، ولا تبديل، ولا انْفعال، ولا حركة.

فهذا أصْلُ قولهم.

وقال فلانوس، وكان أيضًا من تلاميذ بثاغورس، وصار إلى الهند، وادّعى أنّ بثاغورس ارْتقى إلى الهواء، وعايَن عالم الطّبيعة، وعالم النّفس، وعالم العقل؛ وقال: إنّ كلّ ما في العالم من الحسّ هو معلُول الطّبيعة، وما عند النّفس أكرمُ ممّا عند الطّبيعة وأخسُّ ممّا عند العقْل، إلى أن ينْتهي إلى العلّة التي لا علّة فوْقها.

وأخذ عنه هذا الرّأي برخمس الهندي؛ فدَعا إليه النّاس، وخلط بدَعه برسوم الأنبياء التي كانت في أيديهم كما فعل وارطوس بأصحاب زرهشت، وأبْدع بِدعًا كثرةٌ، منها تفرّقت أدْيان الهنْد.

وعنه أخذ برهما، فسنَّ لهم الإحراق؛ وأمَر بالتّعرِّي والسّياحة في البراري والجبال حيارى؛ ورغّب النّاس في تلْطيف الأبدان، وتهذيب الأنْفس، والإسراع في الخروج عن هذا العالم والاتّصال بذلك العالم، لتكون الأنْفس مسرورة متلذّة، لا تملُّ ولا تكلُّ بزْعمه.

فأخذ عنه أهْل الهند، وتفرّقوا بعده فِرَقًا كثيرةً؛ إلاّ أنّ أصْل البدَع في مقالاتهم من فلانوس –الذي كان من تلاميذ بثاغورس–.

وقال قومٌ منهم: إنّ التّناسل في هذا العالم خطأٌ، وأفْضل الأعمال عندهم: أن يلْقوا أنفسهم في النّار، يزْعمون أنّهم يطهّرون أبدانهم؛ ولهم أديان كثيرة مُختلِفة عجيبة جدًّا ابْتدعوها، ويطول التّفسير بذكْرها.

الفصل الثالث
جملة الخلاف فيما قال الفلاسفة

فتأمّل -رحمك الله- ما قد ذكرْته من أصول هؤلاء الضُّلاّل، وشدّة اخْتلافهم وضَلالهم، وكيْف خالَف بعْضهم بعضًا في القوْل في الباري -جلّ وتعالى- وفي مبادئ الأشياء وفي انْتهائها، وكيف ضلُّوا حتّى قال بعضهم: إنّ الله هو العقْل، وهو عقلُ هذا العالم؛ والعنْصر والصّورة قديمان معه -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

وقال بعْضهم: الله هو عقل العالم -عزّ الله عن ذلك-، وهو أبْدَع الصّورة والعنْصر.

وقال غيْره: العقْل هو الإله -سبحانه عن ذلك-؛ وأنّ الأجسام كانت واقفة، فزيّنها، وجعَل لها مناسبات وتولُّدًا.

وقال آخر: الله علّة هذا العالِم -عزّ الله وجلّ-.

وقال آخر: الباري هو العلْم، والإرادة، والجُود، والعزُّ، والعدْل، والخيْر، وقوى غيْرها.

وقال غيْره: الله هو نورٌ عقليٌّ، وعقولنا أُبدِعت من ذلك النّور -عزّ الله وتعالى-.

وقال آخر: الباري هو مُتحرِّكٌ.

وقال غيره: هو ساكِنٌ.

وقال غيره: هو مُتحرِّكٌ بنوْع الحركة، ساكنٌ بنوْع السّكون.

وقال آخر: الله خلَق هذا العالَم على مِثال صورته.

وقال آخر: الله هو في صورة إنسان -تعالى الله عن ذلك-.

وقال آخر: هو الله والعنْصر قديمٌ معه، والله هو العلّة الفاعِلة -عزّ الله وجلَّ-.

وقال آخر: إنّ الصّورة كانت قديمة عند الله.

ونفى غيره ذلك.

وقال آخر: إنّ الله أبْدع الصّورة، والهيولي لم تزل معه.

وقال آخر: إنّ الله أبْدع العقْل والنّفس، وبتوسّطهما أبْدع العالم.

وقال آخر: إنّ الله أبْدع العالم من المحبّة والغلبة.

وقال آخر: أبْدعه من اللّحون البسيطة.

وقال آخر: العالم دائمٌ لا يزول، ولا يفْتر، ولا يضْحملُ.

وقال كثيرٌ منْهم بدهْر العالم.

وقال آخر: الأشياء تخْرج من ذاتها بلا حدث.

وقال آخر: المبادئ هي أجسام لا خلاء فيها ولا كوْن، وهي سرمديّة غير فاسدة.

وقال آخر: مبدأُ الأشياء كلّها: النّار.

وقال آخر: هو الهواء.

وقال آخر: هو الماء.

وقال آخر: هو الأرض.

وقال آخر: لا شيء مُبدَعًا إلاّ ما يُرى ويُسمَع، وأنْكر ما غاب.

وقال آخر: لا فعْل، ولا حركة، ولا تغيير، ولا فناءَ.

وقال آخر: الأوائل اثنان: الخلاءُ، والصّورة.

وقال آخر: إنّ جميع ما يُرَى ويُحَسّ لا حقيقة له، إنّما هو على طريق الخيلولة والحسْبان.

وإنّما نرى هذه الأشْياء ونشاهدها، كما نراها في المنام، ولا حقيقة لها، ولا حقيقة لأنْفسنا، ولا لشيء ممَّا يُرى ويُحَسّ، ولا لشيءٍ من هذا العالم كمذْهب السّوفسطائيّة[1].

---

[1] السّوفسطائيّة جملة من النّظريّات أو المواقف العقليّة المشتركة بين كبار السّفسطائيّين كبروتاغوراس وغورجياس وبروديكوس وهيبياس وغيرهم. وأصل لفظ السّفسطة في اليونانيّة سوفيسما، وهو مشتقّ

وقال غيْره: إنّ العالم يدثر ويفْنى، ولا ثواب ولا عقاب.

وقال آخر: العالم غير داثر، ولا مستحيل.

وقال آخر: إنّ الأنفس تلْحق بالعالم العلوي، وتبقى هناك وتلتذُّ.

وقال آخر: بل تدثر، وترْجع إلى هيولاها الأولى.

وقال آخر: الباري –جلّ وعزّ– يمسحها حتّى تَرى نوره.

وقال آخر: بل يمْسح العقْل، والعقل يمسح النّفْس، والنّفْس تمْسح العالم؛ فتسْتضيء، وتُعاين الأنفُسُ الجزئيّة النّفْسَ الكليّة.

وقال آخر: بل الباري يمْسحها في كلّ دهر، ويتجلّى حتّى ينْظر إلى نوره.

وقال آخر: إنّ بثاغورس[1] ارْتقى إلى الهواء، وعاين عالم الطّبيعة، وعالم النّفس، وعالم العقْل.

من لفظ سوفوس، ومعناه الحكيم والحاذق. والسّفسطة عند الفلاسفة هي الحكمة المموّهة، وعند المنطقيّين هي القياس المركّب من الوهميّات. والغرض منه: تخليط الخصْم وإسْكاته. وتطلق لفظة السّفسطائيّة أيضًا على كلّ فلسفة ضعيفة الأساس، متهافتة المبادئ، كفلسفة الرّيبيّين الذين ينكرون الحسّيات والبديهيّات وغيرها، وتنْقسم إلى ثلاث فرق: اللاّأدريّة، والعناديّة، والعنديّة.

انظر: *المعجم الفلسفي* لجميل صليبا، ج1/ص658 إلى ص660؛ *كشّاف اصطلاحات الفنون* للتّهانوي.

[1] (أو فيثاغورس) قال أبو الخير بن الخمّار بحضرة أبي القاسم عيسى بن عليّ، وقد سئل عن أوّل مَن تكلّم في الفلسفة، فقال: "زعم فرفوريوس الصّوري في *كتاب التّاريخ*، وهو سريانيّ، أنّ أوّل الفلاسفة السّبعة: ثالس بن مالس الإمليسي. وقد نقل من هذا الكتاب مقالتين إلى العربي، فقال أبو القاسم: كذا هو وما أنكره. وقال آخرون إنّ أوّل مَن تكلّم في الفلسفة بيثاغورس. وهو بيثاغورس بن ميسارخس من أهل سامنيا. وقال فلوطرخس إنّ بيثاغورس أوّل مَن سمّى الفلسفة بهذا الاسم، وله رسائل تُعرف *بالذّهبيّات*. وإنّما سمّيت بهذا الاسم، لأنّ جالينوس كان يكتبها بالذّهب إعظامًا لها وإجلالاً. والذي رأينا لبيثاغورس من الكتب: *رسالته في السّياسة العقليّة*، *رسالته إلى متمرّد سقلّية*، *رسالته إلى سيفانس في استخراج المعاني*. وقد تُصاب هذه الرّسائل بتفسير امليخس.

حول ترجمته راجع: *الفهرست* لابن النّديم، ص245.

الفصل الرابع
أيّ الفريقين أكذب؟!

أعدتُ القوْل بذكْر جمل هذه النّكت، ليكون أقرب إلى الفهْم، بعد ذكر أصولهم، وأقاويلهم التي حكيْتها على الاختصار دون الشّرح، ودون ذكر اختلافاتهم في الفروع، وتناقض كلامهم فيها، وتكْذيب بعضهم لبعض.

فإنّهم لم يتْركوا شيئًا نظروا فيه إلاّ اخْتلفوا فيه، ورَدّ بعْضهم على بعْض.

ومَن تتبَّع ذلك وقع في شغل شاغل وعناء طويل، لا يحصل منه إلاّ على العمى، والضّلال، والخروج إلى الحيرة، والغرَق، والوَساوس المهلِكة التي زعموا أنّهم أدركوا بها، وبعقولهم، وفطونهم، وآرائهم معْرفة كيفيّة الباري -جلّ وتعالى-، وكيفيّة بدئ كوْن العالم وانتهائه، وما كان قبل حدث العالم وبعد فنائه.

وسمّوا بعضهم: الشّعراء، يزعمون أنّهم شعروا بهذه الأمور الغائبة بنظرهم، وسمّوا كلامهم: شعرًا؛ واسْترقوا هذا الاسْم من العرب حين سمّوا به شعراءهم؛ يعنون أنّهم شعراء بالأشياء التي ذكروها في شعرهم من التّشبيهات في التّشبيب، وذكْر الدّيار، وفي المدْح، والهجاء، والافْتخار، وغير ذلك من صفات؛ فصار لهم هذا رسْمًا، وحسن به ذكْرهم، وخلّدهم على الدّهر؛ فتشبّه هؤلاء الجهّال بهم، وسمُّوا أئمّتهم بهذا الاسم، وزعموا أنّهم شعراء بهذه الأمور العظيمة العسر تناولها، البعيد مأخذها؛ وأنّ عقولهم أحاطت بالعالم كلّه؛ وأنّهم ارْتقوا إلى الإحاطة بمُحدِث العالم؛ فأوْردوا هذا الكفْر العظيم، واختلفوا فيه هذا الاختلاف الشّديد.

وحقّ لهم أن يتيهوا ويكفروا.

فإنّ مَن لا يحيط علْمه بما فوق سطح بيْته، وبما غاب عن عيْنه في بيْته، حتّى يعاينه، ثمّ يزعم أنّه يرْقى إلى السّماء، ويدْرك ما وراءَ الفَلَك؛ ومَن لا يقدر أن يعْرف كيفيّة نفسه اللّطيفة التي تدبّر أمرَ جسده، حتّى يقع في هذه الاخْتلافات والوساوس؛ ثمّ يزْعم

أنّه يحيط علْمه بخالق الخلائق أجمعين ومدبّرهم، ويزْعم أنّه يدرك علْم ما كان قبْل أن كان، وما يريد أن يكون قبْل أن يكون، من غير توقيف من نبيّ مؤيّد بوحْي من الله؛ حُقّ له أن يتيه ويوسْوس، وأن يُدْعى مجنونًا معتوهًا، وأن يكْفر بالله –عزّ وجلّ–، ويطْعن على أنبيائه (ع)، وينْسبهم إلى الخلاف؛ ولا يرى خلاف هؤلاء التّائهين، ولا يذْكر تناقض كلامهم؛ وأن يدّعي أنّ الله أغناهم عن الإمام، مُرشَدٍ مُؤيَّدٍ من الله الذي خلَقهم بحكْمته وتعطَّف عليهم برحمته؛ ويزْعم أنّه وَكَلهم إلى آرائهم، حتّى يسْتغْنوا عن اختلافات الأنبياء المؤسَّسة على الحكمة باختلاف هؤلاء الموَسوَسين المحيّرة المهلِكة، ثمّ يقول: "قد –والله– تعجّبنا من قولكم: إنّ القرآن هو مُعجز، وهو مملوء من التّناقض، وهو أساطير الأوّلين، وهو خرافات!".

فكمْ بين هذه الاختلافات التي بين هؤلاء الذين ابْتدعوها بآرائهم، والتي إنْ نظَر فيها ناظرٌ غير مُسْتبصِر بهذه الأمور، مُستحكِمٌ في أمر الدّيانة، قادتْه إلى العمى، وأوْقعته في الحيرة؛ وبين الاختلافات التي ذكرها الملحِد وعاب بها الأنبياء (ع) الذين وضعوها على الحكمة، وهي أمثال مضروبة إذا كُشف عن معانيها اعتدل منها النّظام، وقامت بها الحدود والأحكام، وظهر صدْق الأنبياء –عليهم السّلام–؟

وأيُّ الفريقيْن أكْذب: الذين يمزّقون حلوقهم بما زعم الملحِد أنّه الزّور والبهْتان، يحدّثنا فلان عن فلان عن محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– عن جبرائيل (ع) عن الله –عزّ وجلّ–، أنّه قال: ﴿إنّني أنا الله لاَ إِلَه إِلاَّ أنَا فاعْبدني وأقم الصّلاة لِذِكْري إنّ السّاعة آتيَة أكادُ أخفيها لتُجزى كلّ نفس بما تسْعى﴾[1]؛ فأخبر بأنّ الله –عزّ وجلّ– واحدٌ لا إله غيره وأمَر بعبادته، وحثَّ على طاعته، وحذَّر مجيء القيامة، وما يكون من المجازاة بالأعمال، ووَعَد وأوْعد بالثّواب والعِقاب؟

أمْ الذي يقول: حدَّثني طبْعي عن نفْسي عن عقْلي أنّه عايَن ما كان قبْل حَدَث العالم، فرأى النّفس، والهيولى، والمكان، والزّمان قديمة مع الباري –جلّ الله وعزّ–؛ وأنّ النّفس اشْتهت أن تتجبّل في هذا العالم، فأعانَها الباري، حتّى خلقت العالَم؛

---

[1] سورة طه (20)، الآيتان 13–14.

وأنّه لولا ذلك، لَمَا كان هذا العالم؛ وأنّه لا بعثٌ، ولا ثوابٌ، ولا عقابٌ؛ وأنَّ النّاس مُهمَلون كبهائم الأنعام؛ وأنّ لا فضل للبشر على سائر الحيوان، ولا أمْر ولا نَهْي؛ وأنّ عقلي حدّثني: أنّه يبلغ علْم ما كان قبل حدث العالم وما يكون بعد فنائه، ويبلغ علم سرائر الخليقة كلّه من أوّل الدّهر إلى آخره؛ وأنّه لا حاجة به إلى معلّم يعلّمه، فإنّه قد اسْتوَى مع الله في العلْم بجميع الخلائق، وكيف خُلقت، وكيف طُبعت؛ وما فيها من الصّلاح، والفساد، والضّر، والنّفْع؛ وأنّ عقْله يُدرِك علم ذلك إذا شاء، ونظَر فيه، وبحَث عنه؟

فأيُّ الفريقيْن أوْلى بأن يُسمَّى كذّابًا، وأنّه يدّعي الزّور والبهْتان؟

مَن أنْصف ولم يغرّ نفسه، ونظر في اختلافات هؤلاء الذين نظروا في هذه الأمور العظيمة، وأوْردوا هذه الآراء المتناقضة من ذات أنفسهم وبعقولهم، وفي اخْتلافات الأنبياء (ع)، وما رسموه في شرائعهم بالحكْمة، وضرَبوا أمْثال بوحْي من الله –عزّ وجلّ–، وميَّز بينهما؛ عرف الصّواب من الخطأ، والحقّ من الباطل، والصّدْق من الكذب.

فإنّ الأنبياء (ع)، وإن اختلفت ألْفاظهم بضرْب الأمثال، فإنّ معانيها متّفقة.

ولمْ يختلفوا في أصْل الدّين وفي توحيد الله –عزّ وجلّ–، واتّفقوا أنّ الله –جلّ ذكره– إلهٌ واحدٌ لا إله غيره، وأنّه قديمٌ لا قديم معه، وأنّه لم يزل ولا يزال، وهو خالِق جميع الخلائق لا من شيء، ولا خالِق غيره؛ ووَصَفوه –جلّ ذكره– بأحْسن الصّفات كما هو أهْله؛ واتّفقوا أنّه بعث النّبيين مُبشِّرين ومُنذِرين، واختارهم من خلْقه واصْطفاهم لتبْليغ رسالته؛ وأنّه خلَق داريْن: دارًا للسّعي والعلم، ودارًا للثّواب والعِقاب؛ وأنّ العباد مأمورون مَنهِيّون مبعوثون بعد الموت، مُحاسَبون، مُدانون بأعمالهم؛ وأنّ الله ﴿يجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسْنى﴾[1]؛ وأنّ الجنّة والنّار هما العقْبى.

وسلَكوا في هذا سبيلاً واحدة، لم يختلفوا في شيء منه، ودعوا كلّهم إلى عبادة الله بالأعمال التي اتّفقوا على أصولهم، مثل الصّلاة، والزّكاة، والصّيام، والمناسك، والقرابين، وسائر الفرائض والسُّنن التي في أصول الدّين، لم يخْتلفوا في شيء منها؛

---

[1] سورة النّجم (53)، الآية 31.

ودعوا كلّهم إلى ذلك، وشهد بعضهم لبعض بالصّدق والنّبوّة، ودعوا إلى منْهاج واحد في باب الاستعْباد.

وإنّما اخْتلفوا في وضْع الشّرائع، مثل أوقات الصّلاة، وعدد ركعاتها، وحدود الزّكوات، ومواقيت الصّيام، وغير ذلك من الفروع، امتحانًا من الله –عزّ وجلّ– لخلْقه، واختبارًا لهم؛ كما أمَر موسى (ع) بالصّلاة التي هي أصْل الدّين في جميع الشّرائع، ولكنّه أمَره أن يتّخذ بيْت المقْدس قبْلة.

وكذلك أمَر عيسى (ع) بالصّلاة، وأمَره أن يتّخذ المشْرق قبلة[1]؛ وشهد عيسى لموسى بالصّدق والنّبوّة.

وإنّما فعلوا ذلك، ليظهر المطيع من العاصي، والضّال من المهْتدي، والخاضع المنقاد من المتكبّر الباغي؛ وليكون الثّواب والعِقاب على حسب الطّاعة والمعْصية، كما قال الله –عزّ وجلّ–: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إلاّ لنعلم من يتّبع الرّسول ممَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْه﴾[2].

فقد دلَّ ذلك على أنّه امتحنَهم، ليعرف مَن يتّبع الرّسول ممَّن ينْقلب على عقبيْه.

ثمّ قال: "وَإِنْ كَانتْ لَكبيرةً إلاّ على الذين هدى الله"، أي أنّ مخالفته –صلّى الله عليه وسلّم– لِمَن تقدّمه في تغيير القبْلة هي كبيرة مُنكرة عند مَن لا يعْرف مُراده، ﴿إلاَّ على الَّذين هَدَى الله﴾[3]؛ فعرفوا مغزاه في ذلك، وعلموا أنّه بحكْمه.

وقال –جلّ ذكره–: ﴿وَلَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدة وَلَكنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون﴾[4].

---

[1] في الأصل: **قبله**.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 143.

[3] سورة البقرة (2)، الآية 143.

[4] سورة المائدة (2)، الآية 48.

ألاَ ترَاه يقول: ﴿لِيبْلُوَكُمْ فيما آتاكُم﴾[1]، أي يمْتحنكم؛ وحثَّهُم على عمل الخيْرات، فقال: ﴿فاستَبِقُوا الخيْرات﴾[2]؛ فإنّ مَرجعَكم إلى الذي يجازيكم باخْتلافكم وائْتلافكم؟

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لجَعَلَ النّاسَ أُمّةً وَاحِدَةٌ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ﴾[3]، يعني: خلَقهم وامْتحنهم بالاخْتلاف والائْتلاف لِيظهر المطيع من العاصي كما ذكرنا؛ وليكون مرْجعهم إلى الأنبياء، ولِيرضوا بحكمهم، ويقيموا طاعتهم؛ كما قال –عزّ وجلّ–: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً فَبَعِثَ الله النَّبِيين مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأَنْزَلَ مَعَهُم الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فيه﴾[4].

ثمّ عرّفنا أنّ الباغين في كلّ أمّة امْتحنهم الله بطاعة الأنبياء، فخالَفوهم بعد أن رأوا البيّنات، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الّذين أُوتُوه مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمْ البَيِّنَات بَغْيً بَيْنَهُمْ﴾[5].

فهكذا كان سبيل الأنْبياء، وسبب اختلافهم في وضْع الشّرائع.

فأمّا في الأصول، فلم يختلفوا؛ ولو اتّفقوا كلّهم في وجوه الاستعباد، لَمَا[6] ظهرت منزلة الأنبياء، ولا كانت درجةٌ لِمَن جاء بعد مَن تقدّمه؛ فكان لا يقْدر على تغيير البدَعِ التي أبدعها الضّالّون في كلّ شريعة، ولَسقط الامتحان من الله –عزّ وجلّ– لخَلْقه، ولَبطل الأمر والنّهْي؛ فلم تكن طاعةً، ولا معصيةً، ولا ثوابٌ، ولا عقابً.

فهذه علّة اختلافهم في وضْع الرّسوم، وأسّسوا شرائعهم على العلْم والحكْمة بوحْي من الله –عزّ وجلّ–، ولم يخْتلفوا في أصول الدّين والتّوحيد؛ كما اخْتلف هؤلاء

---

[1] سورة المائدة (2)، الآية 48.

[2] سورة المائدة (2)، الآية 48.

[3] سورة هود (11)، الآية 118.

[4] سورة البقرة (2)، الآية 213.

[5] سورة البقرة (2)، الآية 213.

[6] في الأصل: **لم**.

الضُّلاَّل الذين وضعوا هذه الوساوس[1] بآرائهم، واخْتلفوا في الباري –عزّ وجلّ–، وفي جميع الأصول والفروع؛ وأبطلوا كلّهم العبادة، والثّواب، والعِقَاب؛ وجعلوا النّاس مُهَمَّلِين كالبهائم؛ وأوْجبوا أن لا يكون لهم سائسٌ ومؤدِّبٌ في الدّنيا، ومُرشِد في الدّين.

[1] في الأصل: **الوسواس**.

ألفصل ألخامس

ل أتّلف بْن ألنْباء في ألصول

وأمّا [ما] ذكره الملحد عن المجوس[1] وغيرهم من القول بالاثنيْن، وعن النّصارى[2]، وقولهم في المسيح (ع)، فإنّ ذلك ليس من الأنبياء؛ بل هو من المبتدِعين في كلّ أمّة، على حسْب ما ذكرْنا.

---

[1] في *موسوعة الإسلام المختصرة* (ج /ص298): "اللّفظة مرّت قبل وصولها إلى اللّغة العربيّة بنقل من اللّغة الفارسيّة إلى الآراميّة". واللّفظة وردت في القرآن الكريم في الآية 17 من سورة الحجّ. وفي *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245): "المجوسيّة دين قديم، وإنّما زرادشت جدّده وأظهره وزاد فيه، قاله شيخنا، قال: هو معرّب أصله منج كوش معرّب مجوس". ومسائل المجوس، كما يذكر الشّهرستاني في *الملل* (ج1/ص232) تدور على قاعدتين اثنتين : أوّلهما: بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة؛ وثانيهما: بيان خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. وقد قسّمها إلى ثلاث جماعات: الكيومرثيّة: الذين أثبتوا أصلين: يزدان وأهرمن، والأوّل أزليّ والثّاني مُحدَث. والزّروانيّة: قالوا: إنّ الله أبدع أشخاصا من نور كلّها روحانيّة نورانيّة ربّانيّة، ولكنّ الشّخص الأعظم الذي اسمه زروان شكّ في شيء من الأشياء، فحدث أهرمن الشّيطان، يعني إبليس. والزّرادشتيّة.

[2] المعهود في عصرنا استعمال لفظ: مسيحيّ. ولكنّ النّصوص القرآنيّة والحديثة لا تذكر غير لفظ: نصرانيّ، نصارى. وقد اختُلف كثيرا في معرفة إذا كانت مشتقّة أو منقولة عن صفة أو معرّبة. فأرجعها البعض إلى "ناصريّ" نسبة إلى ناصرة، أو إلى "أنصاري"، باعتبار أنّ الحواريّين أنصار الله كما جاء في القرآن الكريم، وأرجعها آخرون –كالزّمخشري– إلى نصران ونصرانة، بمعنى أنّهم نصروا المسيح. وفي *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574) لفظة "نصرانيّة" و"نصارى" تطلق في العربيّة على أتباع المسيح. يرى بعض المستشرقين أنّها من أصل سريانيّ هو: نصرويو Nosroyo ونصرايا Nasraya. ويرى البعض الآخر أنّها من Nazarenes التّسمية العبرانيّة التي أطلقها اليهود على من اتّبع ديانة المسيح.

انظر: *تفسير الرّازي*، ج3/ص105؛ *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586؛ *القاموس الإسلامي* لهيوقس، ص431؛ *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.

فأمّا المجوس، فقلنا إنّ سبب قولهم بالاثنيْن، وتركّهم رسوم الأنبياء، أصْل بدَعهم هو من موزنش -تلميذ بثاغورس- الذي دخل مملكة الفُرْس، وأخذ عنه وارطوس هذا القول ودَعَا إلى المجوس، فأجابوه[1].

ثمّ تكثّرت فيهم البِدَع بعد ذلك.

وأمّا النّصارى، وقولهم في المسيح أنّه ابن الله، لم يعْن به أنّه ابنه من جهة الولادة -عزّ الله أن يتّخذ صاحبة وولدًا-، ولكنّه أراد أنّ الله -عزّ وجلّ- رفَعه، وأعْلى منْزلته، وقرّبه، واختاره، واصْطفاه، وأحبّه؛ وضرب في هذا مثلاً، كما يحبّ الإنسان وَلده، ويصْطفيه، ويقرّبه، ويودّه، ويشفق عليه، كمحبّة الوالد لوَلده، وإشفاقه عليه، ووِدِّه له؛ وأنّه وليُّ الله، كما قال في مواضع كثيرة من الإنجيل ما يدلُّ على ما قلنا.

وقال لحواريّيه[2]: "أنتم أبناء الله"، على هذا المعنى، أيّ أنّ الله اختصّهم واختارهم، وأنّه يودُّهم ويشفق عليهم.

وقال لليهود[3] إنّهم أبناء الشّيطان، كما هو مكتوبٌ في الإنجيل أنّ اليهود قالت له: "أنتَ تشهد لنفسك، وما شهادتك عندنا بصادِقة[4]".

---

[1] في الأصل: **فأجبوه**.

[2] في الأصل: **لحوارية**.

[3] في الأصل: **لليهود**.

يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص210 إلى ص219): "هاد الرّجل: أي رجع وتاب. وإنّما لزمهم هذا الاسم لقول موسى -عليه السّلام-: "إنّا هدنا إليك": أي رجعنا وتضرّعنا. وهم أمّة موسى -عليه السّلام- وكتابهم التّوراة، وهو أوّل كتاب نزل من السّماء... واليهود تدّعي أنّ الشّريعة لا تكون إلاّ واحدة، وهي ابتدأت بموسى -عليه السّلام- وتمّت به، فلم تكن قبله شريعة إلاّ حدود عقليّة وأحكام مصلحيّة... ومسائلهم تدور على جواز النّسخ ومنعه، وعلى التّشبيه ونفيه، والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة واستحالتها... وأشهر فرق اليهود هي: العنانيّة، العيسويّة، المقاربة واليوذعانيّة، السّامرة".

[4] في الأصل: **صادق**.

فأجابَهم وقال: "كالّذي علّمني أبي، كذلك أنْطق وأقول، وإنّما أسْعى بمرضاته في كلّ حين؛ فأمّا أنتم، فإنّما تعملون أعمال أبيكم". قالوا له: "لسنا لغير الله، وإنّما أبونا اللهُ الواحد القهّار".

قال لهم: "لو كان الله أباكم، لأحببتموني وأطعتموني، لأنّي جئتُ من عند الله؛ وإنّما أنتم من أبٍ باغٍ أشرّ، وإنّما تريدون العمل بشهْوة أبيكم الذي لم يزل من بدءِ أمْره للنّاس قاتلاً، ولا يقوى على الحقّ؛ لأنّه ليس فيه شيء من الحقّ، لأنّه كذوبٌ، وأبو الكذب، ومُنْشِئُه، ومُبْتدِعه؛ ومَن كان من [أولياء] الله، فإنّه يسْمع كلام الله ويطيع أمره؛ وأنتم لا تسْمعون ولا تُصدِّقون، لأنّكم لسْتُم من أوْلياء الله".

فانْظر في هذا الكلام، واستدلّ به على ما قلنا: إنّه إنّما أراد أنّه ابن الله على ما وَصفْنا.

ألاَ تراه يقول لليهود: "كالذي علّمني أبي كذلك أنْطق، وأنتم فإنّما تعْملون أعمال أبيكم"؛ وهم يقولون له: "لسنا لغير الله، وإنّما أبونا الله الواحد القهّار"؛ ولم يعنوا أنّه أبوهم من جهة الولادة، ولكن أرادوا أنّهم أوْلياؤه كما وصفْنا؟

ألاَ تراه يقول: "أنتم من أبٍ باغٍ أشرّ، وإنّما تريدون العمل بشهوة أبيكم"؛ يعني به: أنّهم أبناء الشّيطان، لا أنّهم وُلدوا منه، ولكنّهم أولياؤه؟

ألاَ تراه يقول: "لستُم من أولياء الله"؟

فهذا كلّه يدلّ على أنّه لما قال لهم: "أبناء الله"، عنى[1] به: أولياء الله. وكذلك حين قال إنَّهَ ابن الله، أي أنَّهَ وليُّ الله.

قال لحواريّيه في الإنجيل: "آمنوا بالنُّور لتكونوا لله أبناء".

وأيضًا في الإنجيل أنّه ظهر لمريم المجدلانيّة بعد أن خرج من القبر، وقال لها: "لا تقربيني، فإنّي لم أصْعد إلى عند أبي، ولكن انْطلقي وقُولي لإخواني: "إنّي صاعدٌ إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم".

---

[1] في الأصل: **عني**.

ويقول أيضًا: "استُعلِن ابن الله لأن يبطل أعمال الشّيطان، كلٌّ مَن وُلد من الله لا يكون خاطئًا، لأنَّ زرْعه فيه ثابتٌ، وبهذا يستبين أبناء [الله] من أبناء الشّيطان".

وفي موْضِع آخر: "اعْلموا أنَّ كلَّ مَن يعمل البرّ، فإنّه مولودٌ من الله. وانظروا، فما أكثر الودَّ الذي أعطاناه الأب أن نُدْعى: أبناء الله بأعمالنا! أيّها الأحبّاء، نحن الآن أبناء الله!".

وفي موْضِع آخر: "إذا تصدّقتَ، فلا تعرّفنَّ شمالُك ما صنعت يمينُك، لتكون صَدَقَتُك سرًّا؛ وأبوك الذي يعلم سرّك يُجزيك علانيّة. وإذا صلّيتَ، فادْخُل مخدعك، وأغْلق بابك، وصلّ لأبيك الخفيّ؛ وأبوك المطّلِع على سريرتك يُجزيك علانيّة".

وفي موْضِع آخر: "أيّها البَنُون لا يكون وِدُّنا بالكلام ولا باللّسان، بل بأعمال البرّ.

والحقّ أقول: إنّما نحن أبناء الله إذا نحن ودَدْنا الله، وعملنا بوصاياه. وهذا هو الحقُّ من ودّ الله. كنتم قبل لسْتم بشعب الله؛ فأمّا الآن، فشعب الله".

وفي موْضِع آخر: "طوبى لعاملي السّلم بأنّهم يُدعون أبناء الله!".

وفي موْضِع آخر: "قدّموا الخيْر إلى مَن يبْغضكم، وصلُّوا على الذين يطردونكم غضبًا لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السّماء".

وفيه أيضًا: "إن أنتم غفرتم للنّاس خطاياهم، فإنّ أباكم الذي في السّماء يغْفر لكم؛ وإن أنتم لم تغفروا للنّاس، فإنّ أباكم لا يغْفر جهلكم".

وفيه أيضًا: "يشْرق الصدّيقون كالشّمس في ملكوت أبيهم؛ مَن كانت له أذُنان سامعتان، فليسْمع".

وفيه أيضًا: "لا تدعوا آباءكم في الأرض، لأنّ أباكم واحدٌ في السّماء".

وفيه أيضًا: "إن كنتم، أيّها الأشرار، تعملون[1] أن تُعطوا أبناءكم مواهب صالحة، فبِكَم أحْرى أبوكم الذي في السّماء يُعطي القدس الذي تسألونه؟!".

---

[1] في الأصل: **تعلمون**.

هذا كلّه مكتوبٌ في الإنجيل. ومَن تدبّره، وميَّز قوله، عرف مُراده حين يقول مرّة: "جئتُ من عند أبي، وأنْطلِق إلى عند أبي". ومرّة يقول لحواريّيه: "وصلّوا على الذين يطردونكم غضبًا لتكونوا أبناء أبيكم في السّماء". ومرّة يقول: "لا تدعوا أبًا لكم في الأرض، لأنّ أباكم واحدٌ في السّماء". ويقول: "تكونوا للعليّ أبناءً". ويقول: "فبكَمْ أحْرى أبوكم الذي في السّماء يعطي القدس الذي تسألونه؟!"؛ فسمّاه أيضًا أبًا للأشرار إذا صلحوا، وسألوه القدس.

ويقول للحواريّين: "أنتم شعْب الله". ويقول: "يستبين أبناء الله [من] أبناء الشّيطان".

وعلى هذا المعْنى، قال: "جئتُ من عند أبي وأبيكم، وأنْطلق إلى عند أبي وأبيكم الذي في السّماء".

ويدْعوهم أيضًا لنفْسه حيث يقول: "يا بني، أنا معكم زُمَيْنٌ يسير، وستطلبونني من بعده". إنّما يعني بقوله: "يا بني": يا أوليائي وخلصائي؛ ويعني أنّه يودُّهم ويشْفق عليهم، كما يشْفق الوالد على ولده ويودّه.

فمَن تدبّر هذا الكلام، عَلم أنّ هذه المعاني كما ذكرنا.

وهذا في الإنجيل كثيرٌ، أنّه سمّى نفسه: "ابن الله"، وسمّى الحواريّين: "أبناء الله"؛ وكان مُراده من ذلك ما ذكرناه، وجعَل هذا اللّفظ مثلاً.

ألاَ تراه يقول: "ستأْتي ساعة لا أكلّمكم بالأمثال، وأشْرح لكم مجد الأب جهارًا"؟

وقد قال في مَواضِع كثيرة في الإنجيل إنّه ابن بشر، وابن الإنسان.

قال في مَوْضِع: "بحقّ أقول لكم ما جاء ابن البشر إلاّ ليُحيي ما كان هالكًا".

وفي مَوْضِع آخر: "إنّا نصْعد إلى وادي شلم، وابن البشر يسلّم إلى عُظماء الكهنة، فيسحبونه للموت".

وفي مَوْضِع آخر: "إنّكم لا تكلّمون بني إسرائيل حتّى يأتيكم ابن الإنسان".

وفي موْضِع آخر: "الآن ظهَر مجْد ابن الإنسان، ومدَحه، وحمد الله به، وعلى يديْه".

فهذه الألْفاظ كلّها تدلُّ على ما قلْنا حين سمّى نفسه: ابن الله، والحواريّين: أبناء الله؛ وأراد بهذا كلّه أنّهم أولياء الله وخلصاؤه؛ كما الأمْر كما قلنا، لَوَجب على النّصارى أن يدعوا الحواريّين كلّهم: أبناء الله، كما قالت في المسيح إنّه ابن الله.

وقد بيَّن المسيح (ع) في الإنجيل أنّ الأمر كما ذكرنا؛ لأنّه قال في مواضع كثيرة إنّه ابن البشر وابن الإنسان، وعرّفهم أنّه لا يريد بقوله: ابن الله أنّه من جهة الولادة ابن الله –تعالى الله عن ذلك–؛ ولكنّ النّصارى غلطت في التّأويل، وغلطت في القول، فضلّت وقالت هو آبٌ وابن.

وقد قالت غلاة هذه الأمّة في النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، وعن عليّ[1] –كرّم الله وجهه–، والأئمّة من بعدهما أعْظم من هذا. فإنّهم قالوا إنّهم آلهة –لا إله إلاّ الله سبحانه–، بل كثير منهم ادّعوا لسلمان وغيره مثل ذلك.

وهذا بابٌ يطول القوْل به، ومقالات الغُلاة مشهورة في هذه الأمّة، وفي جميع الأمَمِ، في قولهم بإلهيّة البشر.

---

[1] واسم أبي طالب: عبد المناف بن عبد المطّلب. ويُكنى عليّ أبا الحسن. وأمّه فاطمة بنت أسد بن هامش بن عبد مناف بن قصيّ. وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى. وأمّهم فاطمة بنت الرّسول. لما قُتل عثمان بويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة يوم الجمعة 13 ذي الحجّة من سنة 35 هـ. توفّي مقتولاً بالكوفة في شعبان سنة 38 هـ.
حول ترجمته راجع: *تاريخ الخلفاء* للسّيوطي، ص185 إلى ص211.

وليس للمُلحِد حجّة في طعْنه على الأنبياء (ع)، وفي عيْبه المسلمين[1] بضلالة النّصارى، وما ابْتدَعه من جهْل معاني كلام الأنبياء في كلامه؛ فضلّوا في القوْل، وافْتروا على الله.

ولوْ أنّ الأمم كلّها اهتدَت قاطِبة، ولم يقمْ في كلّ شريعة هؤلاء المبتدِعون الذين اختلفوا في الأهواء، واعْتقدوا الرّياسات، وضلّوا عن طريق الهُدى وسواء السّبيل، وتأوّلوا كلام الأنبياء بآرائهم، ولم يرْجعوا إلى العلماء اسْتنكافًا واستكبارًا، وأضلّوا أتباعهم؛ لَسقط الاختلاف، وصفَا الأمر، وارْتفعت المحنةُ.

ولكنّ الله امْتحن الخلْق بالاختلافات، ليطلبوا الائتلاف، ويَدَعُوا التّنازع والتّفرّق، ويعرفوا معاني كلام الرّسل؛ فيقتدوا بأوليائه الهادين، ويتجنّبوا سبيل أعْدائه الضّالّين؛ لأنّ الدّنْيا دار المحْنة ومحلُّ فتْنة، ميَّز الله فيها بين العباد وابتلاهم بما أراد، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِين أَحْسَنُوا بالحُسنى﴾[2].

فسبيل النّصارى في القوْل بأنّ المسيح ابن الله، وسبيل المجوس في القول بالاثنيْن، وسبيل سائر الضُّلاّل في كلّ أمّة، هو على ما شرحْناه؛ وليس ضَلالُهم وبِدَعهم بحجّة للمُلحِد.

---

[1] يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج1/ص40–ص41): "فرق في التّفسير بين الإسلام والإيمان. والإسلام قد يرد بمعنى الاستسلام ظاهرًا، ويشترك فيه المؤمن والمنافق. قال الله –تعالى–: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (سورة الحجرات (49)، الآية 13)، ففرّق التّنزيل بينهما. فإذا كان الإسلام بمعنى التّسليم والانقياد ظاهرا موضع الاشتراك، فهو المبدأ؛ ثمّ إذا كان الإخلاص معه بأن يصدّق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، ويقرّ عقدا بأنّ القدر خيره وشرّه من الله –تعالى–، بمعنى أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كان مؤمنا حقّا. ثمّ إذا جمع بين الإسلام والتّصديق، وقرن المجاهدة بالمشاهدة، وصار غيبه شهادة؛ فهو الكمال. فكان الإسلام مبدأ والإيمان وسطًا والإحسان كمالاً، وعلى هذا شمل لفْظ المسلمين: النّاجي والهالك".

[2] سورة النّجم (53)، الآية 31.

فإنّ الأنبياء لم يختلفوا في أصْل الدّين، واتّفقوا كلّهم على أنّ الله –عزّ وجلّ– واحدٌ لا إله غيره، ولا ضدٌّ له ولا ندٌّ، ولم يتّخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يُشْرِك في ملْكه، وسلْطانه، وحكْمه من بريّته أحدًا؛ ودعوْا إلى عبادته على حسب ما قدّمنا القوْل به.

وقد نزّههم الله أن يقولوا في الله –سبحانه– ما لا يليق بعظمته وكبريائه –تعالى الله عمّا يقول الظّالمون علوًّا كبيرًا–، ونزّه أنبياءَه (ع) والهادين من أُممهم عن الافْتراء على الله، فلم يختلفوا في أصول العبادة.

كما شرحْنا أنّهم أمروا بها، ودعوا إليها، ووعدوا وأوْعدوا، وحثّوا الأنام على الاجتهاد وعلى طلب ما عليه المعوَّل، وله القصْد، وعنه يجب البحث والنّظر، رجاءً للثّواب وخشْية من العقاب في يوم المداينة والجزاء.

وإن لم يكن الأمْر على ما دعوْا إليه، ولم يكن نشورٌ، ولا بعثٌ، ولا جنّةٌ، ولا نارٌ على ما ادّعاه الملحِدون والمعطِّلون؛ فإنّ النّظر في هذه الأمور والبحْث عنها، لا معْنى ولا محْصول له؛ والجاهل، والعالم، والبرّ، والفاجر، والظّالم، والعادِل فيها سواء.

وإذًا، ليس لإتعاب النّفس والمشقّة في البحْث عن ذلك وطلبه معْنى، إذ لم يكن في ذلك نفعٌ ولا جدْوى.

ونعوذ بالله أن يكون كذلك؛ بل الأمْر كما قال الصّادق جعفر بن محمّد (ع) لبعض الملحِدين: "إن كان الأمْر كما تقولون –وليس كما تقولون–، فقد نجوْنا ونجوْتم؛ وإن كان الأمْر كما نقول –وهو كما نقول–، فقد نجوْنا وهلكْتم".

ونقول إنّ الله –عزّ وجلّ– لم ينشئ هذا الخلْق لعبًا، ولا خَلَق السّموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا بعَث النّبيّين عبثًا، ولا ترَك النّاس سدًى؛ ﴿وَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار﴾[1].

وأمّا قوْل الملحِد: إنّ القرآن يخالِف ما عليه اليهود والنّصارى من قتْل المسيح (ع)، لأنّ اليهود والنّصارى يقولون إنّ المسيح قُتِل وصُلِبَ، والقرآن ينْطق بأنّه لم يُقتَل ولم يُصلَب، وأنّ الله رَفَعه إليه.

---

[1] سورة ص (38)، الآية 27.

فإنّا نقول: إنّ الذي في القرآن هو حقٌّ وصدقٌ، وهو مثلٌ ضرَبه الله، يعرف تأويله أهلُ العلم من الأمّة.

ومع ذلك، فقد قال بعض العلماء قولاً، ذكروا: "أنّ معنى قوله –عزّ وجلّ–: ﴿وما قتلُهُ يَقِينًا: بَلْ رَفَعَهُ الله إِلَيْه﴾[1] إنّما عنَى أنّهم، وإن كانوا ادّعوا أنّهم قتلوه، فإنّه حيٌّ، رفعَه الله إليه؛ وهو عند الله محبورٌ، مُكرَّمٌ، مسرورٌ، لأنّه شهيدٌ؛ والشّهداء هم أحْياء عند الله، كما وصفَهم الله به، فقال –جلّ ذكره–: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُون﴾[2]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلاَ تَحْسَبْنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عند رَبِهِمْ يُرْزَقُون فَرِحِينَ بِمَا آتَهُمْ الله مِنْ فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ خوف عليهم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

قال: فكذلك المسيح (ع) لم يقْتلوه يقينًا، أي لم يقْتلوه على الحقيقة، لأنّه شهيدٌ رفَعه الله إليه، وهو حيٌّ عنده، محبورٌ، مسرورٌ.

ومثل ذلك في الإنجيل في بُشرى يوحنّا: "أنّ المسيح مات بالجسد، وهو حيّ بالرّوح؛ فتفكّروا بأنّ الذي مات بالجسد استراح من الخطايا".

وفي بُشرى لوقا: "أقول لكم يا أوليائي: لا تخافوا الذين يقْتلون الجسد ولا يقدرون على غير ذلك. أخبركم ممَّن تخافون من الذي يقتل الجسد، وهو مُسلَّطٌ أن يقذفه في نار جهنّم؛ أقول لكم يقينًا إنّي أصير إلى ملكوت السّماء؛ وهذا جسدي يُبذَل للموْت في سبيلكم. فلذلك، فاصْنعوا كلّ ما اجْتمعتم لذكري".

وفي بُشْرى متّى: "ما سمعْتم بآذانكم، فنادوا به فوق الطّوايا؛ ولا تخشوا الذين يقتلون الجسد، ولا يقدرون على قتْل النّفس؛ واخشوا مَن يقْدر أن يهلك النّفس، ويطْرح الجسد في النّار".

فهذا ما في الإنْجيل؛ وهو مُوافِقٌ لِمَا في القرآن في هذا المعْنى.

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 157.

[2] سورة البقرة (2)، الآية 154.

[3] سورة آل عمران (3)، الآية 170.

وقد قال المسيح (ع) إنّه يبْذل جسده للموْت، ويصير إلى ملكوت الله. وقال: "يقتلون الجسد، ولا يقْدرون على قتْل النّفس".

وقد وافق هذا القوْل ما قال الله –عزّ وجلّ– في القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يقينًا بَلْ رَفَعَهُ الله إلَيْهِ﴾[1].

وقال في آية أخرى حكاية عن المسيح (ع): ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شيء شَهِيدٌ﴾[2]. فقال: ﴿وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم﴾[3]. ثمّ قال: ﴿فلمّا توفّيتني كنتَ أنتَ الرّقيب عليهم وأنتَ على كلّ شيء شهيدٌ﴾[4]، فدلّ أنّ الله –عزّ وجلّ– توفّاه لما غاب عنهم.

فالقرآن قد وافق الإنجيل أنّ الله توفّاه، ورفعَه إليه؛ وأنّه حيٌّ عند الله. وصَحّ هذا المعنى من القرآن والإنجيل، وبَطُلت دعوى الملحِد أنّ القرآن يخالف الإنجيل في هذا الباب.

---

[1] سورة النّساء (4)، الآية 157.

[2] سورة المائدة (5)، الآية 117.

[3] سورة المائدة (5)، الآية 117.

[4] سورة المائدة (5)، الآية 117.

الفصل السادس
الرّدّ على كلّها حقّ
لكن يختلط به الباطل

– **قال المُلحِد**: رأيْنا اعتماد المقلِّدين في اعْتقادهم صحّة مذاهبهم على تصْديق أسلافهم، وتعظيم أئمّتهم، وكثرة مساعداتهم؛ يعني بذلك: أهْل الإسلام.

ثمّ قال: إن كان ذلك حقًّا لهذه العلّة، فكذلك سبيل اليهود، والنّصارى، والمجوس، وغيرهم من أهل المِلَل، لأنّ سبيلهم في ذلك سبيل أهْل الإسلام.

وإن كان من جهة القَهْر والغَلَبة، فكذلك لهذه المِلَل مثل ذلك، كغلبة النّصارى بروميّة، واليهود بخزر، والمجوس في بعض الجبال، والمنّانيّة[1] بالصّين والتّرك، والبراهمة بالهنْد؛ كغلبة المسْلمين بالعراق، والحجاز، والشّام، وخرسان، وسائر البلدان.

[1] هو دين استحدثه ماني من النّصرانيّة والمجوسيّة. وهو ماني بن فاتك –أو فتّق–، وُلد في مسّين ببابل سنة 215 م أو 216 م. وظهر في زمان سابور بن أزدسير أو أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة 279 م. وينتسب إلى أسرة إرانيّة عريقة، فأمّه وأبوه من العائلة الأشكانيّة (انظر: *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن، ص171). وقال ماني بأصلين قديمين: النّور والظّلمة. وقيل إنّه أخذ عن المسيحيّة قولها بالتّثليث. فالإله عنده مزيج من " العظيم الأوّل" و"الرّجل" و"أمّ الحياة". وفي النّصوص التي حُفظت عن المانويّة عبارات مأخوذة عن الأنجيل (انظر: نفس المرجع، نفس الصّفحة). ويقول ماني بالتّناسخ أيضًا. وقد أطنب ابن النّديم في ذكر تفاصيل مذهبه. كما وضع الشّهرستاني جدولا للمقارنة بين الشرّ والخير في الجوهر والنّفس والفعل والحيّز والأجناس والصّفات.
انظر: الشّهرستاني، (كيلاني) ج1/ص244 و(بدران) ج1/ص234؛ *التّبصير في الدّين* للإسفراييني، ص136؛ *التّنبيه* للملطي، ص90؛ *المنية* لابن المرتضى، ص60؛ *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194؛ *الفهرست* لابن النّديم، ص391؛ *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا، ص258 إلى ص260؛ *مروج الذّهب* للمسعودي، ج1/ص250- ص251.

فإذًا النّصرانيّة حقٌّ بروميّة، وباطلٌ في سائر البلدان؛ والمجوسيّة حقٌّ أيّام الأكاسرة، وباطلٌ في دولة الإسلام. وإن وجب ذلك، وجب أن يكون الشّيء حقّا باطلاً، وهذا خُلفٌ.

هذا قوْل الملحِد.

– نقول في جوابه: لا يجوز أن يكون الشّيءُ حقًّا باطلاً، ولكنّا نقول: إنّ أصل هذه المِلل كلّها حقٌّ لا مريّة فيه، لأنّها من رسوم الأنبياء (ع)، رسموها[1] لأممهم وأمَروهم بالاقتداء بما فيها؛ وكلّ نبيّ دَلَّ على النّبيِّ الذي يجيءُ بعده، وشهد بصدْق مَن تقدّمه، وأمروا أُممهم بالإيمان بمَن مضى والتّصديق لمن يجيءُ بعْدهم؛ فاخْتلفت أهواؤهم، وابْتدعوا البِدَع، وبغَى بعضهم على بعض، وخلطوا بدعهم بسُنن الأنبياء (ع)؛ وبعث الله –عزّ وجلّ– النّبيّين في دهور شتّى وأزْمنة مختلفة ليعظوهم ويعرّفوهم وجهَ الحَقِّ من الباطل، وسبيل الهُدى من الضّلال، ويخلّصوا السّنن من البدع؛ وامْتحن –عزّ وجلّ– عباده بطاعتهم.

فكلّ نبيّ جاء وافق مَن تقدّمه في أصْل التّوحيد، ودعوا كلّهم إلى عبادة الواحد الباري –سبحانه–، ووضعوا للنّاس كتبًا بوحْي من الله –عزّ وجلّ– ومن كلامه.

فبقيتْ قوّة ذلك الوحْي، وسار طلسمًا للأُمم الذين تمسّكوا بتلك الشّرائع، ورسَخ ذلك في قلوبهم، لأنّه زرعُ الأَنْبِياء؛ ولكن قد خُلِطَتْ فيه البدَع، كما يختلط العشب بالزّرْع؛ مثل ما قال المسيح في المثل الذي ضرَبه، فقال: "يشْبه ملكوت السّماء رجلاً زرَع في قريته زرعًا صالحًا. فلمّا رقد النّاس، جاء عدوٌّ له، فزرع زُؤَانًا بين الحنطة...". وقد ذكرنا هذا المثل وتفسيره.

فهكذا كانوا يخْلطون البدع بالسُّنن، وكان ذلك بمنزلة الزُّؤان الذي زرعه الشّيطان بين الحنْطة.

فكذلك كان سبيل المبتدِعين في كلّ شريعة حُبًّا منهم للرّياسة، وتنافسًا على أعراض الدُّنيا.

---

[1] في الأصل: **رسومها**.

فدعاهم ذلك إلى تكذيب مَن جاءهم من الأنبياء بعد الأنبياء الذين تقدّموهم، وتعلّقوا بالرّسوم التي كانت في أيديهم، واستغووا ضعفاءهم الذين لم يعرفوا حقائق ما في الكتب، لأنّ أكثر كلام الأنبياء في كلّ أمّة.

فخالفهم الرّؤساء المبتدِعون، وبغوا عليهم، وتعلّقوا بتلك الرّسوم التي خلطوها ببِدَعهم، وزادوا فيها ونقصوا؛ كما ذكر الله –عزّ وجلّ– ذلك في القرآن، فقال: ﴿وإنّ منكُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِن الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وظواهر رسوم الأنبياء، التي هي في أيدي الأُمم، هي حقٌّ، والبدع التي خلطها بها المبْتدعون هي باطلٌ. والمتمسّكون بتلك الرّسوم معهم حقٌّ قد خُلط بباطل.

فعلى هذا، النّصرانيّة بروميةٌ، واليهوديّة بالخزر، والمجوسيّة في بعض الجبال –وسبيلها، كما قلنا، في كلّ بلد، وفي كلّ دهْر وزمان– معهم حقٌّ قد خُلط بباطل.

ومثال ذلك، مثال إنْسان معه صرّة مسْك قد خلط به أضعافه ممّا يشاكل[2] جرمه جرم المسْك؛ مثل الزّعفران، ولبّ الفسْتق المحرّق، وغير ذلك ممّا يُغَشُّ به المسْك، ويُنفق كلّه بريح المسْك؛ ومثل الذّهب والفضّة وما يختلط بهما من الأجسام المذابة، فينفق مع الذّهب والفضّة النّقيّة.

والبِدَع التي خُلطت بتلك الرّسوم مثال ما ذكرنا من الغشوش. وقد ذكر حزقيال –النّبيّ– في كتابه مثل ذلك، وقال:" أَوحَى الرّبُ إليَّ وقال: "يا أيّها الإنسان قد صار بنو إسرائيل كلّهم عندي مُرَذَّلين كالنّحاس والرّصاص والأسربُّ في الكوز، كذلك تذوبون وتعْلمون أنّي أنا الرَّبُّ الذي أَنزلتُ بكم غضبي".

---

[1] سورة آل عمران (3)، الآية 78.

[2] في الأصل: **يشكل**.

فهكذا سبيل الشّرائع كلّها، هي حقٌّ قد خُلِط بباطل؛ وبقي أهْل تلك الشّرائع المستولِية على تلك الرّسوم، وضلّوا عن سبيل الهُدى، ولا يحسنوا[1] أن يميّزوا الحقّ من الباطل.

ولولا ما في تلك الرّسوم من قوّة الوحْي الذي هو كلام الله، كالتّوراة، والإنجيل، وسائر الكتب المنزَّلة، لَنفقت البدع، ولَمَا بقي رسم الشّرائع في العالم؛ ولكنّ تلك القوّة قد أمْسكت عليهم الرّسوم، وجذبت قلوب البشر إلى تلك الشّرائع؛ وبتلك القوّة صارت لهم الغلبة والقهْر في هذه الممالك؛ ولكنّه حقٌّ ممتزجٌ بباطل.

وبهذا شهدت الأمم المتأخّرة للأمم المتقدِّمة، كشهادة النّصارى: أنّ التّوراة حقٌّ، وما أبْدعه اليهود باطلٌ؛ وكشهادة أهل الإسلام: أنّ التّوراة والإنجيل حقٌّ، وما أبْدعه اليهود والنّصارى باطلٌ.

والمتمسِّكون بذلك جاهِلون ضالُّون، لتركهم أمْر الأنبياء الذين جاءوا بعد مَن تقدّمهم، ودعوا الأُمم إلى أن يميّزوا لهم الحقّ من الباطل، ويعرّفوهم سبيل الهُدى؛ كما هو مكتوبٌ في الإنْجيل أنّ يوحنّا الصّابغ قال: "أنا أصْبغكم بالماءِ، فأمّا الذي يجيء بعدي فيصْبغكم بروح القدس وبالنّار، الذي بيده المدرى، ينقّي بيادره ويحرز الحنطة في أهرائه".

ولولا أصْل هذه الكتب حقّ، وهي مُنزَّلة من الله –عزّ وجلّ– إلى أنبيائه (ع)، لَمَا أقرّ –صلّى الله عليه وسلّم– أحدًا من أهل الذّمّة عليها، بل كان يستنّ فيهم بسنّة العرب الذين كانوا عبدة الأصْنام[2].

---

[1] في الأصل: **يحسنه**.

[2] في الأصل: **الأنام**.

يقول الشّهرستاني في كتاب *الملل والنّحل* (ج2/ص259 إلى ص262): "اعلم أنّ الأصناف التي ذكرنا مذاهبهم يرجعون في آخر الأمر إلى عبادة الأصنام، إذ كان لا يستمرّ لهم طريقة إلاّ بشخص حاضر، ينظرون إليه ويعكفون عليه. وعن هذا اتّخذ أصحاب الرّوحانيّات والكواكب أصناما زعموا أنّها على صورتها... لكنّ القوم لما عكفوا على التّوجّه إليها، كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهيّة لها، وعن هذا كانوا يقولون: "ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى"، فقد كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الرّبوبيّة والإلهيّة لما تعدّوا عنها إلى ربّ الأرباب. ومن أشهر

فإنّه حمَلهم على خطبيْن: إمّا قبول ما أتى به، وإمّا القتْل؛ ولم يقْبل منهم الجزية كما قبلها من أهْل الذّمّة، لأنّه وجدَهم عاكفين على الأصْنام التي ابْتدعوها، وادّعوا أنّهم على ملّة إبراهيم (ع)؛ وبعث الله محمّدًا بإحياء ملّة إبراهيم، فقطع رسوم المبتدِعين في تلك الملّة، إذ كان الله –عزّ وجلّ– أرْسله بتجديدها، فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ المسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾[1].

ونقَّى الملّة من البدَع، وجَدّد ما كان من رسوم إبراهيم (ع)، مثل حجّ البيت، والختان، وسائر ذلك ممّا كانت عليه العرب من بقايا سُنن إبراهيم؛ وأقرّ اليهود والنّصارى على مِلَلِهم، لتبقى رُسوم الأنبياء، وتكون عبْرة للحُكماء والعُلماء في هذه الملّة، وحجّة لله على النّاس أجْمعين؛ وألْزمهم الجزية والذّلة لما امتنعوا من قبول ما جاء به، ومن إجابتهم في إقامة طاعته فيما دعاهم إليه من أن يخلّص لهم الحقّ الذي معهم من الباطل الذي خلطوه به.

ولولا أنّه –صلّى الله عليه وسلّم– أراد أن يعرّف[2] النّاس أنّ الذي معهم من الكتب المنزَّلة هو حقٌّ، لَمَا أقرّهم على ذلك؛ فإنّ شوْكتهم كانت أهْون من شوْكة العرب؛ ولو شاء لأبادهم وقطع رسومهم، كما فعل بالعرب؛ فكان لا يبْقى في دار الإسلام شيءٌ من رسوم أهل الذّمّة، إذ كان الإسلام قد غلب جميع الأمم.

فرق عبدة الأصنام: المهاكاليّة، البركسهيكيّة، الدّهكينيّة، الجلهكيّة (أي عبّاد الماء)، الأكنواطريّة (أي عبّاد النّار).

[1] سورة الحجّ (22)، الآية 78.

[2] في الأصل: **عرف**.

ولما فُتِحت بلاد العَجَم، أراد عمر بن الخطّاب[1] أن يقتل المجوس، وأن لا يقْبل منهم الجزية؛ فقال عليٌّ (ع): "إنّه كان لهم نبيٌّ وكتابٌ، فيجب أن تستنَّ فيهم بسنّة أهْل الكتاب"[2]؛ فأقرّهم حينئذ على ملّتهم.

ولولا أنّ معهم رسمًا من رسوم الأنبياء (ع)، وإن كانوا قد خلطوه بالبدع، لَمَا كان يوجد في مملكة الإسلام مجوسيّ.

فالمِلل كلُّها سبيلها على ما ذكرنا، هي حقٌّ، وهي رسوم الأنبياء، لكن قد خُلط بها الباطل؛ ومثالها ما قد ذكرناه في باب المسْك، والذّهب، والفضّة؛ فهي في جميع المواضع، وفي كلّ دهْر وزمان، حقٌّ قد خُلِطَ به الباطل.

وليْس الأمْر كما ذكر الملحِد: أنّه كان الأمْر بالغَلَبة والقهْر، فاليهوديّة حقٌّ بالخزر، والنّصرانيّة حقٌّ برومية، وهما باطلٌ في غيرهما من المواضع؛ وكذلك المجوسيّة حقٌّ أيّام الأكاسرة، وباطلٌ في دولة الإسلام؛ وأنّه، إن وجب ذلك، وَجَب أن يكون الشّيء حقًّا باطلاً؛ وهذا خُلفٌ.

هكذا قال الملحِد.

وليْست له في هذا حجّة، لأنّ سبيل المِلَل، كما ذكرنا، أنّها حقٌّ قد خُلط بها الباطل في كلّ بلد وفي كلّ وقت وزمان، وليست بحقّ في بلَد وفي وقْت، وباطلٌ في بلَد وفي وقْت؛ فيكون الحقّ باطلاً. ويكون خُلفًا.

---

[1] هو أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه–، أبو حفص العدوي الفاروق، وزير رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–. وهو الذي سنّ المحدّثين التّثبّت في النّقل، وربّما كان يتوقّف في خبر الواحد إذا ارْتاب. وقد كان عمر أمر الصّحابة أن يقلّوا الرّواية عن نبيّهم ولئلاّ يتشاغل النّاس بالأحاديث عن حفظ القرآن. استشهد أمير المؤمنين عمر في أواخر ذي الحجّة من سنة ثلاث وعشرين، وعاش نحوا من ستّين سنة، وقيل إنّه عاش خمسين سنة، والأرجح أنّه عاش ثلاثًا وستّين سنة.

حول ترجمته راجع: الذّهبي، *تذكرة الحفّاظ*، ج1/ص5 إلى ص8.

[2] في الأصل: **الكتابي**.

ونذْكر ما يجب في باب الغلَبة والقهْر بعد هذا في موْضعه، ولنُشبع القول فيه -إن شاء الله تعالى-.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع المذكورة في المقدمة

- *تاريخ الحكماء* لجمال الدّين القفطي. تحقيق جوليوس ليبرت. ليبسك. 1903.
- ذيل كتاب *دراسات في الأدب العربيّ* لكارل بروكلمان، ج 1.
- *شذرات الذّهب في أخبار من ذهب* للعماد الحنبلي. في ثمانية أجزاء. القاهرة. 1350 هـ. – 1351 هـ.
- *عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء* لابن أبي أصيبعة. في جزأين. المطبعة الوهبيّة. القاهرة. 1300 هـ. (أعيد طبعه في بيروت سنة 1956).
- *كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون* لحاجّي خليفة. في جزأين. بعناية وكالة المعارف. القاهرة. 1941- 1943.
- *وفيّات الأعيان* لابن خلّكان. في ثمانية أجزاء. تحقيق إحسان عبّاس. دار الثّقافة. بيروت. د. ت.

قائمة مصادر ومراجع التحقيق

–أ–

– *الأئمّة الإثنا عشر* لابن طولون. تحقيق صلاح الدّين المنجد. بيروت. 1958.

– *أبجد العلوم* لصدّيق بن حسن القنوجي، ج 2.

– *ابن حنبل* لمحمّد أبو زهرة.

– *ابن الرّاوندي* مقالة لبول كراوس نشرت باللّغة الألمانيّة في *مجلّة الدّراسات الشّرقيّة* وترجمها عبد الرّحمان بدوي في كتابه *من تاريخ الإلحاد في الإسلام* (ص75 إلى ص188). القاهرة. 1945.

– *إتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفا* لتقيّ الدّين المقريزي. تحقيق جمال الدّين الشيّال. القاهرة. 1967.

– (كتاب) *أخبار الرّاضي والمتّقي* للصّولي.

– *أخبار الظرّاف والمتماجنين* لابن الجوزي. دمشق. 1347 هـ.

– *أخبار العبّاس وولده*. تحقيق عبد العزيز الدّوري. بيروت. 1971.

– *أخبار العلماء بأخبار الحكماء* للقفطي.

– *أخبار القضاة* لوكيع محمّد بن خلف. في ثلاثة أجزاء. القاهرة. 1366 – 1369 هـ.

– *أخبار النّحويّين البصريّين* لأبي سعيد السّيرافي. تحقيق طه محمّد الزّيني ومحمّد عبد المنعم خفاجة. القاهرة. 1955.

– *أرسطو* لعبد الرّحمان بدوي.

– *الإستيعاب في معرفة الأصحاب* لأبي عمر بن عبد البرّ. في أربعة أجزاء. تحقيق علي محمّد البجاوي. مطبعة نهضة مصر. القاهرة.

– *أسد الغابة في معرفة الصّحابة* لعزّ الدّين ابن الأثير الجزري. في خمسة أجزاء. طهران. 1342 هـ.

– *الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة* لسامي العيّاش.
– *الإشارة إلى من نال الوزارة* لابن الصّيرفي. تحقيق عبد الله مخلص. مصر. 1924.
– *الإصابة في تمييز الصّحابة* لابن حجر العسقلاني. في ثمانية أجزاء. القاهرة. 1323 هـ.
– *إصطلاحات الصّوفيّة* للقاشاني.
– *الإعتقادات* للرّازي.
– *الأعلام* لخير الدّين الزّركلي. في عشرة أجزاء. الطّبعة الثّانية. مصر.
– *أعمال الأعلام* للسان الدّين ابن الخطيب.
* تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت. 1956.
* القسم الثّالث. تحقيق العبّادي والكتّاني. الدّار البيضاء. 1964.
– *أعيان الشّيعة*، في 23 جزء.
– *الأغاني* لأبي الفرج الأصبهاني.
* في 25 جزء. دار الثّقافة. بيروت.
* في 21 جزء. طبعة السّاسي.
– *إلجام العوامّ عن علم الكلام* لأبي حامد الغزالي.
– *الإمام زيد* لمحمّد أبو زهرة.
– *إنباه الرّوّاة على أنباه النّحاة* لجمال الدّين القفطي. في ثلاثة أجزاء. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب المصريّة. القاهرة. 1950.
– *الإنتصار والردّ على ابن الرّاوندي الملحد* لأبي الحسين عبد الرّحيم بن محمّد الخيّاط المعتزلي. تحقيق نيبرج. دار الكتب المصريّة. 1925.
– *الإنتقاء في فضائل الثّلاثة الأئمّة الفقهاء* لابن عبد البرّ. القاهرة. 1350 هـ.
– *أنساب الأشراف* للبلاذري.
* الجزء الأوّل. تحقيق محمّد حميد الله. دار المعارف. القاهرة. 1959.
* الجزء الرّابع والجزء الخامس. تحقيق جويتاين. القدس. 1936–1938.
– *الأنساب* للسّمعاني. في ستّة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1962–1964.

- *إيران في عهد السّاسانيّين* لكرستنسن.

-ب-

- *البخلاء* للجاحظ. تحقيق طه الحاجري. القاهرة. 1948.
- *بحار الأنوار*، في 11 جزء.
- *البدء والتّاريخ* لمطهّر بن طاهر المقدسي. في خمسة أجزاء. نشر كلمان هوار. باريس. 1899-1919.
- *بغية الطّلب من تاريخ حلب* لابن العديم. (صورة عن نسخة خطّية محفوظة بمكتبة الجامعة الأمريكيّة في بيروت).
- *بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة* لجلال الدّين السّيوطي. الطّبعة الأولى. 1926.
- *بلغة الظّرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء* لعليّ بن محمّد بن أبي السّرور الرّوحي. مصر. 1327 هـ.
- *البيان المغرب* لابن عذارى المرّاكشي. (القسم الخاصّ بتاريخ الموحّدين). تحقيق أمبروسي هويسي ميراندا ومساهمة محمّد بن تاويت ومحمّد بن إبراهيم الكتاني. تطوان. 1960.
- *البيان والتّبيين* للجاحظ. في أربعة أجزاء. تحقيق عبد السّلام هارون. القاهرة. 1961.

-ت-

- *تاج التّراجم في طبقات الحنفيّة* لأبي العدل زين الدّين قاسم بن قطلوبغا. بغداد. 1962.
- *تاج العروس* للزّبيدي (ج4/ص245). المطبعة الخيريّة. مصر. 1306 هـ.
- *تاريخ* ابن العبري.
- *تاريخ أبي الفدا* لأبي الفداء، ج 2.

– *تاريخ الأدب العربي* لكارل بروكلمان. في ثلاثة أجزاء. ترجمة عبد الحليم النّجّار. دار المعارف. القاهرة. 1959- 1962.
– *تاريخ الإسلام* للذّهبي. في ستّة أجزاء. طبعة القدسي. القاهرة.
– *تاريخ بغداد* للخطيب البغدادي. في 14 جزء. (طبعة مصوّرة عن الطّبعة الأولى). نشر دار الكتاب العربي. بيروت.
– *تاريخ التّراث العربي* لفؤاد سزكين. ج 2.
– *تاريخ التّصوّف الإسلامي* لعبد الرّحمان بدوي.
– *تاريخ الجهميّة والمعتزلة* للقاسمي.
– *تاريخ الحكماء* لجمال الدّين القفطي. تحقيق جوليوس ليبرت. ليبسك. 1903.
– *تاريخ الخلفاء* لجلال الدّين السّيوطي.
– *تاريخ* خليفة لخليفة بن خيّاط. تحقيق سهيل زكار. دمشق. 1967-1968.
– *تاريخ الخميس* للدّيار بكري. طبعة بولاق. 1283 هـ. (*تاريخ* الخميس. ج 2).
– *تاريخ الدّعوة الإسماعيليّة* لمصطفى غالب.
– *تاريخ* الطّبري للطّبري.
* في 15 جزء. نسخة مصوّرة عن الطّبعة الأوروبيّة. مكتبة خيّاط. بيروت.
* في 11 جزء. المطبعة الحسينيّة. القاهرة. 1326 هـ.
– *تاريخ الفكر العربي إلى أيّام ابن خلدون* لعمر فرّوخ. الطّبعة الثّالثة. دار العلم للملايين. بيروت. 1981.
– *تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام* لمحمّد علي أبو ريّان. الطّبعة الثّانية. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1983.
– *تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب*. لمحمّد لطفي جمعة. نشر المكتبة العلميّة. القاهرة. 1927.
– *تاريخ الفلسفة الإسلاميّة* لهنري كوربان. ترجمة نصير مروّة وحسن قبيسي، مراجعة موسى الصّدر وعارف ثامر. الطّبعة الثّالثة. منشورات عويدات. بيروت. 1981.

– *تاريخ الفلسفة العربيّة* لجميل صليبا. الطّبعة الثّانية. دار الكتاب اللّبناني. بيروت. 1973.

– *تاريخ الفلسفة العربيّة* لحنّا الفاخوري وخليل الجرّ. في جزأين. الطّبعة الثّانية. منشورات دار الجيل. بيروت. 1982.

– *تاريخ الفلسفة في الإسلام* لت. ج. دي بور. نقله إلى العربيّة وعلّق عليه محمّد عبد الهادي أبو ريدة. الطّبعة الخامسة. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1981.

– *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا.

– *تاريخ الفلسفة اليونانيّة* ليوسف كرم.

– *التّاريخ الكبير* للبخاري. في خمسة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1360 هـ- 1364 هـ.

– *تاريخ* المسعودي، ج3.

– *التّبصير في الدّين* للإسفراييني. القاهرة. 1955.

– *تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري* لأبي القاسم ابن عساكر الدّمشقي. طبعة القدسي. القاهرة.

– *تتمّة المختصر في أخبار البشر* لابن الوردي (المسمّى *تاريخ ابن الوردي*). في جزأين. مصر. 1285 هـ.

– *تحقيق ما للهند من مقولة* للبيروني.

– *تذكرة الحفّاظ* لشمس الدّين الذّهبي. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1955.

– (مجلّة) *التّراث العربي*، عدد 5–6 (عدد خاص بمناسبة ألفيّة ابن سينا).

– *التّراث اليوناني في الحضارة الإسلاميّة*، كارلو نللينو (مقال في) ص173 إلى ص198.

– *ترتيب المدارك وتقريب المسالك* للقاضي عياض. في أرعة أجزاء. تحقيق أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة–دار مكتبة الفكر. بيروت–طرابلس.

– *التّصوّف في الأدب والأخلاق* لزكي مبارك، ج1.

– *التّصوّف في الإسلام* لعمر فرّوخ.

– *تفسير الرّازي*، ج3/ص105.

– *تفسير القرآن* للطّبري (المسمّى *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*). ج 1 إلى ج 16. تحقيق محمود محمّد شاكر. دار المعارف بمصر. القاهرة.
– *التّفسير الكبير* للرّازي، (ج3/ص105)
– *التّفكير الفلسفي في الإسلام* لعبد الحليم محمود.
– *تلبيس إبليس* لابن الجوزي.
– *التّنبيه* للملطي.
– *تهذيب الأسماء واللّغات*، ج1، ج2.
– *تهذيب تاريخ ابن عساكر* لعبد القادر بدران. في سبعة أجزاء. دمشق. 1329 هـ– 1349 هـ.
– *تهذيب التّهذيب* لابن حجر العسقلاني. في 12 جزء. حيدر أباد الدّكن. 1325 هـ– 1327 هـ.

–ج–

– *الجاحظ حياته وآثاره* لطه الحاجري.
– *الجرح والتّعديل* لأبي حاتم الرّازي. في ثمانية أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1371 هـ – 1373 هـ.
– *جمهرة أنساب العرب* لأبي محمّد ابن حزم الظّاهري. تحقيق عبد السّلام هارون. دار المعارف. القاهرة. 1962.
– *الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة* لابن أبي الوفا القرشي. في جزأين. حيدر أباد الدّكن. 1332 هـ.

–ح–

– *حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة* لجلال الدّين السّيوطي. في جزأين. تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة. 1967–1968.

– *الحقيقة في نظر الغزالي* لسليمان دنيا. دار المعارف. مصر.
– *حلية الأولياء* لأبي نعيم الأصفهاني. في عشرة أجزاء. القاهرة. 1938.
– *الحوادث الجامعة والتّجارب النّافعة في المائة السّابعة* لأبي الفضل عبد الرزّاق ابن الفوطي البغدادي. بغداد. 1351 هـ.
– *الحور العين* لنشوان بن سعيد الحميري. تحقيق كمال مصطفى. القاهرة. 1948.
– *الحياة الرّوحيّة في الإسلام* لمصطفى حلمي.
– (كتاب) *الحيوان* للجاحظ. ج7. القاهرة. 1324 هـ.–1906 م.

–خ–

– *خزانة الأدب ولبّ لباب العرب* لعبد القادر البغدادي. في أربعة أجزاء. طبعة بولاق.
– *خطط* المقريزي (المسمّاة: المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار). في جزأين. طبعة بولاق. 1270 هـ.

–د–

– *دائرة المعارف الإسلاميّة*.
– *دراسات في الفرق والعقائد الإسلاميّة* لعرفان عبد الحميد.
– *الدّرّة المضيّة في أخبار الدّولة الفاطميّة* لأبي بكر بن عبد الله بن أبيك الدّواداري. تحقيق صلاح الدّين المنجد. القاهرة. 1961.
– *الدّيارات* للشّباشتي. تحقيق كوركيس عوّاد. بغداد. 1951.
– *الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب* لابن فرحون المالكي. مصر. 1351 هـ.

–ذ–

– *ذيل الرّوضتين* لأبي شامة (تراجم رجال القرنين السّادس والسّابع). القاهرة. 1947.

–ر–

– *رجال* ابن حبان. تحقيق فلايشهمر. القاهرة. 1909.

– *رجال الكشي* لأبي عمرو محمّد بن عمر الكشي. تحقيق أحمد الحسيني. كربلاء.

– *رجال* النّجاشي لأحمد بن علي النّجاشي. طبعة طهران.

– *رسالة إفتتاح الدّعوة* للقاضي النّعمان بن محمّد. تحقيق وداد القاضي. بيروت. 1970.

– *الرّسالة القشيريّة* لعبد الكريم القشيري.

* في جزأين. تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشّريف. القاهرة. 1966.

* بشرحي الأنصاري والعروسي، ج4.

– *رسالة الهداية والضّلالة للصّاحب* (المقدّمة) لحسين علي محفوظ.

– *روضات الجنّات* للخوانساري. طهران. 1367 هـ.

–ز–

– (كتاب) *الزّينة في الكلمات الإسلاميّة العربيّة* لأبي حاتم أحمد بن حمدان الرّازي.

–س–

– *سمط الآلي في شرح أمالي القالي* لأبي عبيد البكري. في جزأين. تحقيق عبد العزيز الميمني. القاهرة. 1936.

– *سيرة الغزالي* لعبد الكريم العثمان. دار الفكر. دمشق.

–ش–

– *شذرات الذّهب في أخبار من ذهب* العماد الحنبلي. في ثمانية أجزاء. القاهرة. 1350 هـ.–1351 هـ.

– *شرح الأزهار* للجنداري، ج1.

– *شرح البسامة* (شرح قصيدة ابن عبدون). القاهرة. 1340 هـ.
– *شرح عيون المسائل* للحاكم الجشمي. (ضمن كتاب *فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة*).
– *شرح نهج البلاغة* لابن أبي الحديد.
* الجزء الأوّل. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1959.
* ج2.
– *الشّعر والشّعراء* لابن قتيبة. في جزأين. دار الثّقافة. بيروت. 1964.
– *الشّيعة في التّاريخ* لمحمّد حسن الزّين.

–ص–

– *صفة الصّفوة* لابن الجوزي. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1355 هـ.
– *الصّلة بين التّصوّف والتّشيّع* لكامل مصطفى الشّيبي.

–ط–

– *طبقات الأطبّاء والحكماء* لابن جلجل. تحقيق فؤاد سيّد. القاهرة. 1955.
– *طبقات الأمم* لصاعد الأندلسي. نشر لويس شيخو. بيروت. 1912.
– *طبقات الحنابلة* لأبي الحسين محمّد بن أبي يعلى. في جزأين. القاهرة. 1952.
– *طبقات* خليفة.
– *طبقات الشّافعيّة* لجمال الدّين عبد الرّحيم الأسنوي. الجزء الأوّل. تحقيق عبد الله الجبور. بغداد. 1970.
– *طبقات الشّافعيّة* للحسيني. بغداد. 1356 هـ.
– *طبقات الشّافعيّة الكبرى* لتاج الدّين السّبكي. في ستّة أجزاء. المطبعة الحسينيّة. القاهرة. 1324 هـ.
– *طبقات الشّعراء* لابن المعتزّ. تحقيق عبد السّتّار أحمد فراج. دار المعارف. القاهرة. 1956.

– *طبقات الصّوفيّة* لأبي عبد الرّحمان السّلمي. تحقيق نور الدّين شربيه. القاهرة. 1953.
– *طبقات القرّاء* للجزري. ج1.
– *طبقات الفقهاء* لأبي إسحاق الشّيرازي. تحقيق إحسان عبّاس. بيروت. 1970.
– *طبقات الفقهاء الشّافعيّة* لأبي عاصم العبادي. تحقيق فيتستام. ليدن. 1963.
– *طبقات الفقهاء المالكيّة* للقاضي عياض.
– *الطّبقات الكبرى* لابن سعد.
* في ثمانية أجزاء. دار صادر ودار بيروت. بيروت. 1957–1958.
* في تسعة أجزاء. تحقيق إدور سخو. ليدن. 1904–1940.
– *الطّبقات الكبرى* للشّعراني (المسمّاة *لواقح الأنوار في طبقات الأخيار*). في جزأين. القاهرة. 1299 هـ.
– *طبقات المعتزلة* لأحمد بن يحيى ابن المرتضى. تحقيق سوسنه ديفلد–فلزر. بيروت. 1961.
– *طبقات المفسّرين* لجلال الدّين السّيوطي.
* ليدن. 1839.
* طهران. 1960.
– *طبقات النّحويّين واللّغويّين* للزّبيدي النّحوي. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1954.
– *طبقات* ابن هداية الله.

–ع–

– *العبر في خبر من غبر* للحافظ الذّهبي. تحقيق صلاح الدّين المنجد وفؤاد السيّد. الكويت. 1960–1966.
– (كتاب) *العبر وديوان المبتدأ والخبر* لابن خلدون. في سبعة أجزاء. بولاق 1284 هـ.

– *العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين* لتقيّ الدّين المكّي. تحقيق فؤاد سيّد ومحمّد طاهر الطناحي. القاهرة. 1959–1969.
– *عقيدة الشّيعة الإماميّة* للسيّد هاشم معروف. بيروت. 1956.
– *عمدة الطّالب في أنساب آل أبي طالب* للسيّد أحمد بن علي الدّاودي الحسني. تحقيق نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت.
– *عوارف المعارف* للسّهروردي.
– *عيون الأخبار* لابن قتيبة. في أربعة أجزاء. طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب. القاهرة. 1963.
– *عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء* لابن أبي أصيبعة. في جزأين.
* المطبعة الوهبيّة. القاهرة.
* بيروت. 1956.
– *عيون التّواريخ* لابن شاكر الكتبي. (مخطوط). (مخطوطة طوبقبوسراي رقم: 2922/21 ومخطوطة كوبللي رقم: 1121).
– *العيون والحدائق في أخبار الحقائق* لمؤلّف مجهول. تحقيق دي خويه ود. يونج. ليدن. 1869.

–غ–

– *الغرر والدّرر* للشّريف المرتضى.
– *الغزالي* لكارّا دي فو. ترجمة عادل زعيتر. القاهرة. 1959.
–*الغلوّ والفرق الغالية في الحضارة الإسلاميّة* لعبد الله سلوم السّامرّائي.

–ف–

– *فتوح* ابن أعثم لابن أعثم. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1968–1971.
– *الفرق بين الفرق* لعبد القاهر البغدادي.

* تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة.
* طبعة آفاق.
– *فرق الشّيعة* للنّوبختي. تحقيق هـ. ريتر. إستنبول. 1931.
– *فرق وطبقات المعتزلة* للقاضي عبد الجبّار.
– *الفصل في الملل والأهواء والنّحل* لابن حزم (وبهامشه *الملل والنّحل* للشّهرستاني). في جزأين. القاهرة. 1347 هـ.
– *الفهرست* لابن النّديم. طبعة مصوّرة عن الطّبعة الأوروبيّة بتحقيق فلوجل. مكتبة خيّاط. بيروت. 1964.
– *فهرست* الطّوسي
– *فوات الوفيّات* لابن شاكر الكتبي.
* في جزأين. تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة. 1956.
* في خمسة أجزاء. تحقيق إحسان عبّاس. دار صادر. بيروت.
– *في علم الكلام* لأحمد صبحي، ج1.

–ق–

– قاموس هيوقس الإسلامي.

–ك–

– *الكامل في التّاريخ* لابن الأثير. في 13 جزء. دار صادر–دار بيروت. بيروت. 1965–1967.
– *كشّاف إصطلاحات الفنون* للتّهانوي.
– *كشف الظّنون* لحاجّي خليفة. في جزأين. بعناية وكالة المعارف. 1941–1942.
– *الكشف والبيان* للقلهاتي.

–ل–

– *اللّباب في تهذيب الأنساب* لابن الأثير. في ثلاثة أجزاء. القاهرة. 1356 – 1369 هـ.

– *لسان الميزان* لابن حجر العسقلاني. في ستّة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1331 هـ.

–م–

– *مؤلّفات الغزالي* لعبد الرّحمان بدوي. القاهرة. 1961.

– *المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس* لابن أبي دينار. تحقيق محمّد شحّام. تونس. 1967.

– *مجالس* الشّيخ مفيد، ج2.

– *مجالس المؤمنين*

– *المحبَّر* لابن حبيب. حيدر أباد الدّكن. 1361 هـ.

– *مختصر الدّول* لابن العبري. نشر أنطوان صالحاني اليسوعي. الطّبعة الثّانية. بيروت. 1958.

– *مختصر الفرق بين الفرق* لعبد الرزّاق ابن رزق الله الرّسعني. تحقيق فيليب حتّى. مصر. 1964.

– *المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ عبد الله الدّبيثي* لأبي عبد الله الدّبيثي. تحقيق مصطفى جوّاد. بغداد. 1951.

– *مدخل التّعريفات* للجرجاني.

– *المذاهب الإسلاميّة* لأبي زهرة.

– *المذاهب الإسلاميّة للمتكلّمين في الإسلام* لماكس هرتان.

– *مرآة الجنان* لأبي محمّد اليافعي. في أربعة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1337–1339 هـ.

– *مراتب النّحويّين* لأبي الطيّب عبد الواحد بن علي اللّغوي. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة. 1955.

– *مروج الذّهب* للمسعودي. في أربعة أجزاء. تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. الطّبعة الثّالثة. القاهرة. 1958.
– *مطالع البدور في منازل السّرور* لعلاء الدّين الغزولي.
– *المعارف* لابن قتيبة. تحقيق ثروت عكاشة.. دار الكتب المصريّة. 1960.
– *معالم العلماء* لابن شهراشوب.
– *معاهد التّنصيص* لعبد الرّحيم العبّاسي. في أربعة أجزاء. تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة. 1947.
– *معجم الأدباء* لياقوت الحموي. في 20 جزء. القاهرة. 1936-1938.
– *معجم البلدان* لياقوت الحموي. في خمسة أجزاء. دار صادر ودار بيروت. بيروت. 1955-1957.
– *معجم الشّعراء* للمرزباني. تحقيق عبد الستّار أحمد فراج. القاهرة. 1960.
– *المعجم الفلسفي* لجميل صليبا. في جزأين. بيروت.
– *المعجم الكبير* للطّبراني، ج8.
– *مفتاح السّعادة* لطاش كبرى زاده، ج2.
– *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* لجواد علي، ج6/ص586.
– *مقاتل الطّالبيّين* لأبي الفرج الأصبهاني. تحقيق أحمد صقر. القاهرة. 1949.
– *مقالات الإسلاميّين* لأبي الحسن الأشعري.
* تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد. في جزأين.
* تحقيق هلموت ريتر. الطّبعة الثّانية. فيسبادن. 1963.
– *المقدّمة* لابن خلدون. في أربعة أجزاء. تحقيق علي عبد الواحد وافي. القاهرة. 1957-1962.
– *مقدّمة تبيين كذب المفتري* لمحمّد زاهد الكوثري.
– (كتاب) *المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى* لأبي حامد الغزالي.
– *الملل والنّحل* للشّهرستاني.

في جزأين. تحقيق محمّد سيّد كيلاني. دار المعرفة. بيروت. 1961.
في جزأين. تحقيق. بدران. مكتبة الأنجلو المصريّة. القاهرة.
في جزأين. (على هامش *الفصل* لابن حزم). القاهرة. 1347 هـ.
– *مناقب الإمام أحمد* لابن الجوزي.
– *مناهج السنّة النّبويّة* لابن تيميّة. في جزأين. تحقيق محمّد رشاد سالم. مكتبة خيّاط. بيروت.
– *من تاريخ الإلحاد في الإسلام* لعبد الرّحمان بدوي. القاهرة. 1945.
– *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم* لابن الجوزي. في عشرة أجزاء. حيدر أباد الدّكن. 1357 هـ.
– *من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة* لمحمّد عبد الرّحمان مرحبا. الطّبعة الثّانية. منشورات بحر المتوسّط ومنشورات عويدات. بيروت–باريس. 1981.
– *المنقذ من الضّلال* لأبي حامد الغزالي.
– *المنهل الصّافي والمستوفي بعد الوافي* لابن تغري بردي. الجزء الأوّل. تحقيق أحمد يوسف نجاتي. مطبعة دار الكتب. القاهرة. 1956.
– (كتاب) *المنية والأمل في شرح الملل والنّحل* لابن المرتضى.
– (كتاب) *مهرجان الغزالي* في دمشق 1961.
– *الموسوعة الإسلاميّة*، ج1.
– *موسوعة الدّين والأخلاق* (ج3/ص574)
– *موسوعة الفلسفة* لعبد الرّحمان بدوي. في جزأين.
– *الموسوعة المختصرة للإسلام* بإشراف هـ. جب، ص440 إلى ص444.
– *الموشّح* للمرزباني. تحقيق علي محمّد البجاوي. القاهرة. 1965.
– *ميزان الإعتدال في نقد الرّجال* للذّهبي. في أربعة أجزاء. تحقيق على محمّد البجاوي. مصر. 1963.

–ن–

– *النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة* لابن تغري بردي. في 13 جزء. دار الكتب المصريّة. القاهرة.

– *النّزعة الكلاميّة في أسلوب الجاحظ* لفكتور شلحت اليسوعي.

– *نزهة الألباء في طبقات الأدباء* لكمال الدّين ابن الأنباري. تحقيق إبراهيم السّامرائي. بغداد. 1959.

– *نشأة التّصوّف الإسلامي* لإبراهيم بسيوني.

– *نشأة الفكر الفلسفي* لسامي النّشّار، ج1/ص194.

– *نكت الهميان في نكت العميان* للصّلاح الصّفدي. طبعة مصر.

– *نور القبس المختصر من المقتبس للمرزباني* لأبي المحاسن اليغموري. تحقيق رودلف زلهايم. بيروت. 1964.

–و–

– *الوافي بالوفيّات* للصّلاح الصّفدي. ج1 وج4 وج7. باعتناء هلموت ريتر وس. ديدرينغ. من سلسلة النّشرات الإسلاميّة لجمعيّة المستشرقين الألمانيّة. مطابع مختلفة. 1931-1959.

– *الوزراء والكتّاب* لمحمّد بن عبدوس الجهشياري. تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة. 1938.

– *الوفيّات* لابن قنفد.

– *وفيّات* أبي الفدا لأبي الفدا، ج1.

– *وفيّات الأعيان* لابن خلّكان. تحقيق إحسان عبّاس. في ثمانية أجزاء. دار الثّقافة. بيروت.

– *ولاّة مصر* للكندي.

– *الولاّة والقضاة* لأبي عمر محمّد بن يوسف الكندي المصري. بيروت. 1908.

-ي-

- *يتيمة الدّهر* للثّعالبي. في أربعة أجزاء. تحقيق الشّيخ محمّد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة. 1375 هـ.-1377 هـ.

محتويات الجزء الأوّل

من كتاب أعلام النّبوّة

محتويات الجزء الأول
من كتاب أعلام النبوة

- التّصدير	**7 – 24**
I – أبو حاتم الرّازي	9 – 14
1 – نسبه	10
2 – كنيته	10
3 - نسبته	10
4 - رحلته في طلب الحديث	10 - 11
5 - ممّن روى عنهم	11
6 - ممّن رووا عنه	11
7 - مَن خرّج حديثه	11
8 - ثناء الأئمّة عليه	12 - 13
9 – آثاره	13
10 – وفاته	13
11 - ممّن ترجم له	13 - 14
II – أبو بكر الرّازي	14 - 20
1 - حياته ونشأته	15 - 18
2 - كتب الرّازي الطبّية	18 - 19
* كتاب الحاوي في الطبّ	19
3 - آراء الرّازي في الدّين	19 - 20

4 – مؤلّفاته 20
III – مضمون الكتاب 20 – 22
IV – النّسخة الخطّية المعتمَدة في التّحقيق 22
صورة من الصّفحة الأولى من نسخة كتاب
أعلام النّبوّة لأبي حاتم الرّازي الخطّية 23
صورة من الصّفحة الأخيرة من نسخة كتاب
أعلام النّبوّة لأبي حاتم الرّازي الخطّية 25

كتاب *أعلام النّبوّة* – الجزء الأوّل 27 – 212

الباب الأوّل 29 – 56

الفصل الأوّل
فيما جرى بيني وبين الملحد 31 - 38
الفصل الثّاني
في ذكر القدماء الخمسة والقول في التّقليد والنّظر 39 - 42
الفصل الثّالث
قوله: إنّ الخمسة قديمة لا قديمة غيرها
القول في الزّمان والمكان 43 - 48
الفصل الرّابع
[في] أنّ العالم محدَث 49 - 56

الباب الثّاني **98 – 57**

الفصل الأوّل
وممّا ذكر أيضا في كتابه واحتجّ به 60 - 59
الفصل الثّاني
عود إلى البحث والنّظر 66 - 61
الفصل الثّالث
البحث في التّعمّق 72 - 67
الفصل الرّابع
البحث في التّناقض 88 - 73
الفصل الخامس
إنّ أهل الشّرائع إذا طُلبوا بالدّليل شَتَموا! 90 - 89
الفصل السّادس
قوله: اغترُّوا بطول لحَى التّيوس... 92 - 91
الفصل السّابع
قوله: اندفن الحقّ أشدّ اندفان...! 94 - 93
الفصل الثّامن
قوله في الضّعفاء من الرّجال والنّساء...! 98 - 95

الباب الثّالث **166 – 99**

الفصل الأوّل
قوله: الآن نَنْظر في كلام القوْم وتناقضه 112 - 101

الفصل الثّاني
في حلية الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وشمائله 113 - 134
الفصل الثّالث
في كلام الأنبياء ورسومهم 135 - 144
الفصْل الرّابع
في باب المثل والمعْنى 145 - 156
الفصل الخامس
فيما ذكره الملحِد ممّا في التّوراة 157 - 166

الباب الرّابع **167 – 212**
الفصل الأوّل
ذكر شيء من اختلاف المتفلْسفة
وتناقض كلامهم 169 - 170
الفصل الثّاني
في اختلاف الفلاسفة في المبادئ 171 - 186
الفصل الثّالث
جملة الخلاف فيما قال الفلاسفة 187 - 190
الفصل الرّابع
أيُّ الفريقيْن أكذَب؟! 191 - 196
الفصل الخامس
لا اختلاف بين الأنبياء في الأصول 197 - 206
الفصل السّادس
الشّرائع كلُّها حقّ ولكن خُلِط به الباطل 207 - 212

قائمة المصادر والمراجع **213 – 234**

* قائمة المصادر والمراجع المعتمَدة في المقدّمة 215 - 216
* قائمة المصادر والمراجع المعتمَدة في التّحقيق 217 - 234

محتويات الكتاب **235 – 242**

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – عمارة عدد 3 – شقّة عدد 2 – المنار 2 – أريانة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر : 02-9938
عدد الطّبعة: الثّالثة
ت د م ك : 978-9938-02-034-2
تمّ سحب 1000 نسخة من هذا الكتاب

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع